

رسائل جامعية ١١

نبيل عبد الحي رضوان

الدولة العثمانية
وغربي الجزيرة العربية بعد افتتاح قناة السويس
(١٢٨٦ - ١٣٢٦هـ / ١٨٦٩ - ١٩٠٨م)

الطبعة الأولى
١٤٠٣هـ - ١٩٨٣م
جدة - المملكة العربية السعودية


بسم الله الرحمن الرحيم

الناشر
تهامة
جدة - المملكة العربية السعودية
ص.ب ٥٤٥٥ - هاتف ٦٤٤٤٤٤٤


الدولة العثمانية



المقدمة

أهمية الجزيرة العربية وعلى الأخص الحجاز للدولة العثمانية

الحمد لله رب العالمين والصلاة والسلام على أشرف الأنبياء والمرسلين سيدنا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين وبعد ٠

فإن أهمية الجزيرة العربية ترجع الى العصور القديمة ، إذ قامت بها حضارات عديدة منذ فجر التاريخ ، وكانت مركز الاتصال بين الشرق والغرب ، حيث تقوم العلاقات الاقتصادية على أساس متين من تبادل حاصلات الاقليم الموسمى في الشرق وحاصلات اقليم البحر المتوسط في الغرب (١) ٠ وموقع الجزيرة العربية عظيم الأهمية بالنسبة للمواصلات العالمية ، فهى تقوم على الطريق الى الهند والشرق الأقصى واستراليا ٠ كما تعتبر الجزيرة العربية بموقعها الممتاز والفريد مفتاح الخليج العربى والبحر الأحمر ٠ فهى تشرف على أهم وأقصر طريق بحرى عالمى ، تربط القارة الاسترالية وآسيا بالغرب ، فجميع البواخر التى تغادر أوروبا محملة بمختلف المصنوعات والمنسوجات متجهة لأسواق استراليا والشرق الأقصى والهند والخليج العربى وشرق أفريقيا ، تمر في البحر الأحمر ، وتعود في نفس الطريق مشحونة بمختلف حاصلات الشرق ٠ لذلك قامت على اطرافها مراكز تجارية ذات قيمة استراتيجية عظيمة مثل باب المندب وعدن ومضيق هرمز والكويت وغيرها(٢) ٠

---

١ ـ صلاح الدين المختار ، تاريخ المملكة العربية السعودية ، ص ١٩ ٠

٢ ـ مصطفى مراد الدباغ ، جزيرة العرب ، ص ١١ ٠

ولدراسة جزيرة العرب أهمية خاصة في تاريخ العرب والاسلام ، اذ كانت مهد الاسلام الحنيف ، ومن أبنائها كان الجند الذين وسعوا حدود دولة الاسلام وثبتوا دعائم الأمن والنظام ، ومنهم الخلفاء والقواد ، ورجال الادارة الذين سيروا دفة الدولة . لذلك لم تكن الجزيرة في تاريخها منعزلة عن أحداث الأقاليم المجاورة سواء في الحياة السياسية أو الحضارية . واذا تركنا الحديث عن صلاتها بالعالم قبل الاسلام فانها احتفظت منذ ظهور الاسلام بصلات وثيقة بأقاليم العالم الاسلامى ، بفضل الاعداد الكبيرة التى كانت تسلك طرقها لأداء فريضة الحج في كل سنة ، ومنهم من كان يستقر مقيماً في مدنها المقدسة ، أو في المراكز التجارية .. وأخيراً فإن صلة جزيرة العرب بما جاورها ظلت وثيقة بفضل القوافل التجارية التى كانت تمر بها ونتيجة لذلك فقد تعرضت الجزيرة العربية لتطورات كبيرة أوجدت فيها أحوالاً متبدلة(١) .

وقد درج الكتّاب على تقسيم الجزيرة العربية الى خمسة أقسام جغرافية :تهامة ونجد والحجاز والعروض واليمن (٢) على أن منطقة الحجاز لها أهمية خاصة بين تلك الأقسام ، وهو موضوع دراستنا ، وسمي الحجاز بهذا الأسم لأن جبال السراة حجزت بين نجد وتهامة ولامتداده بينهما ، (٣) ومنطقة الحجاز عبارة عن مكة المكرمة والمدينة المنورة واليمامة ومخاليفها ، وتلك المناطق جميعها قطعة من جزيرة العرب(٤) .

وقد كان لهذه المنطقة أهمية بالغة اذ كان يوجد فيها شريان رئيسي من شرايين التجارة العالمية التي أشرنا إليها ، وهو الطريق البري الذي يصل ما بين جنوب الجزيرة وشمالها ، ومنه تتفرع الطرق التي تتجه صوب الشرق والشمال

---

١ ـ د. صالح العلي ، جزيرة العرب للأصمعي ، بحث ألقي في مجمع اللغة العربية في القاهرة في دورة ٣٣ ، في ٢٤ شوال ١٣٨٦ هـ الموافق ٤ / ٢ / ١٩٦٧ ومنشور في كتاب بلاد العرب تأليف الحسن بن عبد الله الأصفهاني ، تحقيق حمد الجاسر وصالح العلي ، ص ١٥ .

٢ ـ القلقشندي ، صبح الأعشى ، جـ ٤ ، ص ٢٤٦ .

٣ ـ الهمداني ، صفة جزيرة العرب ، ص ٤٨ .

٤ ـ القلقشندي ، صبح الأعشى ، جـ ٤ ، ص ٢٤٤ .

الشرقي كما يوجد في موازاته البحر الأحمر كشريان رئيسي له مكانته العالمية في ميدان التجارة الدولية ، واذا كان الشريان الأول وأقصد به الطريق البري قد تقلص ، فإن الثاني لازال يمثل فرعاً حساساً من فروع السياسة العالمية ، ذلك هو البحر الأحمر ، فالمنطقة ذات أهمية كبيرة من الناحية العسكرية والاقتصادية وذلك على اعتبارها جسراً يصل بين بلاد الشام ومناطق حوض البحر المتوسط من جهة ، واليمن والمحيط الهندي من جهة أخرى · لذلك صارت أرضها منذ القدم طريقاً للتجار ، وأصبحت مرافئها منازل للبحارة وملاجيء لسفنهم (١) ·

ولأهمية هذه المنطقة فقد حاول اليونان بعد استيلائهم على الشام ومصر ، فتح الحجاز ، ليتمكنوا من الوصول الى اليمن ، وذلك مثل ما حدث في عهد الاسكندر الأكبر ، كما حاول الرومان في عهد أغسطس تكرار ما حاوله اليونانيون الا أنهم فشلوا جميعاً في محاولاتهم (٢) ، وعندما يئسوا وضعوا مشروعاً آخر الغرض منه احتلال الحجاز وذلك عن طريق الحبشة حليفة البيزنطيين ، اذ بنى أبرهة الحبشي كنيسة في صنعاء وأراد بعد ذلك أن يصرف إليها حجاج العرب فسار شمالاً بجيش كبير لاحتلال مكة ، إلا أن الحملة أخفقت(٣) ·

وقلت أهمية البحر الأحمر قبيل ظهور الإسلام وذلك لانشغال الروم بالصراع مع الفرس وتبعاً لذلك برزت في نهاية القرن السادس أهمية الطريق البري الذي يسيطر عليه العرب · وقام القرشيون بدور بارز في نقل التجارة مما أبرز أهمية الحجاز ، وعلى الأخص مكة المكرمة ، وبعد ظهور الإسلام ارتفع شأن الحجاز ، إذ قامت فيه الدولة الإسلامية الأولى في المدينة المنورة في عهد النبي عليه الصلاة والسلام فتوحدت الجزيرة العربية ثم اندفع العرب منها إلى الأقاليم الأخرى خارج الجزيرة ، وتكونت دولة عظيمة(٤) استطاعت أن تضع حداً للصراع القديم الذي كان قائماً في المنطقة ، وانتشر الإسلام بعد ذلك في أنحاء المعمورة ، وأصبحت بعد ذلك لشبه الجزيرة العربية أهمية خاصة في نظر العالم الإسلامي لأنها مهد الدعوة

---

١ ـ أحمد ابراهيم الشريف ، دور الحجاز في الحياة السياسية العامة ، ص ٣ ·

٢ ـ جرجي زيدان ، العرب قبل الإسلام ، ص ١١٥ ·

٣ ـ أبو جعفر محمد بن جرير الطبري ، تاريخ الرسل والملوك ، جـ ٢ ، ص ١٣١ ·

٤ ـ أحمد ابراهيم شريف ، دور الحجاز في الحياة السياسية العامة ، ص ١٥ ·

الإسلامية وموطن مقدساته ، وحرصت كل الدول الإسلامية على بسط نفوذها على الحجاز ، واعتزوا بحمل لقب خادم الحرمين الشريفين ، ونظراً لقلة الموارد في الحجاز فقد ارتبط أمراؤه بالحكام في مصر الذين يقومون بارسال المصروفات والمؤن إليهم ، ونتيجة للارتباط الوطيد فقد تأثر الحجاز في بعض الأحايين بالحالات السياسية القائمة في مصر ، في عهد الدولة الفاطمية والدولة الأيوبية والدولة المملوكية ٠

وكانت دولة المماليك قد وقعت في أواخر أيامها في صراع عنيف مع البرتغاليين الذين وقفوا يحاولون الدخول الى البحر الأحمر تمهيداً للنزول في الحجاز لتحطيم الأماكن المقدسة الاسلامية ٠ وأرسلت دولة المماليك الأساطيل الحربية إلى البحر الأحمر والمحيط الهندي فبدأت بسيطرتها على اليمن الذي يتحكم في مدخل البحر الأحمر الجنوبي عن طريق باب المندب لتكون قاعدة لهم في جنوب شبه الجزيرة العربية ، وأخذ البرتغاليون في المقابل توطيد قواعدهم الحصينة في الهند ، واشتد ضغطهم على المسلمين هناك ، ولم تكن نتيجة الصراع لصالح المماليك(١) ٠

ولما كانت الدولة العثمانية هي الدولة الإسلامية الكبرى القائمة بالفتح في أوروبا باسم الإسلام ، فقد رأى سلاطينها الالتفات الى الشرق والجنوب والاسراع بحماية البحر الأحمر من الاستعمار البرتغالى ، ولتتوفر لهم الزعامة الروحية والسياسية اللازمتين لمواجهة الغرب المسيحي خصوصاً بعد فشل الدولة المملوكية في اول محاولة ايجابية في المحيط الهندي في موقعة ديو البحرية سنة ١٥٠٩م ، ومن ثم رأى العثمانيون وجوب فتح مصر ، الذي كان في اعتبارهم الخطوة الأساسية لتكوين الجبهة الإسلامية(٢) ٠

وبعد انتهاء حكم الدولة المملوكية سنة ١٥١٧م ، انتقلت مسؤولية الدفاع عن الأراضي المقدسة الإسلامية إلى سلاطين الدولة العثمانية ، وحماية الأماكن المقدسة في الحجاز ، واستعادة طرق التجارة يتحتم على الدولة العثمانية أن تقضي على الخطر البرتغالى ، وعلى هذا الأساس شرع العثمانيون في بسط سلطانهم على البحر الأحمر وذلك بضم الحجاز واليمن ، وجانبه الأفريقي بضم سواكن ومصوع وهرر ٠

---

١ ــ محمد عبد المنعم السيد الراقد ، الغزو العثماني لمصر ، ص ٢٢٩ ٠

٢ ــ د٠ محمد عبد اللطيف البحراوي ، فتح العثمانيين عدن ، ص ٨٧ ٠

ومن البحر الأحمر بدأت الأساطيل العثمانية بالخروج لمقاتلة البرتغاليين في المحيط الهندي والخليج العربي وذلك لفك الحصار البرتغالى الذي فرض حول الشواطيء العربية(١).

وبعد انتهاء الدولة العثمانية من تلك المهمة في البحر الأحمر كان عليها أن تستحوذ على الزعامة في العالم الاسلامي ، وقد آلت اليهم تلك الزعامة في مصر والحجاز ولكنهم فشلوا في تحقيقها في فارس .

وكان فتح اليمن شيئا ضروريا لتحقيق الزعامة الإسلامية وخاصة لقيام علاقات قوية بين الأشراف في الحجاز ، وبين أئمة اليمن وسلاطينها(٢) بالاضافة الى تأمين الحدود الجنوبية للحجاز . وكان سلاطين الدولة العثمانية على العموم يبذلون ما في وسعهم لتحقيق سلطانهم على الحجاز ، ومن ذلك أن جعلوا البحر الأحمر بحيرة إسلامية لا تستطيع السفن المسيحية المرور فيه ، كما ساير العثمانيون الظروف في الحجاز وأقروا الأنظمة السائدة فيه ،، وكانت علاقاتهم بأشراف الحجاز علاقة حسنة ذات نتائج ايجابية بناءة ، كما غمر السلاطين العثمانيون الحجاز عموماً ومكة المكرمة خصوصاً بكثير من عطفهم وحسن سياستهم وكان كل سلطان لا يتردد في اقرار الشريف على امارته وارسال الخلع والهدايا إليه وتخصيص رواتب كثيرة لكثير منهم ، إضافة لارسال آلاف الأرادب من الحبوب ، وذلك عن طريق تخصيص أرض موقوفة على أهل الحرمين الشريفين ، ونتيجة لتلك الامتيازات نَعِمَ الحجاز بسلام وطمأنينة لم يعهده من قبل ، ولم تكن سلطة العثمانيين قائمة على الجاه وقوة النفوذ وإنما لاتباع المسؤولين في الدولة العثمانية وسائل إدارية حسنة جعلت الحجازيين يألفون هذه السلطة(٣) .

ظلت هذه السياسة قائمة حتى خروج الدولة العثمانية من اقليم الحجاز وبداية عهد جديد المتمثل في دخول الحكم السعودي الأول للحجاز والذي كان سنة ١٢١٨ هـ الموافق ١٨٠٣ م ، وذلك بعد انسحاب الشريف غالب وجنوده من الطائف وفراره إلى مكة المكرمة ، بعد ذلك تعقبه سعود وانهزم الشريف غالب في جدة(٤) . وبعد أن استولى سعود على مكة أرسل خطاباً إلى السلطان سليم الثالث

---

١ ـ محمد عبد المنعم السيد الراقد ، الغزو العثماني لمصر ، ص ٢٣٠ .

٢ ـ محمد عبد اللطيف البحراوي ، فتح العثمانيين عدن ، ص ١٣٨ .

٣ ـ محمد عبد اللطيف البحراوي ، فتح العثمانيين عدن ، ص ٢٠٥ .

٤ ـ ابن بشر ، عنوان المجد في تاريخ نجد ، جـ ١ ، ص ١٤٩ .

هذا معناه ، « من سعود إلى سليم : أما بعد فقد دخلت مكة في الرابع من محرم سنة ١٢١٨ هـ وامنت أهلها على أرواحهم وأموالهم بعد أن هدمت ما هناك من أشباه الوثنية ، وألغيت الضرائب إلا ما كان منها حقاً ، وثبت القاضي الذي وليته أنت طبقاً للشرع ، وعليك أن تمنع والي دمشق ووالي القاهرة من المجيء بالمحمل والطبول والزمور إلى هذا البلد المقدس فإن ذلك ليس من الدين في شيء ، وعليك رحمة الله وبركاته » .

وبعد فتح مكة بسنتين استولى السعوديون على المدينة المنورة ، ثم اتجهوا نحو الشمال حيث دانت لهم الجوف والبتراء ، واجتازوها الى حوران والكرك فوقفوا منتصرين عند أبواب الشام وفلسطين(١) . وكانت الدولة العثمانية في هذه الفترة تمر بحالة ضعف وانهيار ، ففي نهاية القرن السابع عشر تقهقرت الجيوش العثمانية في الأرض المجرية وكانت الحدود الروسية العثمانية مع أواخر القرن الثامن عشر في حالة غير مستقرة ، كما سيطرت روسيا على أزوف والقرم وأخذتهما بموجب معاهدة (Jassy) سنة ١٧٩٢ م وهذا يعني سيطرة روسيا على البحر الأسود ، كما أخذت فرنسا الجزر الأيونية وممتلكات البندقية بألبانيا جنوبي خليج درين (DRIN) (٢) . هذا الى جانب ضعف النظام الحربي بعد القضاء على نظام الانكشارية . وصار الواجب على كل جيش نظامي جديد أن يتوجه إلى أوروبا ، حيث كانت الدولة تواجه أخطار الغرب المسيحي ، وعلى الرغم من هذا الضعف والتفكك الذي ساد الدولة في هذه الفترة من الزمن ، اتجهت الدولة العثمانية الى واليها في مصر محمد على باشا ليتولى بنفسه إنقاذ الحرمين الشريفين وإخراج أهل نجد(٣) ، فقد عزّ على الدولة أن تفقد تلك الأماكن المقدسة التي بموجبها حصل السلطان العثماني على المكانة الروحية بين الشعوب الإسلامية ، وبعد أن وافق محمد علي باشا على إنفاذ تلك

---

١ ـ أمين الريحاني ، تاريخ نجد وملحقاته ، ص ٧٠ .

٢ ـ محمد عبد اللطيف البحراوي ، حركة الإصلاح العثماني ، ص ١٨ ـ ١٩ .

٣ ـ أمين الريحاني ، تاريخ نجد وملحقاته ، ص ٧١ .

الحملة أرسلت الدولة العثمانية إليه الذخائر والعتاد الحربي ، كما بعثت بالأموال التي يحتاجها الوالي المصري وبعدد من الجنود (١) .

وفي خريف سنة ١٢٢٦ هـ (١٨١١ م) أرسل محمد على أول حملة بحرية بقيادة أبنه أحمد طوسون الذي يبلغ السابعة عشر من عمره ، ووصل إلى ميناء ينبع ، ومنها اتجه نحو المدينة ، بعد أن استعد له السعوديون ، ولاقى الجيش العثماني هناك هزيمة ، ارتد بعدها طوسون إلى ينبع ، وطلب النجدات من والده في مصر وفي السنة التالية ١٢٢٧ هـ (١٨١٢ م) وصلت تلك النجدات . واستطاعت أن تقضي على سيطرة السعوديين وتستعيد الأماكن المقدسة(٢) ، لتعود إلى حظيرة الدولة العثمانية ؛ والجدير بالملاحظة أن عملية إرسال جنود من عاصمة الدولة العثمانية الآستانة ، وإشراكهم في حملة محمد على لانقاذ الحرمين ، كان مغزاه أن الجيش المحارب ما هو إلا جيش عثماني ، وما محمد علي إلا والٍ عثماني ، وذلك حتى لا تجتمع عواطف المسلمين في العالم على حب محمد علي وولائه بصفته منقذ الحرمين ومعيد مناسك الحج ، وبذلك تحتفظ الدولة العثمانية بمركزها الممتاز في العالم الإسلامي ..

من خلال ذلك يتبين أن العثمانيين كانوا يقدرون أهمية المحافظة على نفوذهم في الجزيرة العربية التي تحتضن بين جنباتها مقدسات المسلمين ، فكانت حماية العثمانيين لتلك المقدسات ضماناً لزعامتهم للدول الإسلامية واحتفاظاً بلقب السلطان العثماني خليفة للمسلمين وحامياً للحرمين الشريفين ؛ وانبثاقاً من ذلك الهدف كان عنوان كتابي ، « **الدولة العثمانية وغربي الجزيرة العربية بعد افتتاح قناة السويس** » .

وقد قسمت الكتاب إلى خمسة فصول ، تناولت في الفصل الأول ، الوضع في غربي الجزيرة العربية قبيل افتتاح قناة السويس ، وكيف كان للأشراف في الحجاز نفوذ قوي في حين كانت الدولة لا تستطيع أن تقضي على ذلك النفوذ ، على الرغم من وجود والٍ عثماني بجانب الشريف ، بالإضافة إلى قوة عثمانية ، فوجود

---

١ ـ ابن بشر ، عنوان المجد في تاريخ نجد ، جـ ١ ، ص ١٩١ .

٢ ـ أمين الريحاني ، تاريخ نجد وملحقاته ، ص ٧٢ ـ ٧٣ .

الدولة في اقليم الحجاز أشبه بوجود أسمي ، ثم انتقلت بالحديث عن عسير والمخلاف السليماني هناك . أما المخلاف فكانت به الثورات التي قامت بها القبائل ضد الشريف حسين حاكم المخلاف ، بالإضافة إلى ضياع الأمن في تلك النواحي ، ثم تعرضت لمنطقة اليمن لأصور الاضطراب السياسي الذي أوجد حالة من الفوضى بلغ أقصاه في صنعاء وأشرت إلى تنافس الأئمة فيما بينهم حول الاستئثار بالإمامة وتحريض القبائل اليمنية على بعضها البعض لنصرة إمام على آخر ، مما نتج عنه غرق البلاد في حروب أهلية ، بعد ذلك تعرضت بالحديث لعدن لأصور الحالة التي كانت عليها ، والذي يتمثل في الوجود البريطاني ، وكيفية إحتلال المنطقة دون عمل حاسم مقابل من جانب الدولة العثمانية ، كل ذلك لأصل لنتيجة هي أن الدولة العثمانية كان وجودها في غرب الجزيرة العربية وجوداً ليّناً هشاً بسبب صعوبة المواصلات لارسال الحملات من العاصمة إلى غربي الجزيرة العربية قبيل افتتاح قناة السويس ·

وخصصت الفصل الثاني ، لقناة السويس ، وفي البداية تحدثت عن عودة طريق التجارة العالمية الى البحر الأحمر ، نتيجة لافتتاح قناة السويس ، فأشرت باهتمام إلى التنافس الذي قام بين انجلترا وفرنسا للاستحواذ على مركز ممتاز في المنطقة ، فبريطانيا أدركت أهمية قناة السويس ، لذلك فهي تسعى دائماً لتأمين الطريق إلى الهند ، وتخشى من نفوذ أية دولة أخرى تنافسها في هذا الميدان ، ثم يأتي دور فرنسا التي سعت بأن يكون لها مركز ممتاز في القناة ، ورأت أن تحافظ على ذلك المركز باعتبارها صاحبة الامتياز . أما الدولة العثمانية فكانت ترى في نفسها صاحبة الحق على القناة باعتبارها جزءاً من أراضيها الشاسعة ، كما تعرضت أيضاً لأثر عودة التجارة العالمية على سواحل البحر الأحمر وازدهار موانيها نتيجة لمرور السفن في ذلك الطريق ، بعد ذلك انتقلت لنقطة أخرى وهي أهمية القناة للدولة العثمانية من حيث سياستها العربية ، وأبرزت فيها أثر القناة على الدولة وأنها كانت عاملاً يسّر عبور السفن العثمانية ، ووصل ميناء العاصمة الآستانة بموانيء غرب الجزيرة العربية ، مما سهل عملية توصيل الامدادات العسكرية في وقت قصير وشجع الدولة على أن تقف عن كثب على أمور هذا الجزء وأقصد به غرب الجزيرة وأن تقيم حكماً فعالاً فيه ·

أما الفصل الثالث فقد تضمن ، جهود الدولة العثمانية لتأمين الحجاز بعد افتتاح قناة السويس ، وأوضحت بأن افتتاح قناة السويس ساعد الدولة في ارسال حملة لاخماد القلاقل في عسير بعد أن عظم شأن محمد بن عائض حاكم عسير وذلك في سنة ١٨٧٢ م ، وأقامت بعد ذلك حكمها الفعلي في منطقة عسير والمخلاف السليماني مما أدى الى القضاء على الحركات الاستقلالية ، وتمكن الدولة من اقامة حاميات عسكرية فيها بالاضافة الى بناء المنشآت العسكرية ، بعد ذلك تطرقت إلى اليمن التي نهشتها الفتن والصراعات والتنافس بين الأئمة الزيدية ، فوجهت اليها الدولة حملة عثمانية قضت على تلك الفتن وحققت نوعاً من الاستقرار ، بعد أن قامت الدولة بتطبيق نوع من نظام الولايات ، وعينت جيشاً خاصاً لليمن وهو الجيش السابع الذي ثبت سلطة الدولة على مناطق عسير والمخلاف السليماني واليمن ٠ وشعرت الدولة بضرورة مد سيطرتها على عدن ليكون لها مركز ممتاز فيها وسعت لذلك بالطرق السلمية مبتعدة عن مواجهة بريطانيا في تحقيق ذلك المركز ، والغرض من ذلك الشرح هو أن أصل بأن قناة السويس ساعدت على القيام بتلك المحاولة وفتحت آفاقاً جديدة أمام الدولة العثمانية جعلتها تعيد النظر في سياستها تجاه تلك المناطق وذلك بإعادة السيطرة عليها ٠

أما الفصل الرابع فقد تضمن عوائق استكمال نفوذ الدولة العثمانية على غربي الجزيرة العربية ٠ وتناولت في هذا الفصل الاستراتيجية الانجليزية لاحتلال قناة السويس ، ومدى عجز الدولة عن فرض سيطرتها على القناة مع التعرض للجانب السياسي بين طرفي النزاع ـ انجلترا والدولة العثمانية دون التعرض كثيراً الى الجانب الحربي ، وكيف استطاعت انجلترا أن تستغل كل الظروف لخدمة نواياها وانتقلت بعد ذلك للنفوذ الانجليزي في عدن الذي ازداد كثافة بعد أن أحست انجلترا برغبة الدولة العثمانية في اعادة سيطرتها عليها ، وكان ذلك معناه تهديد لمركز بريطانيا فيه ، فطورت بريطانيا بعد ذلك معاهدات الصداقة واستبدلتها بمعاهدات حماية مع رؤساء المناطق المجاورة لعدن ، وذلك حتى لا تحاول الدولة العثمانية أن تفكر في مد سيطرتها على تلك المناطق ، ولتنفرد بريطانيا بالنفوذ المطلق في عدن ، واستطاعت بريطانيا أن تنجح في ذلك فعقدت سبع عشرة معاهدة مع رؤساء المناطق المجاورة لعدن ، بعد ذلك تعرضت لثورة اليمن ضد الدولة

العثمانية والتي استمرت سنين طويلة ، وتعرضت بالحديث عن سيرة بعض الولاة الذين كان لهم أهمية خاصة في هذه الفترة ، ثم تعرضت لموقف الدولة تجاه الثورات القائمة ، وارسال بعض الولاة الذين نجحوا في التقليل من حدة تلك الثورات، والغرض من ذلك هو ايضاح أن هذه المشكلات والتي قامت في وجه الدولة كانت عائقاً لاستكمال نفوذ الدولة العثمانية على غربي الجزيرة العربية ، وعلى الأخص المناطق الجنوبية ٠ ونتيجة لذلك اتجهت الدولة إلى إنشاء سكة حديد الحجاز ، وهذا هو موضوع الفصل الخامس ٠

وفي بداية هذا الفصل تحدثت عن اهتمام الدولة العثمانية بإنشاء شبكة سكك حديدية في معظم أقاليم الدولة ، وذلك بغرض ربط أجزاء الدولة المترامية الأطراف وكيف كان رأس المال الألماني عاملاً مساعداً لقيام تلك الشبكة ثم انتقلت لسكة حديد الحجاز . وعوامل إنشائه لنرى اهتمام الدولة بذلك المشروع للوصول الى هدفها وهو تأمين الحجاز تأميناً مباشراً حتى افتتاح الخط في سنة ١٩٠٨ م ٠

وانتقلت بعد ذلك إلى الفوائد التي عادت للدولة من إنشاء الخط سواء بالنسبة لنقل الحجاج إلى الأماكن المقدسة ، أو لأنه كان عاملاً مساعداً لحركة الجامعة الإسلامية والتي كان يرعاها السلطان عبد الحميد ، والأهم من ذلك هو إيضاح أن الخط كان خير بديل لقناة السويس ، ثم تحدثت بعد ذلك عن أثر الخط على غربي الجزيرة العربية من حيث ازدهار الحركة التجارية ، وإنشاء القرى والمزارع حول الخط ، بالاضافة إلى ذلك تعرضت للمشاكل التي واجهت الدولة في سبيل استكمال بناء الخط ٠

وانتقلت بعد ذلك للحديث عن الخاتمة أو النتائج ، وقد شرحت في البداية كيف أن القناة كانت أداة لتدعيم سياسة الدولة في الجزيرة العربية وعلى الأخص الجزء الغربي منها ، بل أن الدولة حاولت الاستفادة من هذا الوضع في غربي الجزيرة بتعزيز وجودها في الخليج العربي ، وفي شرق الجزيرة كذلك ، ومن ذلك تعيين مدحت باشا على ولاية بغداد في نفس السنة التي افتتحت فيها قناة السويس ثم محاولة مدحت باشا اعادة سيطرة الدولة على الخليج العربي ، وفي الاحساء والكويت ، وفي مقابل ذلك كانت هناك عوائق واجهت الدولة في اكمال سيطرتها على الجزيرة ، ومن ذلك النمو المستمر في النفوذ البريطاني على جنوب غربي

الجزيرة ، وعلى الساحل الشرقي للقارة الأفريقية ، وفي البحر الأحمر بوجه عام ، والأهم من ذلك احتلال انجلترا مصر وبالتالى على القناة ، وذهبت بريطانيا ، كما ذهبت الدولة العثمانية الى بسط سيطرتها على البحر الأحمر بتدعيم سيطرتها في الخليج العربي عن طريق فرض حمايتها عليه ٠

وأشرت بعد ذلك الى الظروف التاريخية التي اضطرت الدولة العثمانية الى ارخاء قبضتها على مصر بعد افتتاح القناة ، وذلك بمنح نظام الخديوية امتيازات عديدة بموجب فرمانات بالاضافة إلى تعقد الصراع الدولى الاستعماري في هذه الفترة ، كل ذلك ترتب عليه الاحتلال البريطاني لمصر ، ثم القناة ٠

وانتقلت بعد ذلك للتحدث عن الوضع في قلب الجزيرة « نجـد » وشرقي الجزيرة ٠٠ فتحدثت عن حائل وآل رشيد ، وصلاتهم الودية بالعثمانيين وولائهم للدولة ٠ بيد أن القوة النامية في الرياض على يد المغفور له الامام عبد العزيز هي التي حسمت الموقف في قلب الجزيرة وفي شرقها ، وهذا هو ما اختتمت به حديثي في هذا الجزء منها ، وانتهى بنا تحليل الموقف في غربي الجزيرة ووسطها وشرقها ، إلى أن مد خط سكة حديد الحجاز ثم افتتاحه كان هو الحل البديل والحتمي لنتائج التطورات في هذه الحقبة ٠

كانت تلك الخاتمة ٠٠

أما الملاحق فهي عبارة عن ثلاث خرائط توضح قناة السويس ، وأهم المدن القائمة عليها ، وخريطة أخرى لسكة حديد الحجاز ، وأخرى للمناطق المجاورة لميناء عدن ، كما توجد ثلاث وثائق تعكس العلاقات بين بريطانيا والدولة العثمانية ، بعد المحاولة الأخيرة لإعادة سيطرتها على المناطق المجاورة لعدن والحاح بريطانيا على انسحاب العثمانيين من تلك المناطق ٠

ويهدف هذا الكتاب الى ابراز اهتمام الدولة العثمانية بمنطقة الجزيرة العربية ، وعلى الأخص منطقة غرب الجزيرة من أجل تأمين الحجاز ،ومن أجل أن تحظى الدولة العثمانية بشرف استمرار حمايتها للأماكن المقدسة ، واستمرار احتفاظ السلطان العثماني بلقب خادم الحرمين الشريفين ٠

وأخيراً فإن هذا البحث المتواضع ماهو إلا جزء من خطة تستهدف تغطية كافة جوانب تاريخ شبه الجزيرة العربية ، إذ بدا لي من اطلاعي على كثير من المصادر والمراجع التي تناولت تاريخ شبه الجزيرة ، أن الذين كتبوا وأرخوا لشبه الجزيرة العربية في عصورها التاريخية المختلفة ، كتبوا عنها كجزء من دولة اسلامية كبرى دون أن يفردوا لها دراسة متخصصة عميقة ، سواء في العصور الوسطى الإسلامية ، أو في العصر العثماني ، وقد آن الآوان أن يأخذ أبناء شبه الجزيرة العربية المتخرجون من أقسام التاريخ بجامعات المملكة العربية السعودية على عاتقهم دراسة تاريخ شبه الجزيرة العربية بعمق ... لاسيما في عصورها الحديثة الإسلامية ..

والله ولى التوفيق ..

المؤلف

الرموز المستعملة في الكتاب

الرمز	ما يعبر عنه
ت	توفي
جـ	جـزء
ق	قسم
ط	طبعة
ص	صفحة
C. R. T. P.	Correspondence Respocting Turkish Proceedings in Neigbourhood of A den
P	Page.



الفصل الأول

الوضع في غربي الجزيرة العربية قبل افتتاح قناة السويس

أ- الأشراف في الحجاز .

ب- الحالة في عسير واليمن .

ج- البريطانيون في عدن .



الأشراف في الحجاز

أقر العثمانيون في ولاية الحجاز النظام المعروف باسم نظام الشرافة ، وبمقتضى هذا النظام يتولى الحكم أحد الأشراف إلى جانب وجود والٍ عثماني . وكان من عادة العثمانيين تجنب ادخال تغييرات جذرية في البلاد التي يتم فتحها ، واستبقاء الأنظمة السائدة طالما لا تتعارض مع نظم الدولة وأهدافها ، واستحدث العثمانيون بجانب نظام الشرافة نظاماً مدنياً آخر ، اذ أنشأوا في ثغر جدة سنجقية يقيم فيها وال كانت رتبته في أغلب الأحيان سنجقاً ، وفي أحيان أخرى باشا (١) .

وبفضل نظام الشرافة تمتع الحجاز خلال العصر العثماني الأول بقدر كبير من الاستقلال الذاتي ، وأصبح الاشراف يعتمدون في مصروفاتهم على القاهرة أكثر من العاصمة القسطنطينية ، على الرغم مما ترسله الدولة كل سنة من مال كانت الدولة قد قررته على مصر واعتبرته من التزامات مصر السنوية(٢) ، وهو غلال الجراية والصدقة إلى مكة المكرمة والمدينة المنورة(٣) .

كان نفوذ العثمانيين قد ضعف منذ بداية القرن الثاني عشر في جميع أنحاء شبه الجزيرة العربية تقريباً بسبب اختلال نظام الانكشارية ، الذي فقد تدريجياً كل مزاياه ، وتحول في النهاية إلى معول هدم لشؤون الحرب والادارة ، وقد أدى ذلك إلى اختلال نظام الحكم من جميع الوجوه ، وبخاصة في الولايات العثمانية البعيدة عن العاصمة(٤) ، إلا أن الأشراف ظلوا محتفظين بولائهم للباب العالى اذ كان يتسلم براءة منصبه ويعترف من جانبه ، أي الشريف ، بالقاضي الذي يعينه السلطان ، ويفخر بأنه خادم الدولة والسلطان العثماني (٥) . ومع ذلك لم

---

١ ـ د. فائق الصواف ، العلاقات بين الدولة العثمانية واقليم الحجاز ، ص ٤٨ .

٢ ـ سيد رجب حراز ، الدولة العثمانية وشبه جزيرة العرب ، ص ١٠١ .

٣ ـ سجل ٢٤ عابدين ترجمة « الوثيقة » رقم ٧٢ . شوقي عطا الله الجمل ـ الوثائق التاريخية لسياسة مصر في الحجاز ، ص ٤٢٣ .

٤ ـ فاروق أباظه ، الحكم العثماني في اليمن ، ص ٣٠ .

٥ ـ سيد رجب حراز ، الدولة العثمانية وشبه الجزيرة العربية ، ص ١٠٢ .

تكن الصلات بين الاشراف والدولة العثمانية ودية تماماً . فعندما كان يبدو على أحدهم بأنه غير صالح يطلب منه لزوم داره ويستبدل به آخر . لذلك كانت المكائد منتشرة بينهم ، وأصبحت رغبة السلاطين هي أن يجعلوا الحجاز ولاية عثمانية تدار ادارة مباشرة أو شبه مباشرة(١) .

وكان الشريف يعتبر صاحب الكلمة العليا في تصريف شؤون البادية ، وهو المرجع الأكبر في الحجاز ، وكان يتصل مباشرة بالصدر الأعظم ، ويأتي بعده في لائحة التشريفات العثمانية .

ومن أهم اختصاصات الشريف تأمين قوافل الحج الذاهبة إلى الحجاز وخصوصاً قافلة الحج الشامي والتي تضم حجاج الشام وتركيا ، وقافلة الحج المصري وتضم حجاج مصر وشمال أفريقيا ، بالاضافة الى قافلة الحج العراقي وتضم حجاج العراق وفارس ، وقافلة الحج اليمني وتضم بلاد اليمن والهند وأندونيسيا ، وتأمين القوافل عبارة عن تأمينها من أعمال السلب والنهب التي تتعرض لها من جهة الأعراب وقطاع الطرق ، ويعتمد الشريف في ذلك على نفوذه لدى القبائل العربية القاطنة على طرق القوافل ، اذ لم تكن هناك قوات عسكرية نظامية ، ويوجد هناك أيضاً محطات حراسة أنشأتها الدولة العثمانية بجوار الآبار على طول طريق قافلتي الحج الشامي والحج المصري(٢) .

وفي العهد العثماني الأول كانت القضايا الادارية للبلاد من اختصاص الاشراف ثم استحدث العثمانيون في كل مدينة مجلساً خاصاً للفصل فيها وكان أعضاؤه من الحجازيين والعثمانيين غير الحجازيين ، وسوف نتعرض لهذا المجلس بالتفصيل فيما بعد ، اذ كان هذا المجلس قد تكون بمقتضى قانون الولايات الذي صدر في سنة ١٨٦٤ بهدف دعم سياسة الدولة المركزية ، حيث قسمت السلطنة إلى ولايات تتألف من متصرفيات ، وهذه تتألف من قائمقاميات يتبع كلا منها عدد من النواحي ، وكانت الهيئات المنتخبة التي أوجدها قانون الولايات الجديد ، لتعاون الولاة والمتصرفين والقائمقاميين غير خاضعة للقانون العام ، ولم يكن جميع أعضائها

---

١ ـ هارولد . ف ، عدن وجنوب اليمن في ملوك العرب ، ص ١٥١ .

٢ ـ د. فائق الصواف ، العلاقات بين الدولة العثمانية واقليم الحجاز ، ص ٤٨ .

منتخبين ، بل ان الأعضاء المنتخبين لم يكونوا يشكلون سوى أربعة من تسعة أعضاء بمن فيهم الوالى ، أما الأربعة الباقون فيكونون من كبار موظفي الدولة الذين يعملون إلى جانب الوالى أو المتصرف أو القائمقام في كل وحدة من الوحدات الادارية ٠

وقد قسمت الدولة العثمانية البلاد العربية أثر تنفيذ قانون الولايات الجديد الى الولايات التالية ، حلب وبيروت ودمشق وبغداد والموصل والبصرة وطرابلس الغرب بالاضافة إلى متصرفيات مستقلة تابعة رأساً للباب العالى وهي ، جبل لبنان ، والقدس وديرالزور وبنغازي ، وكانت هناك ولايتا الحجاز واليمن اللتان لم يطبق فيهما قانون الولايات تطبيقاً تاماً ، بسبب التعارض مع نظام الشرافة والامامة(١) ٠

وفي سنة ١٢٨٦ هـ الموافق ١٨٦٩ م كان افتتاح قناة السويس دعماً لهذا النظام الجديد ، حيث تقلصت سلطة الاشراف ، بعد أن كانوا يوقعون عقوباتهم بالسجن أو بالنفي أو القتل دون أن يستأذنوا السلطان ، أما في ظل هذا النظام فقد اقتصر نفوذهم على حكم البلاد باسم العثمانيين اذ أصبحوا يرجعون إليهم في كل شأن من شؤون الحكم ٠

تمتع الاشراف بواردات بلادهم في العهد العثماني الأول بالاضافة إلى مايصلهم من منح السلاطين ، إلا أن الدولة حددت بعد ذلك دخل الشريف ، وأضيفت الأموال المتحصلة إلى قيود الخزينة العامة ، ومع هذا كان لبعض الأشراف مصادر تدر عليهم بعض الأموال كخرج الجمال واتاوات أخرى يأخذونها من بعض الطوائف العاملة في خدمة الحجاج أو رؤساء حلقات بيع المنتجات الزراعية ، ولم يعارض الولاة العثمانيون في ذلك إلا في حالات قليلة عندما كانوا يشعرون بضعف الشريف(٢) ، ومن خلال هذا يبدو ضعف نفوذ الدولة أو اتساعه على حسب قوة الحاكم من الأشراف ، ومما هو جدير بالملاحظة أن واردات الحجاز تلك التي تضاف إلى الخزينة العامة لا تغطي نفقات الحجاز ولا تعود بربح لخزانة الدولة بل كانت الدولة تنفق على مرتبات الاشراف ورؤساء القبائل وكبار العلماء وأعيان البلاد والموظفين ما يزيد مجموعه من الواردات والتي تنحصر في رسوم التقاضي ٠

---

١ ـ فاروق أباظه ، الحكم العثماني لليمن ، ص ١٠٣ ـ ١٠٤ ٠

٢ ـ أحمد السباعي ، تاريخ مكة ، ص ١٨٧ ٠

وقد أشرنا من قبل أنه كان بجانب الأشراف قائد عسكري يسمى السنجق ومكانه جدة ، ثم تحول هذا اللقب الى والي جدة الذي نقل مقره الى مكة وكان ذلك سنة ١٢٨٧ هـ/١٨٧٠م (١) وأقامت الدولة في الحجاز إلى جوار الوالي العثماني وشريف مكة قوة عثمانية كبيرة لتوطيد النفوذ العثماني ، ونجح العثمانيون إلى حد كبير في دعم سلطانهم في الحجاز ، وكان اختصاص الوالي العثماني الاشراف على القوة العسكرية المرابطة بين مكة والطائف وجدة ، وقد حاولت الدولة العثمانية منذ مطلع القرن التاسع عشر أن تحتفظ بممتلكاتها في شبه الجزيرة العربية وخاصة في الحجاز ، حيث يفد الحجاج سنوياً من أرجاء العالم و يسمعون اسم السلطان يدعى له يومياً في مكة ويرون العثمانيين أمامهم قوة حاكمة فكان ذلك يرفع من مكانة السلطان العثماني في العالم الإسلامي كله ، ويضخم من نفوذ الدولة أمام الدول الأوروبية ، إلا أن نفوذ الدول الأوروبية في الحجاز لم يكن مستقراً تمام الاستقرار ، فعلى الرغم من المعونات التي كانت تقدمها الحكومة العثمانية للحجاز ، فإنها كانت تخشى من أشراف مكة الذين ينحدرون من نسل النبي صلى الله عليه وسلم أن يحاولوا تنصيب أحدهم خليفة للمسلمين(٢) . لذلك نجد العثمانيين يكتفون بما حصلوا عليه من الطاعة من قبل الأشراف ، الذين تنفق عليهم الدولة ، فكانت غلال القمح تصل الى كل بيت في الحرمين ، والمعاشات تصل الى الموظفين الكبار .

وعلى مر السنين شعر الناس أنهم يعيشون في كنف آل عثمان ، واستكانوا لهذا الظل ، وتوطنت نفوسهم على احترام العلاقة التي تربطهم بآل عثمان والرضا بتبعيتهم للدولة ، واهتم الناس بتلقين أولادهم حب السلاطين من آل عثمان والدعاء لهم بالعز والتمكين ، كما استطاعت الدولة بفضل تلك الأموال التي تدونها للحجازيين أن يدعموا نفوذهم في البلاد على الرغم من تذمر بعض القبائل ، واستطاع سنجق جدة أو الوالى فيما بعد أن يستقل بمقدرات الامارة ، وأن يتصرف في تنصيب الأمير بعد الأمير ويكتب رأيه فيه الى عاصمة الدولة ليتلقى

---

١ ـ البتنوني ، الرحلة الحجازية ، ص ٣٨ .

٢ ـ فاروق أباظه ، الحكم العثماني لليمن ، ص ٨٢ ، ١٢٧ .

تعليماتها وأوامرها(١) . ويرى ذلك واضحاً في كيفية تعيين الاشراف في منصب شرافة الحجاز والذي كان يصدر به فرمان التولية من العاصمة استانبول . فبعد انسحاب القوات المصرية من شبه جزيرة العرب سنة ١٨٤٠ م كانت السلطة بيد الشريف محمد بن عون الذي أخذ يتطلع إلى توسيع نفوذه خارج الحجاز(٢) .

وفي سنة ١٨٤١ م عين السلطان عبد المجيد (١٨٣٩ - ١٨٦١م) عثمان باشا والياً على الحجاز . وكان الغرض من ذلك أن تكون الأماكن المقدسة الاسلامية تحت ادارة مباشرة ثنائية تكون فيها سلطات الوالى مقيدة فلا تطغى على الامتيازات الممنوحة لكبار الاشراف(٣) . ولقد ثابر هذا الوالي على اتخاذ جدة مقراً له . فحصن ينبع وأنشأ حامية صغيرة . وأقام مخافر عسكرية بينها وبين مكة . وأخذ يدس الدسائس بين العشائر ولكن هذا أدى إلى قيام أعمال العنف ضد الدولة . إلا أن الوالي العثماني قمعها بحملات ارتكبت الفظائع ضد الأهالى . وتمكنت حملة مكونة من ألف رجل من دخول مكة . مما جعله ينقل مقر الاقامة إليها . وبذلك تيسر له التدخل المباشر في عزل الشريف وتولية آخر مكانه (٤) .

ومع أن الشريف محمد بن عون كان قد رافق الحملة العسكرية التي وجهت لليمن عن طريق جدة في مايو سنة ١٨٤٩م واستخدم نفوذه لدى قبائل عسير ليقفوا على الحياد أثناء مرور الحملة عبر أراضيهم إلى اليمن . فقد تلقى باشا جدة في أغسطس سنة ١٨٥٢م تعليمات من الباب العالى بارسال شريف مكة وابنيه الكبيرين الى تركيا . وتعيين عبد المطلب مكانه . فترك الشريف محمد بن عون (١٨٢٨ ـ ١٨٥٢) أمور شرافة مكة بيد منصور بن يحيى وذلك حتى عودة عبد المطلب من العاصمة (٥) . ومكث الشريف عبد المطلب في شرافة مكة أربع سنوات (١٨٥٢ ـ ١٨٥٦ م) ثم أعادت الدولة محمد بن عون إلى شرافة مكة حتى توفي في مارس سنة ١٨٥٨ م . فوجهت الدولة الامارة لابنه الشريف عبد الله(٦) . ويعتبر

١ ـ أحمد السباعي . تاريخ مكة . ص ١٨٨ .

٢ ـ سيد رجب حراز . الدولة العثمانية وشبه جزيرة العرب . ص ١١١ .

٣ ـ جورج انطونيوس . يقظة العرب . ص ١٣٣ .

٤ ـ توفيق على برود . العرب والترك . ص ٨ .

٥ ـ سيد رجب حراز . الدولة العثمانية وشبه جزيرة العرب . ص ١١٢ .

٦ ـ أحمد زيني دحلان . خلاصة الكلام في أمراء بيت الله الحرام . ص ٣٢٠ .

الشريف عبد الله أول شريف منح رتبة الوزارة ولقب باشا وتربى في الآستانة ، وتعلم فيها العلوم الشرعية والتفسير والحديث وفنون الأدب(١) . وكان من أعضاء المجلس الخاص ، واشتهر عند رجال الدولة بكمال العقل وحسن التدبير ومعرفة الأحكام ، وكان يكثر في مجلسه من مذاكرة العلم والأدب ، ويحضر مجلسه كثير من العلماء والأدباء(٢) .

وفي ٦ ذو القعدة سنة ١٢٧٤ هـ (١٨٥٨ م) وقعت حادثة فحواها أن صالح جوهر أحد تجار جدة كان له مركب عليه العلم الانجليزي ، فخلعه ووضع مكانه العلم العثماني ، وعندما طلع القنصل الانجليزي البحر دخل المركب وأزال العلم العثماني ورفع العلم الانجليزي ، وتمادى ووطيء العلم العثماني بقدمه مما أدى الى ثورة المسلمين في جدة وذهبوا الى دار القنصلية وقتلوا القنصل وبعض القناصل الموجودين في جدة ، واستولوا على أموال النصارى وذهبوا الى فرج أحد التجار الذي دافع عن القنصل الانجليزي وأرادوا أن يدمروا داره ، فمنعهم عبد الله نصيف والذي كان لا يزال يشغل منصب وكالة محمد بن عون آنذاك ، وكان نامق باشا والي الحجاز قد ولى الشريف على ريثما يحضر الشريف عبد الله من العاصمة ، وكان الاثنان في المدينة المنورة لمقابلة الحجاج وعندما سمعا بذلك توجها الى جدة وسكنا الفتنة ، ونتيجة لذلك أرسل الانجليز مركباً حربياً أخذ يرمي جدة بالمدافع ، فهرب الناس وانزعجوا ، فعقد نامق باشا في مكة مجلساً في ديوان الحكومة وأخذ يتشاور لتسكين الأمر مع العلماء والتجار وأعيان الناس ، ووصل الشريف عبد الله في ربيع الأول سنة ١٢٧٥ هـ ، ودخل مكة في موكب عظيم وفرح الناس بولايته وكانت له عند الناس هيبة ، لعلمهم بحسن سياسته ودرايته(٣) ، وقابل الشريف عبد الله المندوبين الانجليز فطلبوا منه المساعدة في دخول مكة فاعتذر عن تحمل هذه المسؤولية ثم قال لهم : ماذا تريدون من بلد لا زرع فيه ولا نبات ولا ماء ، وربما نالكم منه مرض يذهب بحياتكم لعدم اعتيادكم على مثل هوائه في حين أنكم في غنى عنه ؟! فاقتنعوا بجوابه وعادوا إلى بلادهم (٤) .

١ ـ محمد لبيب البتنوني ، الرحلة الحجازية ، ص ٧٩ .
٢ ـ أحمد زيني دحلان ، خلاصة الكلام في أمراء بيت الله الحرام ، ص ٣٢١ .
٣ ـ أحمد زيني دحلان ، خلاصة الكلام في أمراء بيت الله الحرام ، ص ٣٢١ .
٤ ـ محمد لبيب البتنوني ، الرحلة الحجازية ، ص ٧٩ .

وكان مقدم الشريف عبدالله برفقة معاون برتبة فريق، وفي سنة ١٢٧٦ هـ ـ ١٨٥٩ م توجه الى الشرق لقمع بعض المخالفين ، وكان ذلك في مدة ولاية نامق باشا قبل عزله واستبداله بعلى باشا الكاهيلى(١) ٠ وفي سنة ١٢٧٧ هـ ـ ١٨٦٠ م قام سعيد باشا والى مصر بزيارة المدينة ، فتوجه الشريف عبد الله لمقابلته ورافقه إلى مصر ورجع الى مكة في نفس السنة بعد ان قوبل بالإجلال والإكرام ، وسار الشريف عبد الله إلى عسير في سنة ١٢٨١ هـ ـ ١٨٦٤ م لقتال أميرها محمد بن عائض لأنه تجاوز الحدود ، وسنعرض لذلك بالتفصيل في الفقرة التالية ، وفي سنة ١٢٨٥ هـ ـ ١٨٦٨ م توجه ناحية الشرق ووصل الى رنية لتأديب بعض القبائل ورجع منصوراً ، وفي سنة ١٢٩٤ هـ ـ ١٨٧٧ م أمر بتعليم أهل مكة الحركات النظامية ، وتوفي الشريف في نفس السنة في شهر جمادي الآخرة(٢) وعين مكانه أخوه الشريف حسن باشا بعد مقدمه من الأستانة وكان على جانب عظيم من التقوى والصلاح والزهد والورع واستمر حكمه الى سنة ١٢٩٧ هـ ـ ١٨٧٩ م إذ قتل بيد رجل أفغاني وذلك أثناء دخوله جدة ، وجاء الشريف عبد المطلب للإمارة للمرة الثالثة ولكنه عزل عنها سنة ١٢٩٩ هـ ـ ١٨٨١ م بسبب الشقاق بينه و بين الاشراف ، وعين بدله الشريف عون الرفيق بن محمد بن عون والذي مكن نفسه في مركز الشرافة ، ودعم نفوذه على العرب والولاة العثمانيين وأصبحوا كأنهم مأمورون من قبله إلا في زمن عثمان ونوري باشا ، فانه حد من نفوذه حتى نقل من ولاية الحجاز بسعي من عون الرفيق وأنصاره في الآستانة ومنذ ذلك الوقت أخذ حريته في الولاية(٣) ٠

قسمت الدولة العثمانية ولاية الحجاز إلى متصرفتين ، متصرفية جدة الواقعة على البحر الأحمر وهي ميناء عظيم ، ويوجد بها جمرك وثكنات للعساكر ومحجر صحي ، وكانت تعتبر من أعظم مدن الحجاز ، ويتكون سكانها من خمسين ألفاً ، وميناء جدة من أعظم الموانيء على البحر الأحمر ، والمتصرفية الثانية في المدينة المنورة على ساكنها أفضل الصلاة وأتم التسليم(٤) ، وكان قائمقام ينبع تابعاً لها على اعتبار أن ينبع ميناؤها(٥) ، وبالاضافة إلى قائمقامية ينبع هناك قائمقامية

---

١ ـ أحمد زيني دحلان ، خلاصة الكلام في أمراء بيت الله الحرام ، ص ٣٢٣ ٠

٢ ـ خليل مردم بك ، أعيان القرن الثالث عشر ، ص ١٣٩ ، ١٤٠ ٠

٣ ـ محمد لبيب البتنوني ، الرحلة الحجازية ، ص ٧٩ ٠

٤ ـ شرف بن عبد المحسن البركاتي ، الرحلة اليمانية ، ص ١٤٥ ٠

٥ ـ هارولد ف ، عدن وجنوب اليمن في ملوك العرب ، ص ٧٣ ٠

الليث ، وهي مرفأ على البحر الأحمر جنوب جدة وعدد سكانها ستة آلاف ، وقائمقامية الوجه وهي مرفأ على البحر الأحمر ويبلغ سكانها خمسة آلاف(١) ٠

واختصت الحجاز بمجلس ينظر في الأمور الهامة ، ويتكون من قاض والدفتردار ، ومدير الحرم ، وكاتب أسرار الولاية ، ونقيب الاشراف ، ونائب الحرم وسادن البيت الحرام ، ومفتي الحنفية ، وقائمقام الشريف في مكة ، ومدير الصحة ونقيب السادة الحسينية ، وهناك ديوان تمييز بالنظر في الدعاوي المدنية والجنائية ، تستأنف أحكامها في محاكم الآستانة ، وتتكون هذه المحكمة من نائب الشرع الشريف ، وثلاثة أعضاء منتخبين من أهالى مكة ، وقائمقام مكة يعين من قبل الشريف ، وقاضي مكة يعين من قبل الدولة العثمانية لسنة واحدة ، أما نائب الشرع فكان يعين لمدة سنتين ٠

ولولاية الحجاز نواح وأخطاط يسمى متوليها مدير ناحية ، وحاكمها بلقب قائمقام ، منها الطائف ورابغ بالاضافة إلى القائمقاميات السابقة ، ولكل قائمقامية مجلس يتكون من القائمقام ، ومن نائب الشرع الشريف ومأمور المالية ومن بعض الاهالى الذين يختارهم شريف مكة ، وكان للقبائل مجالس عرفية تنظر في أمورهم وتتألف من القاضي وبعض الشيوخ ورؤساء القبائل مع من يختاره الطرفان للاشتراك معهم واستئناف أحكام هذه المجالس عند الشريف الذي بدوره يزيد الحكم أو يعدله ويكون حكمه هو الأخير(٢) ٠

أعفت الدولة أهل المدينتين المقدستين من الضرائب والجندية الاجبارية ، ودفعوا لهم إعانات سنوية(٣) ، ولم يطبق نظام الالتزام الذي أخذت به مصر وجهات أخرى من بلاد الشام(٤) ٠

وعندما استولت الدولة العثمانية على مصر والحجاز ، اختصت الدولة بكسوة البيت الداخلية وكسوة الحجرة النبوية الشريفة بالاضافة الى الشمع الذي يسرج به داخل الكعبة وخارجها ، ومقامات المسجد الحرام ، كما ترسل الدولة طيب الكعبة

---

١ ــ شرف بن عبد المحسن البركاتي ، الرحلة اليمانية ، ص ١٤٧ ٠
٢ ــ محمد لبيب البنتوني الرحلة الحجازية ، ص ٣٨ ٠
٣ ــ جيمس موريس ، الملوك الهاشميون ، ص ١٤ ــ ١٥ ٠
٤ ــ د٠ فائق الصواف، العلاقات بين الدولة العثمانية واقليم الحجاز ، ص ٤٦ ٠

وبخورها مثل عطر الورد والعنبر ، علاوة على الحبال التي تربط بها أستار الكعبة وترسل هذه مع المحمل الشامي ، واختصت مصر بكسوة الكعبة الخارجية ، وقد كانت مصر تصنع الكسوتين الداخلية والخارجية حتى سنة ١١١٨ هـ ، وعندما أمر السلطان أحمد ابن السلطان محمد الرابع بحياكة كسوة الكعبة في استانبول ، وكان ذلك سنة توليه السلطنة ، واستمر سلاطين آل عثمان في ارسالها على النحو المذكور حتى عهد السلطان عبد العزيز خان ابن السلطان محمود الثاني ، ثم توقفت الدولة عن هذا العمل(١) .

وكانت المحامل قد منعت في فترة وجود قوات محمد على في شبه الجزيرة العربية ، ثم استأنف المحملان الشامي والمصري مسيرهما الى مكة ، وكان المحمل الشامي هو الذي يحمل الصرة والصدقات ، وكان المحملان المصري والشامي يستقبلان في جده ومكة استقبالاً رسمياً ، وعند وصول الركب يناخ جمل المحمل بجانب باب النبي في حفل عام وتعزف موسيقى مكة ، ثم ينقل المحمل على أكتاف الرجال من باب النبي حتى داخل الحرم(٢) .

وهكذا يتضح من هذا العرض ما كان للحجاز من وضع خاص يتميز به عن سائر أجزاء الدولة بسبب وجود الأماكن المقدسة الإسلامية به ، فكانت الامتيازات التي تمتع بها سكان الحجاز وحكامه ، اذ أقامت الدولة فيه نظاماً هو عبارة عن سلطنة ثنائية طرفاها ، الشريف والوالى ، ونحن اذا كنا قد أشرنا الى حدوث بعض التغييرات ابان صدور قانون الولايات أي منذ سنة ١٨٦٤ م فان هذا القانون لم يصحبه تطبيق فعلى في الحجاز كما طبق في الأجزاء الأخرى من الدولة .

---

١ ـ يوسف أحمد ، المحمل والحج ، ص ٢٥٠ .

٢ ـ أحمد السباعي ، تاريخ مكة ، ص ١٩٩ .

الحالة في عسير واليمن

أما عن الحالة في عسير واليمن قبيل افتتاح القناة ، فقد استطاع الأمير عائض ابن مرعي حاكم عسير أن يوطد الأمور ويوفر الاستقرار في القطر العسيري ، اذ لم يذكر المؤرخون حوادث بين السنوات ١٢٧٠ ـ ١٢٧٣ هـ / ١٨٥٣ ـ ١٨٥٦ م سوى ماذكره الشيخ حسن بن عبد الرحمن الحفظي مؤلف تاريخ عسير ، بأنه اجتاح المنطقة مرض الطاعون وكان ذلك أول سنة ١٢٦٦ هـ / ١٨٤٩ م واستمر الى سنة ١٢٧٣ هـ / ١٨٥٦ م ، وهلك لذلك ناس كثيرون ، وخلت بعض القرى من السكان ، وكان ضمن ضحايا المرض أمير عسير نفسه الذي توفي بهذا المرض وكان ذلك سنة ١٢٧٣ هـ / ١٨٥٦ م بعد حكم دام أربعة وعشرين عاماً ، وابان امارته لعسير كان قد أرسل وفداً برئاسة محمد بن مفرج ، الى أمير مكة عبد المطلب بن غالب ومعه هدايا ثمينة بالاضافة الى رؤوس من الخيل ، وذلك لكي يوافق الشريف على حدود بلاد غامد وزهران (١) ٠

تولى محمد بن عائض امارة عسير بعد وفاة أبيه وذلك في الفترة (١٢٧٣ ـ ١٢٨٩ هـ / ١٨٥٦ ـ ١٨٧٢ م) فساءت حالة البلاد ، اذ اختلف مع العلماء ، غير أنه لم يتعرض عند وصوله الحكم لخطر خارجي ، إلا أن المناطق التابعة لامارته كانت مضطربة ، ويعتريها تفكك مما أفسح له المجال الى الاصلاح الداخلى ، فحفر الآبار وأقام عليها المزارع ، وذلك في أودية أبها والفيحاء والبصرة والسقا وغيرها ، كما شيد الحصون المنيعة في كل من أبها والسقا وريدة والحرملة وغيرها من المناطق التابعة لامارته(٢) ٠

ويبدو أن الفرصة كانت مواتية لمحمد بن عائض في اتجاهه نحو الاصلاح الداخلى وذلك لأمرين أحدهما طول مدة حكم أبيه ، مما ساعد على ولاء القبائل لأبناء

---

١ ـ هاشم سعيد النعيمي ، تاريخ عسير في الماضي والحاضر ، ص ٢٠١ ٠

٢ ـ محمد بن أحمد عيسى العقيلى ، تاريخ المخلاف السليماني ، ق ١ جـ ٢ ص ٥٨٤ ٠

ورجالات بيته ، والثاني ، شيوع العداوة بين بعض القبائل التابعة لامارته مما حال دون الاصطدام به فشغل الناس عنه وتفرغ هو للجانب الإصلاحي ، وكانت الفتن قائمة على أشدها في مناطق السحر وتقع في الشمال الغربي من تهامة عسير ، والأحابيش وتقع في أسفل وادي حلى من رجال المع ، وأودان مخيط وهي تقع في أعمال رقعاء من رجال ألمع ، وعرمرم بين المخلوط والطامية ، والنقلى من أعمال المحارث على طريق قرعاء ومسلية من أعمال بيشة ، والقاع من أعمال واحة بيشة ، فوضع الأمير محمد بن عائض حداً لتلك الفتنة ، ومن تلك الفتن ما حدث بين قبيلتي البناء وآل عاصم ، اذ نشب القتال بين القبيلتين ، وقامت بينهم غارات مستمرة قتل فيها أناس كثيرون وانتهكت الأموال رغم تدخل أصحاب الشأن في عسير وبذل المحاولات لايجاد حل سلمي بين القبيلتين(١) ٠

وفي جمادى الأولى سنة ١٢٨٠ هـ - ١٨٦٣ م توجه الأمير محمد بن عائض على رأس جيش كبير الى المخلاف السليماني(٢) بعد أن ساد المخلاف الفوضى وغرقت الاسرة الحاكمة في الفتن الداخلية والتقاتل فيما بينها فضاق السكان ذرعاً من جراء تلك الفتن الدموية بينما كان دور الوالي العثماني دور المتفرج ، فاستنجد أعيان المخلاف بأمير عسير محمد بن عائض الذي وصل مدينة أبي عريش فاستقبل من قبل أهلها ودخل المدينة سلماً ، بينما هرب الأمير الحسن بن محمد ، فتقدم العسيريون ، وهدموا الحصون وقصر الأمير ، وظلت الحاميات العسكرية مرابطة بالمخلاف السليماني حتى سنة ١٢٨١ هـ - ١٨٦٤ م (٣) ٠ وإزاء هذا الموقف اضطر الباب العالى الى أن يلجأ الى والي مصر « اسماعيل » للاستعانة به في اخماد ثورة العسيريين ضد العثمانيين في اليمن ، حتى لا تخرج تلك الجهات نهائياً عن حظيرة الدولة(٤) ٠

وقد زاد من اشتعال الثورة ضد العثمانيين في تهامة والمخلاف السليماني انضمام ثلاث قبائل كانت تسكن بالقرب من الطائف إلى جانب الثوار العسيريين(٥) ، وحاول (اسماعيل) والي مصر أن يحل المشكلة ودياً ، وذلك بأن وجه النصح الى

---

١ ـ هاشم بن سعيد النعيمي ، تاريخ عسير ، ص ٢٠١ ـ ٢٠٢ ٠
٢ ـ العقيلي ، تاريخ المخلاف السليماني ، ق ٢ ، جـ ١ ، ص ٥٨٤ ٠
٣ ـ النعيمي ، تاريخ عسير ، ص ٢٠٢ ٠
٤ ـ فاروق أباظه ، الحكم العثماني في اليمن ، ص ٧٠ ٠
٥ ـ اسماعيل سرهنك ، حقائق الأخبار عن دول البحار ، جـ ٢ ، ٢٩٤ ٠

أمير عسير محمد بن عائض باحترام سيادة الدولة العثمانية ، وذلك في خطاب أرسله الوالي اسماعيل في شهر سبتمبر سنة ١٨٦٥ (١٤ ربيع الثاني سنة ١٢٨٢ هـ) يوضح له ما تأمر به الشريعة الإسلامية من طاعة ولي الأمر ، ووعده في حالة الاستجابة بأن يسعى لدى الباب العالى في الحصول على عفوه وموافقته على اقراره أميراً على عسير ، وذلك بعد أن يتخلى عن الأراضي التي ضمها إليه ، وفي ختام الخطاب حذره من عاقبة تماديه في العصيان بقوله : « اذا لم تقبلوا النصيحة الخيرية في الدين ، فتكونوا السبب في سوق الجيوش المتكاثرة من أرض مصر القاهرة إلى تلك البقاع ، وضرب تلك الديار وسفك الدماء .. فالأولى الانقياد والطاعة قبل وقوع تلك الساعة (١) » .

وكان محمد بن عائض قد استولى على بعض المدن في تهامة اليمن ، كما حاصر الحديدة الا أن متصرفها قد صده عنها ، لذلك نفذ الخديوي اسماعيل الحملة المكونة من ثلاث فرق زودها بالمدافع وكتائب الفرسان وعقد قيادتها للأمير لاى اسماعيل صادق الذي وصل الى جدة ، واتفق مع الوالي العثماني على توجيه الحملة من ناحية القنفذة(٢) . كما توجه الشريف عبد الله بن محمد بن عون بمن معه من الجنود على طريق الليث ثم وصل القنفذة ، وتقابل الجيشان في منطقة المخوة من تهامة غامد ، وأخذ كل في الاستعداد للدخول في المعركة ولكنهم جنحوا للسلم أخيراً . بعد أن تراجع أمير عسير ، وكان الخديوي اسماعيل قد طلب بعودة الجيوش المصرية وتكرر ذلك الطلب ، كما عاد الشريف عبد الله الى مكة بعد أن مكث مدة في بلاد غامد وزهران التابعة لولايته(٣) .

وفي شعبان سنة ١٢٨٥ هـ - ١٨٦٨ م قام رجال ألمع بثورة كبيرة وخرجوا من طاعة محمد ابن عائض ، وكانت الثورة بقيادة السيد على بن حسن ، وابراهيم بن عبد الوهاب شيخ قيس وانضمت اليهم معظم قبائل تهامة عسير ، واتخذوا من الحصن المسمى (مشاري) والقائم على ضفاف وادي كسان نقطة لانطلاق الثوار . وكان الأمير محمد بن عائض قد انحرف عن سيرة والده عائض بن مرعي ، وعندما سمع

---

١ - فاروق أباظه ، الحكم العثماني في اليمن ، ٧٢ .

٢ - عبد الرحمن الرافعي ، عصر اسماعيل ، ص ٢٠٣ .

٣ - أحمد زيني دحلان ، خلاصة الكلام في أمراء بيت الله الحرام ، ص ٣٢٤ .

بالثورة خاف على كيانه وأرسل وفداً من أعيان امارته برئاسة أخيه سعد بن عائض لمناظرة الثوار ، ولكن من غير جدوى ، وفشل الوفد في اداء مهمته وتأزم الموقف بعد ذلك ، وانقطعت المواصلات بين سراة عسير ورجال ألمع ، وأحاط الثوار بالمضائق وقمم الجبال ، فجمع الأمير محمد بن عائض جيشه في شهر رمضان وتقدم على رأس الجيش الى رجال ألمع ، وعندما تجمعت القوات على سطح باحة أرسل وفداً برئاسة لاحق بن أحمد الزيداني للمصالحة والوصول الى حل سلمي ، ففشلوا أيضاً بعد أن دفعوا خمسة آلاف ريال لزعماء الثوار ، فغضب لذلك الأمير ، وزحف الى مواقع الثوار من جهتين عن طريق عقبة الصماء ، وعقبة(فو) وعند (الظهرة) اشتبكت طليعة رجاله ببعض الثوار فوقع قتال بينهم وانتهى بانهزام الثوار واحتل الظهرة وما حولها ، واتخذها مركزاً لقواته ، أما القسم الذي كان عن طريق عقبة (فو) فاحتل قرى حلى وأحرقها ، ونكل بأهلها ، وتقدم رجال قحطان على حصن شيخ بني ظالم الملقب بأبي علائم فأحرقوه وبذلك تم القضاء على الثوار(١) .

ويبدو من خلال ماذكرناه عن عسير أن موقف الدولة قبل فتح القناة في هذا الجزء من غربي الجزيرة كان وجوداً اسمياً أكثر منه وجوداً فعلياً ، بدليل استعانة الدولة العثمانية بالحكومة المصرية في اخماد تلك الفتنة ، ووجود الاضطرابات بين القبائل التي لم تستطع الدولة اخمادها ، وكانت الحكومة المصرية تقوم من نفسها بالوساطة للصلح مع أمير عسير ، وتقدم له الوعود السخية ، فتعده بالعفو عنه ، وبتعديل حدود امارته وتغيير اسمها تبعاً لذلك ، وبالانعام عليه بالباشوية ، على أن مصر طالبت الباب العالي أيضا بتنفيذ ماوعدت به أمير عسير حتى لا تحرج منه ، والا تتجدد ثورة العسيريين ، كما أشارت مصر الى ما كان للمسألة العسيرية من الأهمية القصوى في البلدان العربية ، ولذا فان حسمها بالطريقة المقترحة يوفر على الدولة الشيء الكثير من الجهود والنفقات(٢) .

وقبول الدولة العثمانية لهذه الطلبات من الحكومة المصرية لدليل على ضعف الدولة في فرض نفوذها وسيطرتها على عسير ، وعدم رغبة الدولة بالدخول في حرب مع أمير عسير قبل افتتاح القناة ، وسوف نرى في الفصل الثالث نتائج فتح قناة السويس في أثناء محاولات الدولة العثمانية اخماد ثورة العسيريين اذ أمكن للدولة أن تسهم بدور فعال في اخماد القضاء على تلك الثورة .

١ ــ النعيمي ، تاريخ عسير ، ص ٢٠٨ .
٢ ــ فاروق أباظه ، الحكم العثماني في اليمن ، ص ٧٣ .

أما منطقة اليمن .. فكان محمد على (والي مصر) يبسط نفوذه عليها ، وذلك منذ سنة ١٨٢٠ م ، وكان لاحتلال الانجليز لعدن ضربة موجهة إليه ، لارغامه على الانسحاب من اليمن ، فكانت بريطانيا ترى في وجوده في غربي الجزيرة خطراً يهدد مصالحها في الهند ، لذلك انتهزت انشغاله بالحرب ضد السلطان في حرب الشام الثانية وطلبت من والي مصر إجلاء الجيوش المصرية عن اليمن بأجمعه ، ونجحت بريطانيا في تحويل مشكلة علاقة السلطان بمحمد علي الى مشكلة دولية ، واضطر محمد على في ١٣ مارس سنة ١٨٤٠م الى إصدار أوامره الى حاكم اليمن بالجلاء عنها ، وتسليم البلاد الى الأمير حسين بن على حيدر شريف أبي عريش[1] .. وذلك كنتيجة لتنفيذ قرارات مؤتمر لندن القاضية بانسحاب قوات محمد على من البلاد التابعة للدولة العثمانية واقتصاره على حكم مصر ، وفي ١٩ مايو سنة ١٨٤٠م غادرت القوات المصرية أرض اليمن ، وحاول الشريف حسين بن على شريف (أبي عريش) ادخال بلاد اليمن كلها تحت حكمه ، لكنه لم يستطع القيام بهذه الخطوة ، ورأت الدولة العثمانية أن تبادر بتأييد الحسين بن على حيدر في حكمه على المناطق التي يتسلمها من المصريين ويحفظ للدولة السيادة الاسمية ، وكانت تلك فرصة مهيأة للدولة ، خصوصاً بعد أن وضعت بريطانيا قدمها في عدن سنة ١٨٣٩ م ونجاح الحكم المصري في كسر شوكة القبائل اليمنية ، فأرسل السلطان تأييده للحسين عن طريق حاكم جدة وأمير مكة ، واشترط بأن تكون الخطبة « للخليفة العثماني » على منابر المساجد اليمنية ، وفي سنة ١٨٤٣ م خلع السلطان عبد المجيد على الحسين لقب (حاكم اليمن حسين باشا) رمزاً لتبعيته للدولة وكان الحسين يرضى بذلك لأنه سيدعم مركزه أمام منافسيه ، ويمكّن له في حكم المنطقة ، فاتخذ من الحديدة مقرا له ، ونظم شؤونها ، كما أخذ يوسع في اطار حكمه فاستولى على ميناء مخا ، ومدينة زبيد ، وأصبحت دائرة نفوذه من المخلاف السليماني شمالاً الى ميناء مخا جنوباً .

وقام الحسين بمهمته التي ألقيت على عاتقه ، الا أنه تعرض لمخاطرات بسبب المنافسة الدائمة بين الأئمة الزيدية في صنعاء واستعانتهم بالقبائل الطامعة في السلب والنهب للانتقام من أعدائه ، ثم بعد ذلك رغبة من يستأثر بالأمامة في حد سيطرته على أملاك الحسين في تهامة والمخلاف السليماني على اعتبار أنها تابعة

---

١ ـ سيد رجب حراز ، الدولة العثمانية وشبه الجزيرة ، ص ٢٠٨ .

لأسلافهم ، اضافة الى أن أشراف عسير يطمعون أيضاً في ملك الحسين في تهامة(١) .

وقد لجأ الامام الزيدي محمد بن يحيى بن المنصور إلى الحسين يرجو مساعدته ضد منافسه الامام المهدي عبد الله بن المتوكل أحمد في صنعاء ، فتقدم الحسين للمساعدة وتمكن ابن يحيى من الانتصار على منافسه ودخل صنعاء وتولى الامامة ، وبعد ذلك وصلته الهدايا من حليفه ومن ضمنها خزانة كتب تشتمل على مخطوطات(٢) الا أنه لم يلبث أن قرر ابن يحيى انتزاع تهامة من يد الشريف حسين ، فجهز قوة من العناصر المناوئة للحسين في تهامة ، وتعاون معهم في هجومهم على جيوش الحسين التي أخذت خيانة الهمدانيين تضعف من قوته ، نظراً لولائهم للإمام الزيدي(٣) .

وأدى كل هذا الى أسر الشريف وحبسه سنة ١٨٤٨ م ، وقيل « ان الإمام لم يلبث أن أطلق سراح الشريف حسين بعد أن حصل منه على فدية » (٤) . وذكر الواسعي أن الشريف حسين ذهب للآستانة مستنصراً الدولة العثمانية فأمدته بقوة قادها توفيق باشا ، وكان ذلك بداية لاسترجاع الدولة لعسير واليمن(٥) . وقيل أيضاً ان الحسين تنازل عن أملاكه لقاء تأمينه واطلاق سراحه ، وكان محمد ابن الحسين قد حاول الاستعانة بحاكم عسير ليخلص والده من الأسر الا أنه رفض مناصرة الحسين بل أخذ يعد العدة لضم تهامة الى منطقة نفوذه في عسير ، واستطاع أخوة الحسين أن يخلصوه من الأسر بعد استعانتهم بقبائل يام اليمنية ، وكما ذكرت سابقاً فقد ذهب الحسين يطلب من الباب العالى أن يتسلم المنطقة اليمنية التي يحكمها على اعتبار أنها أمانة في عنقه ، وذلك لعجزه عن المحافظة عليها بالإضافة الى تجار تهامة وأعيانها طالبوا السلطان العثماني بالتدخل لاقرار الأمور في اليمن بعد أن كسدت متاجرهم ونهبت أموالهم أثناء المعارك ، خاصة أن قوات الامام كانت مجموعة من القبائل اليمنية الطامعة في السلب والنهب(٦) .

وتلقى السلطان العثماني مطلب « حاكم اليمن حسين باشا » وتجار تهامة

---

١ ــ فاروق أباظه ، الحكم العثماني في اليمن ، ص ٤٣ .
٢ ــ العقيلي ، تاريخ المخلاف السليماني ، ص ٥٥٣ ، ٥٥٤ .
٣ ــ فاروق أباظه ، الحكم العثماني لليمن ، ص ٤٤ .
٤ ــ سيد رجب حراز ، الدولة العثمانية وشبه الجزيرة العربية ، ص ٨٣ .
٥ ــ الواسعي ، تاريخ اليمن ، ص ٧٣ .
٦ ــ فاروق أباظه ، الحكم العثماني في اليمن ، ص ٤٤ .

وأعيانها بالقبول والرضاء .. فكانت فرصة للقوات العثمانية لتعيد سيطرتها في سنة ١٨٤٩ م بعد أن خرجت من اليمن سنة ١٦٣٥ م فأرسلت من جدة ميناء الحجاز قوة عثمانية قوامها ثلاثة آلاف من الجنود المشاة الفرسان ، فوصلت الحملة الى ميناء اللحية اليمني ، ثم اتجهت الى الحديدة ، واستقبلها الحسين هناك(١) .. وهكذا لولا ولاء شخصي من الحسين للدولة العثمانية ، ولولا حرصه على عدم اضافة بلاده الى أي من القوى الأخرى المحيطة لكانت الدولة عرضة لأن تفقد وجودها في المنطقة التي كان يحكمها حسين باشا ، ولأدى ذلك الى تضاعف القوة المقاومة للدولة في غربي الجزيرة قبل افتتاح القناة .

وهنا علم الامام محمد بن يحيى بقدوم القوات العثمانية ، ورأى أن يفوت الفرصة على منافسه في الامامة على بن المهدي ، وذلك باستمانته بالدولة ولا ينفرد خصمه الحسين بالتقرب منها ، وذلك لدعم مركزه في تهامة والمخلاف السليماني ، فسارع الإمام بالكتابة للوالي توفيق باشا بالتقدم إلى صنعاء ، ثم استقبلهم عند الأطراف الجبلية المواجهة لتهامة ، واتفق مع توفيق باشا باصطحابه الى صنعاء حتى يؤدب رجال القبائل الذين شقوا عصا الطاعة وتمردوا عليه وأظهروا الفساد وبذلك وصل العثمانيون صنعاء نهار الجمعة السادس من شهر رمضان سنة ١٢٦٥ هـ (١٨٤٩ م) وسكنوا قصر غمدان دون مقاومة تذكر ، وكان توفيق باشا ، والشريف محمد بن عون قد تمكنا من السيطرة على الحديدة وتهامة ودخلا أبا عريش(٢) .

وفي أثناء استقبال ابن يحيى الجيوش العثمانية ، استطاع منافسه علي ابن المهدي أن يجمع عدداً من القبائل وحرضهم على مهاجمة صنعاء ، وأشعل نار الثورة بإعلانه أن ابن يحيى باع اليمن وأهلها للعثمانيين ، وساعد ابن المهدي في ذلك انكار أهالى صنعاء ما قام به ابن يحيى ، فشاركوا القبائل اليمنية ، وأقبلت جحافل القبائل على مدينة صنعاء من كل جانب واكتسحوا تحصينات الدفاع وأبادوا معظم رجال الحملة ، واضطر توفيق باشا إلى الإنسحاب بما تبقى من قواته الى الحديدة ، وألقوا القبض على ابن يحيى ، واقتادوه أسيراً الى الإمام الجديد على بن المهدي الذي أمر بحبسه وإعدامه من بعد(٣) .

---

١ ـ فاروق أباظه ، الحكم العثماني في اليمن ، ص ٤٥ .
٢ ـ الواسعي ، تاريخ اليمن ، ص ٧٣ .
٣ ـ العقيلي ، تاريخ المخلاف السليماني ، ص ٥٦١ .

وبقي الحكم في اليمن قاصراً على الجهات الساحلية قرابة ربع قرن ، أي حتى الفتح العثماني الثاني بعد افتتاح قناة السويس وبعد خروج العثمانيين وتنصيب على بن المهدي اماماً سنة ١٨٤٩ م . كانت الخلافة فيها على أشدها . وأهمها الصراع الذي نجم بين الإمام على بن المهدي في صنعاء وبين المنصور أحمد بن هاشم في صعدة . وبين العباس بن عبد الرحمن القائم بعد المهدي وبين المنصور ثم بين الإمام أحمد بن هاشم وبين المتوكل الحسن بن أحمد صاحب الأهنوم ، وتفرعت من هذا الصراع خلافات قبلية ، كاد اليمن أن يتمزق أوصاله(١) .

ومن تتمة القول العود الى الحديث عن المخلاف السليماني الذي انسحبت اليه القوات العثمانية بعد خروجها من اليمن ، اذ اتخذت مدينة الحديدة مركزاً لها لسهولة الاتصال بينها وبين موانيء الحجاز حيث كان يعتبر مركزاً للدولة العثمانية آنذاك ، وذلك حتى يتمكنوا من تلقي الامدادات والمؤن اللازمة من هناك أما بالنسبة للشريف حسين فقد أراد أن يبتعد عن الاشتغال بالحكم ، فتوجه إلى مسقط رأسه مدينة أبي عريش ، وأقام في قصره ، وأخيراً توجه الى الاستانة بموجب أمر من الباب العالى ، فقرر له راتباً شهرياً ، ثم خيِّر في الاقامة في أي ناحية من نواحي الدولة ، ففضل الاقامة في مكة ، ومكث بها حتى توفي سنة ١٨٧٦ م الموافق سنة ١٢٩٣ هـ (٢) .

وهكذا لم تتمكن حملة الدولة التي وصلت سنة ١٨٤٩ م (١٢٦٥ هـ) من السيطرة على العاصمة بالرغم من المساعدات التي قدمها الشريف حسين حاكم المخلاف السليماني ، والتسهيلات التي هيأها لهم الامام محمد بن يحيى حتى أدخلهم صنعاء دون مقاومة ، واستطاعت القبائل اليمنية التي شجعها على بن المهدي ضد منافسه محمد بن يحيى ، وتمكن من خلعه من الإمامة ، واختص بها نفسه ، إلى جانب ثورة أهالى صنعاء العنيفة ضد العثمانيين ، فاستطاعوا جميعاً صد العثمانيين عن صنعاء ، فرجعوا عنها ، ثم اتجهوا إلى تهامة ، وقنعوا بالاقامة في الحديدة ومنطقة الساحل اليمني القريبة من مراكزهم في الحجاز بعيدين عن جبال

---

١ ــ أحمد حسين شرف الدين ، اليمن عبر التاريخ ، ص ٢٦٤ .

٢ ــ العقيلى ، تاريخ المخلاف السليماني ، جـ ١ ، ق ٢ ، ص ٥٦٢ .

اليمن الوعرة ، وكانت تلك الحملة تجربة للدولة ، وتقييماً لما يلزمهم من رجال وعتاد وظروف مناسبة لفرض سيطرتهم الفعلية على اليمن ، ولهذا أعادوا الكرة سنة ١٨٧٢ م والتي سنتحدث عنها في الفصل الثالث ..



البريطانيون في عدن

دخلت عدن في نطاق الاستراتيجية البريطانية ، عندما تطلع نابليون الى الهند وقام بحملة على مصر ، وذلك لقطع الطريق البري إليها ، الا أن الانجليز لم يهتموا بذلك من البداية ، واهتموا بمدخل البحر الأحمر ، واحتلوا جزيرة بريم سنة ١٧٩٩ م وعندما خرجوا نزلت قواتهم عدن في ضيافة صاحبها سلطان الحج ، وقامت على أثر ذلك علاقات مودة ، فعقدت معاهدة تجارية بين الطرفين في ٦ سبتمبر سنة ١٨٠٢ م(١) . وخلال احتلالهم لجزيرة بريم حصلوا من اليمن على اذن بانشاء مستشفى في مخا لإسعاف بحارتهم واقتنعت حكومة الهند بطلب الإمام بتعيين مقيم بريطاني سنة ١٨٠١ م وتبع ذلك محاولات لعقد معاهدة تجارية مع السلطة الحاكمة في اليمن .

وفي مطلع القرن التاسع عشر ، غزا رجال الدولة السعودية الأولى اليمن ، ولم يرحلوا عنها الا في سنة ١٨١٨ م ، فأعيدت الامامة الزيدية ، وكانت قطاعات من الجيش المصري متمركزة في المواني‌ء اليمنية الرئيسية ، خاصة في الحديدة ومخا(٢) . وتوجس الانجليز خوفاً من امتداد النفوذ المصري ، وخشوا من قيام دولة تصبح خطراً على مواصلاتهم في البحار الجنوبية فتهدد مصالحهم ، وتعوق نفوذهم على امتدادها(٣) ، وقد عبر عن ذلك « بالمريستون » بقوله : « إن سيطرة تركيا على طريق الهند لا تفضله سيطرة حاكم عربي نشط مهما كان »(٤) ، فكانت التجارة والخطط الحربية تستدعيان أن تكون الطرق الرئيسية محروسة حراسة تكفل حمايتها ، وأصبحت حرية البحار المحيطة بشبه الجزيرة من الأسس التي تقوم عليها السياسة البريطانية(٥) .

---

١ ـ حسين فوزي النجار ، بريطانيا والجنوب العربي ، ص ٣٩ ـ ٤٠ .
٢ ـ محمد عمر الحبشي ، اليمن الجنوبي ، ص ١٠ ـ ١١ .
٣ ـ حسين فوزي النجار ، المرجع السابق ، ص ٤٠ .
٤ ـ حسين فوزي النجار ، المرجع السابق ، ص ١٩ .
٥ ـ جورج انطونيوس ، يقظة العرب ، ص ١٣٤ .

واغتنم الانجليز فرصة ضعف الدولة العثمانية وانشغالها في حروبها مع الجيش المصري ، أي في نزاعها مع محمد علي وحاجتها الى مساعدتهم ، وكان الانجليز يريدون اتخاذ عدن مركزاً للفحم والتجارة ، وجدير بالذكر أن الدولة العثمانية كانت ذات سيادة على معظم أجزاء اليمن ، وكانت تعتبره جزءاً من أراضيها ، ولا تعترف بما هنالك من امارات وامامات(١) ، وكانت حكومة الهند قد حاولت شراء عدن من السلطان محسن سلطان لحج ، الذي رفض ذلك ، فوجهت بريطانيا اليه انذاراً بأن المرفأ سيهاجم اذا لم يقبل ببيع عدن ، إلا أنه رفض واتخذ ذلك ذريعة لاستغلال حادثة غرق السفينة الهندية (د يريا دولار) لاتهام السلطان بأنه المحرض على اغراق السفينة(٢) ، ومنذ الثامن والعشرين من نوفمبر سنة ١٨٣٨ م كانت الحركات التمهيدية لاحتلال عدن قد بدأت ، فاتصل سكرتير حكومة الهند بالكابتن « هينس » ، وأبلغه بأن قائد الاسطول سيرسل السفينة «آن كريشتون » (Anne Crichton) إلى عدن ، وعليها كمية من الفحم لتموين السفن في البحر الأحمر لحمل المؤن والمياه للسفينة الحربية المسماة « الكـوت » واسترسل سكرتير حكومة الهند موجها الى « هينس » : (وأبلغك بأنه سوف يكون على ظهر السفينة آن كريشتون مدفعان هاوترز ٨,٥ بوصة وأطقم رجال المدفعية ليكونوا تحت تصرفك بعد وصولهم الى عدن لاستخدامهم في الدفاع عن هذه السفينة اذا ما توقفت في عدن ، أو حسبما تفكر في أحسن استخدام لهم ويمكن اعتبارهم ـ أي رجال المدفعية ـ جزءاً من الحملة التي طلبت ارسالها ، أما الاجراءات الأخرى التي اقترحتها فهي الآن محل اهتمام ودراسة من الحكومة » ٠

كما أصدرت حكومة بومباى تعليمات بارسال قوة لاحتلال عدن بأقصى سرعة ، وكذلك مجموعة من المهندسين ، وتنضم هذه القوة الى السفينة « الكـوت » أما المدفعية فعلى ظهر السفينة « آن كريشتون » وأصدرت التعليمات بارسال المؤن والذخائر محملة وأشار حاكم الهند بأن الأهم هو النزول إلى عدن بسلام ، واسترسل أنه اذا سمحت الظروف فإنه يمكن « لهينس »أن يتصل بقائد الحملة قبل وصولها ، ويستخدم السفينة (ماهي) (Mahe) في ذلك ، والتي تحمل هذا الخطاب ٠

---

١ ـ أمين سعيد ، تاريخ اليمن ، ص ٢٣ ـ ٢٤ ٠

٢ ـ محمد عمر حبشي ، اليمن الجنوبي ، ص ١٢ ، فاروق عثمان أباظه ، عدن والسياسة البريطانية ، ص ١٦٢ ٠

أما من ناحية واجبات القوات البرية المكلفة بغزو عدن فقد أبلغ حاكم بومباى الماجور بيلى (Bailie) قائد الحملة عند وصوله الى عدن أن يعتبر نفسه تحت تصرف السلطة السياسية للكابتن « هينس »، وأنه في حالة امتلاك الحكومة البريطانية عدن سواء بالمفاوضات أو أي سبيل آخر، فإن على الماجور بيلى أن يوجه اهتمامه السريع إلى وضع أفضل الترتيبات طبقاً للامكانات المتوفرة لديه لتعزيز المكان، وتهيئته للدفاع ضد أي قوة خارجية أو لمواجهة أية مفاجآت .

وتبينت انجلترا مع نهاية سنة ١٨٣٨ م أنه لا جدوى من محاولة استمالة سلطان عدن الا باستخدام القوة، لأن الحكومة كانت تأمل في تلافي استخدام القوة وكان هو أيضاً يرغب في إنهاء الأمر سلمياً فوصلت القوات الانجليزية في ١٦ يناير للقيام بتنفيذ عملية الاستيلاء على عدن، ثم أرسل « هينس » انذاراً نهائياً الى السلطان محسن فضل وجميع رؤساء قبيلة العبدلى .

وتم اعداد كل شيء، فالقوات في القوارب تحت حماية السفينة الحربية .. كما أخذت السفن الحربية أماكنها، فكانت نيران هذه السفن شديدة الوطأة حتى دمرت القلعة الرئيسية، وقضت على وحدة مدفعية العرب، إلا أن رجال المدفعية في منطقة (صيرة) ظلوا مسيطرين على المنطقة ومستعدين لاطلاق النار على القوات الانجليزية في حالة تقدمها، إلا أن السفينة «ماهي» غيرت مكانها وأخذت مكاناً على مسافة ٥٠ ياردة من العرب، فوجهت نيرانها بمساعدة السفن الأخرى مما اضطر العرب الى التقهقر ثم تقدمت القوات إلى قسمين، ولم تواجه سوى مقاومة ضعيفة من العرب، وانسحب السلطان وبعض أتباعه من المدينة وقبل الظهيرة بخمس دقائق ارتفع العلم البريطاني فوق قصر السلطان واستولى قارب من السفينة « ماهي » وآخر من « فولاج » على صيرة(١) .

وكان احتلال انجلترا لعدن ضمن خطتها العامة في المنطقة فيما سمي بخطة الهند، وذلك باحتلالها للنقط الاستراتيجية والتحكم في مداخل البحار، وسوف نتعرض لهذا في الفصول التالية .

---

١ ـ جاد طه، سياسة بريطانيا في الجنوب العربي، ص ١١٣ ـ ١٢٧ .

ويهدف الانجليز من احتلال عدن أن يصبحوا سادة غير منازعين على باب المندب(١) .. وأرادوا منها أن تكون قاعدة لتموين السفن بالفحم ، خاصة عندما تحولت السفن الانجليزية الى استخدام البخار .

استرضت السلطات الانجليزية سلطان لحج بعد ذلك بمنحه مالية تدفع إليه كل عام وعقدت معه صلحاً ، اعترف لها فيه بامتلاكها عدن ، ولكنها تعرضت لكثير من هجمات العرب ، وتوترت العلاقات بينها وبين السلطان ، ولم تستقر الأمور تماماً إلا في سنة ١٨٥٧ م (٢) .

وعندما احتلت انجلترا عدن ، لم تستطع الدولة العثمانية اتخاذ اجراء مقابل ضد هذا التدخل في جزء ، هو في الأساس من ممتلكات الدولة العثمانية ، وكان ذلك بسبب خروج محمد علي على الدولة ، وكانت الدولة تستعين بالوالى المصري في مثل هذا التدخل ، بالإضافة الى عدم وجود طريق رئيسي يربط العاصمة بهذه المناطق ، وسوف نرى أثر افتتاح قناة السويس للدولة ، وكيف ستكون قدرة الدولة على الوقوف عن كثب من هذه المناطق .

لم يكن الإستيلاء على عدن هو غاية ما تبغيه انجلترا من المنطقة ، وإنما كان هذا الاستيلاء بمثابة نقطة للتوسع وبداية للانطلاق لتأكيد النفوذ الانجليزي في جنوب اليمن ، وفي البحر الأحمر ، وعلى الساحل الشرقي لافريقيا ، ومن عدن تسلل النفوذ الانجليزي أولاً الى السلطنة العبدلية ، والتي كانت محتفظة باستقلالها الذاتي متخذاً شكل الصداقة وحسن الجوار ، وكان لزاماً على الحكومة الانجليزية أن تعامل السلطنة العبدلية معاملة خاصة لسببين ، أولهما ، عدن كانت الجزء الذي اقتطعته بريطانيا من السلطنة العبدلية ، ومن ثم وجب تهدئتها ، وثانيهما ، لأن السلطنة العبدلية تفصل بين عدن واليمن والتي كانت واقعة تحت السيطرة التركية ومن ثم وجب المحافظة على وضعها الخاص لتكون حاجزاً بين اليمن وعدن(٣)

وكانت انجلترا قد عقدت مع السلطان العبدلى معاهدة حماية في ٢ فبراير سنة ١٨٣٩ م لحماية المناطق المجاورة لعدن مباشرة ، وفي شهر يونيو من نفس السنة تعهد الانجليز بدفع المعاشات التي كان يدفعها السلطان العبدلى لقبائل يافع والفضلى

١ ـ محمد عمر الحبشي ، اليمن الجنوبي ، ص ١٢ .
٢ ـ حسين فوزي النجار ، بريطانيا والجنوب العربي ، ص ٤٠ .
٣ ـ محمد حسن عوبلى ، اغتيال بريطانيا لعدن والجنوب العربي ، ص ١٥ .

والحوشي والأميري . وفي نفس الوقت حدد مبلغ الإعانة المالية السنوية للسلطان وجعل التعهد بينهما هجومياً ودفاعياً ، كذلك حددت الأراضي الانجليزية وعينت صلاحية حكم كل منهما باتفاقية(١) .

ومن خلال اقامة (هينس) في المنطقة لم يذكر للقبائل عبارة الاتحاد، ولم يذكر الوحدة فيما بينهم بل ذكر ممارسة التعارف ضمن التنوع والتعدد وقد وصف الجنرال يعقوب (John Jacob) قائد العمليات العسكرية « أن القوة الأدبية تكون الحاجات إليها أكثر بكثير من القوة المادية لإخضاع القبائل التي تعيش على السلب والنهب !! وكلتاهما ضرورية حيث تكون القوة المادية أساسية وذلك ليمكننا من فرض القوة الأخرى الأدبية »(٢) .

وقد استعان (هينس) باليهود واستخدمهم كجواسيس ، وكانت تبليغاتهم تكتب إلى أبناء ملتهم في عدن باللغة العبرية ، حتى لا يتمكن السكان العرب من تفسيرها لو عثروا عليها(٣) .

ولما أراد الإمام الزيدي مقابلة الكابتن (هينس) ، أمرت الحكومة الهندية (هينس) أن يستقبل مبعوث الامام سنة ١٨٤٠ م بمجاملة لائقة ، غير أنه يجب أن يكون حذراً حتى لا يورط الحكومة بارتباطات متصلة بمطالب ذلك الزعيم في المخا ، وأما بشأن الإشارة إلى أعمال الشريف حسين حاكم المخلاف السليماني المدائية فإنه « ربما كان من الأعمال السياسية للمستقبل البعيد تشجيع ودعم مطالب الإمام » ، وأسفرت محاولات (هينس) مع إمام صنعاء عن جعل الباب مفتوحاً لبعض النواحي السياسية الهامة(٤) .

اعتقد (هينس) أنه من المضر بالمصالح البريطانية أن يصبح الإمام الزيدى قريبا من عدن ، ودافع عن وجهة نظره بضرورة القيام برسم خط للحدود لمنع تقدم

---

١ ـ محمد كمال عبد الحميد ، الاستعمار البريطاني في جنوب الجزيرة العربية ص ١١ .
٢ ـ هارولد . ف ، عدن وجنوب اليمن في ملوك العرب ، ص ٤٧ ـ ٤٨ .
٣ ـ هارولد . ف ، عدن وجنوب اليمن في ملوك العرب ، ص ٣٩ .
٤ ـ هارولد . ف ، عدن وجنوب اليمن في ملوك العرب ، ص ٣٩ .

الزيود نحو الجنوب في اتجاه قعطبة(١) . وفي مارس سنة ١٨٥٣ م أفصحت حكومة الهند عن وجهة نظرها في الوجود البريطاني في عدن « إذ أن التحصينات الشاملة التي أقيمت بتكاليف باهظة دلت على أنها تمت بقصد الدفاع عن شبه الجزيرة العربية بوجه عام ، وصد هجمات العرب عن البرزخ ، وبهذا القصد يجب أن تعتبر مدينة عدن على الأقل ذات اعتبار خاص ، وعلى فرض أن المدينة خارجة عن الموضوع كلية ، فالبرزخ معتبر كأنه قلعة ، لكنه غير مأمون ، إذ استطاع الأشخاص الغرباء الالتفاف حوله ، لأنه غير منيع أو غير ملتفت إليه ، ولا بد من الاهتمام بالسيطرة على الينابيع ، ومع أنه من المسلم به كقاعدة أن مدينة عدن ليست حاصلة على الاعتبار الأول أو الثاني ، وهي دائماً محل للتكهن في أنها سوف تحصل على بعض الاعتبار ، فإن حمايتها تكون جزءاً مقرراً من نظام الدفاع العام الذي تزداد بمقتضاه التحصينات وتقوى » .

وفي سنة ١٨٥٤ م بدأت سلطات بومباي (Bombay) الحربية تحس بحالة النقص وعدم الكفاءة في الميناء وفي الدفاع عن فوهة البركان وأقصد به عدن ، وتم اكتشاف احتمالات الضرر التي يمكن أن تسببها سفن معادية(٢) ، وفي ١٤ يوليو سنة ١٨٥٤ م وقع السلطان سعيد بن سلطان حاكم مسقط تنازلاً للانجليز عن جزر (كوريا موريا) وتضم معها خمس جزر صغيرة في المحيط ، وجاء في التنازل ، « أن الكابتن فرمانتل (Fermantle) الذي ينتمي الى الشعب القوي انجلترا والذي يتبع البحرية الملكية الخاصة (بالملكة (فيكتوريا) قد طلب مني جزر (كوريا موريا) وأني بمقتضى هذا أتنازل عن الجزر المشار إليها سابقاً للملكة فيكتوريا وورثتها وخلفائها من بعدي ، بمحض ارادتي الحرة وبارتياح دون فتر أو ارهاب أو أية مصلحة مالية كانت ...... »(٣) ، واغتاظت فرنسا من هذا التنازل ، ولا سيما اذا عرفنا أن صاحب مسقط كان يتظاهر بأنه حليف لفرنسا ، فأمرت أسطولها بالقيام بمظاهرة في تلك البحار ، وقابل الانجليز هذه الحركة باحتلالهم جزيرة بريم بصور نهائية سنة ١٨٥٨ م(٤) ، وتقع هذه

---

١ ـ المصدر السابق ، ص ٥٥ ، ٥٧ .

٢ ـ هارولد . ف ، عدن وجنوب اليمن في ملوك العرب ، ص ٦٧ ، ٦٩ .

٣ ـ محمود كامل ، اليمن شماله وجنوبه ، ص ٢٤١ .

٤ ـ ساطع الحصري ، يوم ميسلون ، ص ٤٣ .

الجزيرة عند مضيق باب المندب ، واحتلت جزيرة قمر في البحر الأحمر(١) ٠ إلا أن جزر (كوريا موريا) تتبع في ادارتها للمقيم الانجليزي في الخليج العربي ، وذلك لبعدها عن عدن(٢) ٠

وجدير بالملاحظة أن التنافس كان قائماً بين انجلترا وفرنسا في هذه الفترة من أجل التمركز في البحر الأحمر وباب المندب فبعد أن استقرت انجلترا في (بريم) أراد المسيو (تير) مقابلة هذه الحركة فأمر بإنزال عساكر فرنسيين إلى رأس الشيخ سعيد الواقع أمام « بريم » وقد استند في عمله إلى معاهدة عقدت في القرن الثامن عشر بين (دولار مورونيه) وزعماء قبائل الخميس (ودرين) حيث تخلى هؤلاء عن هذا الموقع لفرنسا ٠٠ وفي سنة ١٨٦٢ م اهتم المسيو (توفيل) بصورة خاصة بتنفيذ خطة احتلال الشيخ سعيد والاستقرار فيها ، وحاول كذلك الاستيلاء على أوبوك(٣) بالقرب من جيبوتي ، فقام بمفاوضات مع زعماء دنقلة انتهت إلى نتيجة مبدئية ذات ايجابية بتاريخ ٢٠ مارس سنة ١٨٦٢ م(٤) ٠ إلا أن فرنسا تملكت أوبوك بموجب معاهدة باريس سنة ١٨٦٤ م(٥) ٠ وفي سنة ١٨٦٨ م باع على شاباط أحد زعماء قبيلة درين جميع حقوقه في الشيخ سعيد لبازين رابود أحد كبار تجار مارسيليا ، وعلى الرغم من احتجاج الباب العالى وضع الفرنسي يده على المكان الذي اشتراه وصار في سنة ١٨٧٠ م مستودع فحم للسفن الفرنسية ، وبعد فترة أراد بازين رابود بيع حقوقه في الشيخ سعيد ، فعرض على الحكومة الفرنسية شراء حقوقه فيها ، غير أن الحكومة رفضت هذا العرض ، واغتنمت الدولة العثمانية هذه الفرصة فاشترت الشيخ سعيد ، بعد ذلك بذلت فرنسا جهودها في بسط النفوذ في أوبوك

١ ــ محمد حسن عوبلى ، اغتيال بريطانيا لعدن والجنوب العربي ، ص ١٤ ٠
٢ ــ حسين فوزي النجار ، بريطانيا والجنوب العربي ، ص ٤١ ٠
٣ ــ تقع منطقة أوبك في الجهة الشرقية من القارة الأفريقية ، ساحل خليج تاجورة ، بالقرب من منطقة جيبوتي ٠
٤ ــ جان بيشون ، بواعث الحرب العالمية الأولى في الشرق الأدنى ، ص ٧٣ ــ ٧٤ ٠
٥ ــ محمد عمر الحبشي ، اليمن الجنوبي ، ص ١٣ ٠

لتعويض الشيخ سعيد ، كما استولت على غوبا وتاجورا في أفريقيا بقيادة المسيو لاغاور في سنتي ١٨٨٤ و١٨٨٥ م(١) ٠ وبذلك ظلت السلطتان الانجليزية والفرنسية تسيطران عملياً على حركة المواصلات عبر البحر الأحمر ، خاصة الانجليز الذين انصرفوا إلى تأمين حماية عدن ضد الغزوات القبلية والقادمة من الداخل ، الأمر الذي أدى بهم إلى توسيع نفوذهم(٢) ٠

كل ذلك حدث في وقت كانت فيه الدولة العثمانية عاجزة عن اتخاذ اجراءات حاسمة ضد بريطانيا اذ لم تكن القناة قد فتحت ، ونلاحظ أن نشاط الدولة العثمانية برز في شراء الشيخ سعيد بعد فتح قناة السويس ، لذلك وقع عبء الدفاع على العرب ، ومن ذلك هاجم العرب في ٢١ مايو ١٨٤١ م برئاسة سلطان لحج عدن وكان عدد القوات ما بين أربعة آلاف وخمسة آلاف رجل ، إلا أنهم هزموا ، ومنوا بخسائر فادحة(٣) ٠

وفي الخامس من يوليو سنة ١٨٤١م قام سلطان العبدلى بالتعاون مع السلطان الفضلى بمحاولة ثالثة لاستعادة عدن ، فتوجه نحو خمسة آلاف من رجاله ناحية أسوار عدن ، إلا أن النيران الانجليزية الموجهة من سفينة حربية كانت راسية على شاطىء عدن بالاضافة إلى نيران الحامية ، أدت إلى انسحاب العرب بخسارة ثلاثمائة رجل ، فتجمع العرب في بير أحمد في مكان يمكنهم منه منع أي اتصال بين عدن والمناطق الداخلية ، وبنوا قلعة نوبة الشيخ مهدي وبدأوا سلسلة من الغارات فأحدثت أضراراً كبيرة للتجار ولحاملى المؤن ، ونتيجة لذلك تقدمت قوة انجليزية في ١١ اكتوبر سنة ١٨٤٠م تتكون من ٣٠٠ من الانجليز و٢٠٠ وطني وبطارية مدفعية تحت قيادة بينيكويك (Penny Cuick) فتمكنت هذه القوة من تدمير نوبة الشيخ مهدي ، ثم دمرت قلعة الشيخ عثمان ، ثم قام الأسطول الهندي بضرب ساحل الفضلى ، وأدى ذلك إلى فتور همة العرب(٤) ٠

ويذكر الشيخ الواسعي ، « أنه في شهر رجب عام ١٢٦٢ هـ (سنة ١٨٤٦ م) خرج شريف من أشراف مكة اسمه السيد اسماعيل وتوجه نحو اليمن ، ولم يزل

١ ـ جان بيشون ، بواعث الحرب العالمية الأولى في الشرق الأدنى ، ص ٧٤ ٠
٢ ـ محمد عمر الحبشي ،، اليمن الجنوبي ، ص ١٣ ٠
٣ ـ جاد طه ، سياسة بريطانيا في الجنوب العربي ، ص ١٣٧ ٠
٤ ـ جاد طه ، سياسة بريطانيا في جنوب اليمن ، ص ١٣٨ ـ ١٤٣ ٠

يدعو الناس إلى الجهاد وإخراج الفرنجة من عدن فأجابه جماعة من الناس ، ثم وصل إلى قرب عدن بنحو فرسخ ولم يزل محاصراً لعدن حتى سمم هنالك وتوفي وتفرق من كان بمعيته من المجاهدين(١) . ولكن في رواية أخرى قصها أحد شهود العيان ونشرها العبدلي ، ومفادها أن ذلك الشريف جاء معه جيش من عسير وانضم إليه كثيرون من أهالي لحج وهجموا على الانجليز برغم تفشي الطاعون في الجيش ، وهجموا على الانجليز فقابلوهم باطلاق المدافع فانهزموا وتفرقوا ، وأن الشريف ومن بقي من أصحابه توجهوا إلى « أبين » وواضح من الروايتين أن هذه الدعوة لإخراج الإنجليز وتحرير عدن من الأجانب غير المسلمين لم تأت إلا من الشمال أي من الحجاز(٢) .

وفي ٢٣ يناير سنة ١٨٦٧ م عقد الانجليز اتفاقاً مع شيخ قبيلة العقربي الذي تعهد بألا يبيع ولا يرهن ولا يسمح باحتلال أية قطعة من أراضي شبه الجزيرة المعروفة باسم عدن الصغيرة إلا للحكومة البريطانية في مقابل ثلاثة آلاف ريال تدفع فوراً واتاوة شهرية قدرها ثلاثون ريالاً .

وفي ١٧ مارس سنة ١٨٦٧ م وافق سلطان لحج الشيخ فضل بن عبد المحسن بالتصريح للانجليز بمد قناة مياه من الشيخ عثمان إلى عدن وذلك على نفقة الانجليز ، وأن تبقى القناة في حماية السلطان(٣) .

لقد اتبع الانجليز سياسة مرنة في جنوب اليمن ، ذات مظاهر مختلفة أولها المعاهدات الولائية والرواتب الشهرية أو السنوية المختلفة باختلاف مكانة كل أمير ، ومدافع الترحيب والتوديع لمن يجيء إلى عدن من السلاطين أو يسافر منها ، ثم الألقاب والنياشين بالاضافة إلى تخصيص الهدايا الموسمية للسلاطين ، والتدخل في السياسة المحلية عند انتخاب أو تعيين أحد الحكام ، والتحزب لبيت طامع في الملك على بيت مالك أو عكس ذلك ، من أجل المحافظة على استقلال كل سلطان وأمير تحقيقاً لمصالحهم ولمصلحة انجلترا ، وقد عقد الانجليز هذه

---

١ ـ الواسعي ، تاريخ اليمن ، ص ١٦٩ .

٢ ـ أحمد فخري ، اليمن ماضيها وحاضرها ، ص ١٦٢ ـ ١٦٣ .

٣ ـ جاد طه ، سياسة بريطانيا في جنوب اليمن ، ص ١٧٠ .

المعاهدات الولائية مع غالبية السلاطين والأمراء والشيوخ بعد احتلالهم لعدن مباشرة(١) ٠

كما كان الانجليز يتدخلون في بعض الأحايين في شؤون أصحاب المشاهرات ليصلحوا مثلاً بين صديقين متخاصمين من أصدقائهم فيورثهم التدخل مسؤولية توجب عليهم الاستمرار ، فيستمرون محكمين ومسيطرين(٢) ٠

وضح للانجليز أنه يجب للمحافظة على عدن قوة كافية ، وقد يعجزون عن تأمين ذلك اذا لم يكن لعدن منطقة تشبه الدرع يصونها من هجمات العرب الذين يحيطون بها من جهات الشرق والغرب والشمال ويحاربون بشراسة ويعتصمون بالجبال ، فاتخذوا لذلك سياسة لين تكتنفها شدة ، وبدأت المفاوضات وابتاع الانجليز من الأراضي مالم يستطيعوا أخذه بالسياسة ، فتم بذلك للانجليز الدرع الذي يحتاجون إليه ، والذي هو عبارة عن خط يمتد من الغدير على البحر غرباً إلى دار الأمير شمالاً ، ومنها شرقاً بشمال إلى أم العمدة على البحر ، ثم أقام الانجليز في هذه المنطقة الانجليزية الاستحكامات العسكرية ونقلوا إليها الجنود من الهند (٣) ٠

وعلى هذا النحو أخضعت انجلترا الأمراء المحليين لسلطتها ، بعد أن ضمنت لهم المحافظة على الاستقلال الذاتي التقليدي ضمن حقوق السيادة لسلطات الحماية ، وقد ترك لحكومة الهند أمر السهر على تلك القوى حيث كانت الرقابة غير المباشرة والغامضة تتم عن طريق سلطات عدن ، وهذه السلطات لم تسمح ولم تعمل على السيطرة على النزعات القبلية بل ذهبت إلى اعطاء زعماء القبائل صفة الامارة والسلطنة والمشيخة في ظل السيطرة البريطانية(٤) ٠ وقد حرصت السلطات البريطانية على التركيب الاجتماعي والسياسي للتنظيم القبلى الموروث عن تفكك الممالك الكبرى التي سبقت الإسلام وذلك بحجة إحترام النزعات الإستقلالية

---

١ ـ أمين الريحاني ، ملوك العرب ، ص ٤١٨ ٠

٢ ـ محمود كامل المحامي ، اليمن شماله وجنوبه ، ص ٢٤١ ٠

٣ ـ جاد طه ، سياسة بريطانيا في جنوب اليمن ، ص ٣٥٣ ٠

٤ ـ محمد عمر الحبشي ، اليمن الجنوبي ، ص ١٧ ٠

المحلية . وهذا التركيب يحتفظ بأهميته دائماً في منظر الاستعمار طالما أنه يشكل حاجزاً في طريق أجزاء الجنوب العربي . وأصبحت انجلترا مرتبطة بمعاهدة ثنائية مع كل من الكيانات السياسية المعترف بها رسمياً واللائحة الرسمية في عدن تشير الى أن عددها ثمانية عشر ولكنها في الواقع أكثر عدداً (١) . واتخذ الانجليز فرصة جهل وفقر السلاطين في السيطرة عليهم وتشتيت كلمتهم فعقدوا معهم تلك الاتفاقيات . بعد أن اتخذوا من عدن قاعدة للتوسع في جنوب اليمن(٢) ٠

ومحمية عدن تمثل مجموعة من أراض متداخلة متباينة المساحة متشابهة النظم تقريباً . والوجود البريطاني لم يمنع استمرار الانقسامات التي كان من نتائجها الصراع الداخلى المستمر(٣) الذي استغله الانجليز لصالحهم . ولم تشهد عدن أي تحسين في أوضاعها . سواء على الصعيد الاداري أو الاقتصادي أو الثقافي . وتبعت عدن الحكومة الهندية في ادارتها مثل سنغافوره ومالاقا . أما الادارة في عدن فقد قامت على أساس مركزي ذي طابع استعماري . وعهد بها إلى رجال من حكومة الهند ممن عرفوا بخبرتهم في الادارة السياسية وهم أوروبيون ومعظمهم عسكريون الى جانب قليل من أصل هندي . وكان هؤلاء مجرد موظفين ثانويين(٤) ٠

أما بالنسبة لمعاملة السكان من قبل السلطات الانجليزية . فقد نوقشت كل الطرق والأساليب الممكن اتباعها . وكان أكثرها ملاءمة للظروف في نظر الانجليز نظرية « فَرِّقْ تَسُدْ » وذلك على اعتبار الامكانيات الحربية التي كانت محدودة ، اذ شعر (هينس) في البداية بأنه ليس له الخيار . فالامكانيات والامدادات العسكرية التي طلبها لعاقبة على سبيل المثال . كانت تتأخر أو ترفض . وقد دافع هينس عن سلوكه بقوله : « انني أنظم الأمور وأقوم باعداد الترتيبات وأجعل القبائل المعادية

---

١ ـ جان جاك بيربي . جزيرة العرب . ص ١٨٥ ـ ١٨٦ ٠

٢ ـ أمين سعيد . تاريخ اليمن . ص ٢٥ ٠

٣ ـ جان جاك بيربي . جزيرة العرب . ص ١٨٠ ٠

٤ ـ محمد عمر الحبشي . اليمن الجنوبي . ص ١٧ ـ ١٨ ٠

والمشاغبة تقاتل ضد قطاع الطرق دون استدعاء الحراب البريطانية »(١) ٠

أما عن العلاقات التجارية مع البلاد العربية فلم تكن منتظمة ولم يكن في موارد البلاد ما يغذيها بالنشاط والاستمرار أو يضفي عليها مزيداً من الاهتمام(٢) ٠

وتكمن أهمية عدن بالنسبة لانجلترا في الدرجة الأولى كسنغافورة ، وجبل طارق في مركزها الاستراتيجي النابض على الشريان الحيوي للمواصلات بين الجزر البريطانية وامبراطوريتها ، فعدن تقف كالحارث الذي يصون الثروة البريطانية الى جانب جبل طارق ، ومالطه ، وهونغ كونغ ، وسنغافوره وصخرة بريم ، فالقوافل والسفن لا تنقطع أمامها ، وتعتبر عدن ميناء ومركزاً لتجارة العبور « الترانزيت » ؛ وتتم بواسطتها أيضاً اعادة التصدير والمبادلات العائدة إلى اليمن والمحمية ، وترتبط عدن بالخارج من أجل الموارد الغذائية التي تستوردها نظراً لقلة الزراعة ، ويعمل في عدن أرباب حرف وصيادون وبناة مراكب من أجل السوق المحلية ، وفي عدن ملاحات متعددة تنتج الملح وهو الانتاج الوحيد(٣) ٠

كما تستمد عدن أهميتها من وجود مرفئها الذي شهد خلال فترة من الزمن مرحلة تقهقر بسبب التقدم الذي طرأ على التجارة البحرية عن طريق رأس الرجاء الصالح ، وقد رافق الاحتلال الانجليزي قيام ظاهرتين هما اعادة فتح البحر الأحمر للرحلات المتجهة الى الهند واستراليا من جهة ، ومرحلة ازدهار التجارة الدولية من جهة ثانية(٤) ٠ وهذه الظاهرة سوف تتضاعف وتعطي للبحر الأحمر أهميته القديمة قبل اكتشاف طريق رأس الرجاء الصالح ، في أعقاب افتتاح قناة السويس مباشرة ٠

---

١ ـ هارولد ٠ ف ، عدن وجنوب اليمن في ملوك العرب ، ص ٤٤ ٠
٢ ـ حسين فوزي النجار ، بريطانيا والجنوب العربي ، ص ١٩ ٠
٣ ـ جان جاك بيربي ، جزيرة العرب ، ص ١٨٣ ٠
٤ ـ محمد عمر الحبشي ، اليمن الجنوبي ، ص ١٣ ٠

من هذا العرض نرى حالة غرب الجزيرة العربية قبل افتتاح قناة السويس بالنسبة للدولة العثمانية ، فالأشراف ذوو نفوذ قوي في الحجاز ، والثورات في عسير والمخلاف السليماني ، والتنافس مشتعل بين الأئمة الزيدية في اليمن ، بالاضافة الى التواجد البريطاني في عدن ، ومعنى ذلك وجود لين هش للدولة العثمانية بسبب صعوبة ارسال الحملات والمواصلات ، من العاصمة الى غربي الجزيرة العربية قبل افتتاح قناة السويس ، وذلك ما كان عليه الوضع وسنرى كيف تغير بعد افتتاح القناة





الفصل الثاني

قناة السويس

أ- عودة طريق التجارة العالمية للبحر الأحمر .

ب- أهميّة القناة للدولة العثمانية من حيث سياستها العربيّة .



عودة طريق التجارة العالمية للبحر الأحمر

كان جانب كبير من تجارة الشرق يأتي عن طريق الأراضي المصرية عبر البحر الأحمر وخليج السويس ، ثم تسير في طريق بري إلى النيل ، ومنها الى ثغور مصر على البحر الأبيض المتوسط ، ثم تنقل عبر ذلك البحر إلى الجزروالمدن الايطالية ، ومن أهمها البندقية وجنوة ، وكانت هذه المدن تقوم بتوزيع هذه التجارة الشرقية الى بقية أجزاء أوروبا الغربية والوسطى(١) ، ثم تحولت السفن التجارية العالمية ابان التوسع الأوروبي الاستعماري الى طريق رأس الرجاء الصالح ، وبعد أن أصبح شق القناة أمراً محتملاً لم يكن هناك أفضل من بناء الموانيء في البحر المتوسط والبحر الأحمر ، لكن الانجليز كانوا يعارضون تنفيذ مشروع القناة وكتبوا كثيراً عن مصاعب هذا المشروع ، لأنهم خشوا من تحول التجارة الأوروبية نتيجة شق القناة إلى كل من مارسيليا وتاريستا ، ومن ثم تنافسان لندن وليفربول ، إلا أن هذا الاحتمال كان بعيد الوقوع نظراً لأن انجلترا كانت تملك سفناً ضخمة ومنتجات هائلة ، وهذا ما تفتقر اليه مارسيليا وتاريستا ، وكان الانجليز يعرفون أن تجارة البحر الأحمر سوف تتضاعف بعد شق القناة ، مما آثار مخاوف انجلترا ، وذلك لأن القناة سوف تسمح لكل الدول بالتوسع في الشرق مما يهدد الهند ، وكان معنى عدم شق القناة هو أن الانجليز سيظلون محافظين على مركزهم الممتاز في تلك الأنحاء(٢) ٠

لكن مع بداية القرن التاسع عشر تحدثت الصحف في أنحاء العالم عن الصلة بين البحرين المتوسط والأحمر ٠ وأشارت هذه الصحف الى أن البحر الأحمر يمتد كقناة طبيعية واسعة نحو الشمال حتى تقابل تقريباً البحر المتوسط ، وأن الطبيعة

---

١ ــ محمد مصطفى صفوت ، انجلترا وقناة السويس ، ص ٣ ٠

٢ ــ جاد طه ، سياسة بريطانيا في جنوب اليمن ، ص ٢٤١ ٠

في عملها قد خلقت هذين البحرين لتسهيل الاتصال بين أوروبا وآسيا وأفريقيا ، وتركت لعبقرية الإنسان أن توجد الوسائل لاتمام الاستفادة من تنظيماتها هذه(١) ولذلك بذلت عدة محاولات من شركات بريطانية لتذليل العقبات التي تعترض وجود خط ملاحي منتظم بين الهند وانجلترا عبر البحرين الأحمر والمتوسط . وأثير هذا الموضوع في مجلس العموم البريطاني في سنة ١٨٣٤ م وانتهى النقاش والبحث في المسألة الى القول بأنه وان كان انشاء خط ملاحي تجاري عبر البحر الأحمر بين الهند وانجلترا يحمل دافعي الضرائب في انجلترا عبئاً أكبر الا أن مثل هذه المواصلات السريعة مع الشرق ستحل كثيراً من مشكلات الادارة وستخدم المصالح الانجليزية في الهند . ولذا قرر المجلس أنه يجب أن يبت حالاً في مسألة اتصال تجاري منتظم مع الهند عبر البحر الأحمر(٢) .

وفي فرنسا كانت مقالات ميشيل شيفاليه (Chevalier) في جريدة (le Globe) في فبراير تتحدث عن أهمية الطريق عبر البحر الأحمر الى المتوسط . وتمت دراسات بدأها في سنة ١٨٣٤ م فورنيل (Fournel) مهندس المناجم ولم تؤد جهود اينفانتن (Enjantin) لدى محمد على باشا الى نتيجة ما ، لأن محمد على فهم أن هذه القناة ستثير اهتمام العالم بأجمعه ، وتكون بذلك فرصة للتدخل الأجنبي في مصر(٣) ولكن هذا الحذر لم يلبث أن تبدد حينما تولى محمد سعيد باشا ولاية مصر . وكانت مصر تدرك أهمية البحر الأحمر كطريق ملاحي ، وأدركت في الوقت نفسه حقيقة الصراع الذي سيدور حول النفوذ في هذه المنطقة لو تم شق القناة . لذلك كانت سياسة مصر منذ أوائل القرن التاسع عشر وفي النصف الثاني منه على وجه الخصوص قائمة على هذا الادراك الكامل لحقيقة الأوضاع في هذه المنطقة .

وعمدت مصر ـ بعد خروج الفرنسيين بحملتهم منها ، واضطرار الانجليز للانسحاب ، وبعد أن استقرت الأمور ـ الى تنشيط وتأمين الحركة التجارية عن

---

1. Hoskins : British Routs to India p. 41
2. Hoskins : British Routs to India P. 125

٣ ـ بيير رنوفان ، تاريخ العلاقات الدولية ، ص ٣٨١ .

طريق البحر الأحمر ، اذ في سنة ١٨٣٩ م أنشيء خط تلغراف بين السويس والقاهرة وأصبح المسافر يستطيع البقاء في القاهرة حتى تصل البرقية بموعد مغادرة السفينة لميناء السويس ، كما درس مشروع مد خط حديدي من الاسكندرية الى القاهرة ، ثم منها الى السويس لتسهيل أمر التجارة عبر مصر(١) ٠



---

١ ـ شوقي عطا الله الجمل ، البحر الأحمر في سياسة مصر ، ص ٧ ٠

ضاعفت الدولة العثمانية جهودها منذ بسطت نفوذها على مصر والحجاز الى تجميد النشاط في البحر الأحمر قدر الامكان ، فحرمت دخول السفن الأوروبية الى هذا البحر بحجة أنه يؤدي الى الأماكن المقدسة الاسلامية ، الا أن هذه المحاولة لم يقدر لها النجاح في تجميد الملاحة الدولية ، اذ لم يستمر الاعتماد على طريق رأس الرجاء الصالح على اعتبار أنه طريق طويل ، بينما طريق البحر الأحمر وهو الطريق القصير الذي يوفر من الوقت والجهد والمال ، القدر الكبير ، خاصة التغيير الذي طرأ على الملاحة في البحر الأحمر باستخدام السفن البخارية التى تمخر عباب هذا البحر مما جعل طريق رأس الرجاء الصالح يبدو عقيماً منذ بداية القرن التاسع عشر ، لأنه لم يساير الثورة الاقتصادية ، بالاضافة الى أن العلاقات التجارية والسياسية في زيادةِ مستمرة وتستلزم الاتصال السريع ، كل ذلك وجه الأنظار الى هذا الطريق القصير طريق البحر الأحمر ، وفي مقدمة الدول التي ركزت أنظارها على ذلك انجلترا وفرنسا(١) • واستطاع فرديناند دي ليسبس (Ferdinand de Lesseps) أن يقنع خديوي مصر سعيد باشا وحصل منه على عقد امتياز حفر قناة السويس ، وكان ذلك في نوفمبر سنة ١٨٤٥م ، وفي هذا الوقت كان المشروع يخص دي ليسبس دون أن يخطر به الحكومة الفرنسية ، الا أنه بعد ذلك دخل في اطار السياسة لأن الخديوي احتاج الى تصريح من الباب العالي على اعتبار أن سعيد باشا كان تابعاً للسلطان ، وهنا تدخل المنافسة بين فرنسا وانجلترا في طور هام ، ففي يناير سنة ١٨٥٥ م وافق نابليون الثالث على مشروع القناة ، الا أن هذه الموافقة كانت شخصية لأنه لا يريد الدخول مع انجلترا في حرب ، ولكنه كان يرى أن هذا التحفظ مؤقت ، اذ حينما تشترك رؤوس الأموال في العملية فان المقاومة لا بد وأن تختفي •

وفي نوفمبر سنة ١٨٥٨ م طرحت الأسهم في الأسواق ، وذلك بطرح أربعمائة ألف سهم ، سلم منها للخديوي شخصياً ٥٤ ألف سهم ، وحجز منها للمصريين ٢٢

---

١ ـ شوقي عطا الله الجمل ، البحر الأحمر في سياسة مصر ، ص ٣٠

ألفاً والباقي طرح منه في الأسواق المالية ومقداره ٣١٤ ألف سهم ، استوعبت الأسواق الفرنسية منها ٢١٧ ألفاً . وزعت بين ٢١ ألف مشترك ، ولم تتقدم انجلترا ولا روسيا ولا النمسا لشراء بعض من هذه الأسهم ، وكان بلمر ستون ، رئيس وزراء انجلترا قد نصح أصحاب الأموال الانجليزية ،بعدم المساهمة في بناء المشروع حتى لا تتمكن الشركة من تجميع الأموال اللازمة لتكملة المشروع(١) ٠

وعندما أثير موضوع القناة في مجلس العموم البريطاني في يونيه سنة ١٨٥٨ م أعلن بلمر ستون أن قناة السويس سوف تعمل في المستقبل على انحلال الدولة العثمانية ، وأن السكة الحديدية بين القاهرة والاسكندرية كافية لخدمة مصالح انجلترا أكثر من القناة ، الا أن وزير الخارجية جلادستون بين في الجلسة نفسها ضعف هذه الفكرة وذكر أن القناة مجرى مائى ، اذا قدر لها أن تقع في يد أية دولة فستقع في يد أقوى الدول البحرية ، وهي انجلترا ، وطلب من الأعضاء أن ينظروا الى مشروع القناة لا كمشروع سياسي ولكن كمشروع تجاري قبل كل شيء(٢) ، ولما كان دي ليسبس يواجه صعوبات مالية ، فقد اقترح على الخديوي أن تباع القناة لدول أوروبا البحرية ، وكان يأمل من وراء ذلك انقاذ الموقف ، وأن يضمن بذلك أن تصبح القناة على الدوام محايدة ، لكن الباب العالى كان على حق حين أوضح ألاّ يمكن من جهة المبدأ ، اقرار بيع القناة ، أو تكوين ادارة دولية في أراض هي ملك له ، حتى مسيو دي لسبس نفسه لم يكن له الحق في اثارة مسألة تلك حقيقتها ، فشركة قناة السويس شركة مصرية ، وهي بهذا الوصف خاضعة لقوانين الدولة العثمانية وعاداتها(٣) ٠

بدأت عمليات الحفر وتغير الموقف في اكتوبر سنة ١٨٥٩ م حين وعد نابليون الثالث دي لسبس بالتأييد الا أن انجلترا شجعت في ديسمبر ١٨٥٩ م حملة صحفية

---

١ ــ بيير رنوفان ، تاريخ العلاقات الدولية ، ص ٢٨٢ ــ ٢٨٣ ٠
٢ ــ محمد مصطفى صفوت ، انجلترا وقناة السويس ، ص ٢٧ ٠
٣ ـ شونفليد، هيو ٠ ج ، قناة السويس ، ص ٥٢ ٠

تهدف الى زعزعة الثقة في الشركة واستطاعت انجلترا أن تحصل على فرمان من الدولة العثمانية بوقف الاشغال ، بعد أن أوضحت للباب العالي أن مصر ستتخلى عن الروابط التي كانت لاتزال تربطها مع الدولة العثمانية ، الا أن دي لسبس استطاع أن يتغلب على هذه الصعاب ، ففي ١٩ مارس سنة ١٨٦٦ م وافقت الحكومة الانجليزية على عقد الامتياز بشرط أن يكون الاشراف الذي تمارسه فرنسا على المشروع مجرد اشراف مالى ، وبعد أن انجلت الصعوبات السياسية ، قامت الشركة باعطاء دفعة للاشغال بسرعة أكبر ، ووجدت بسهولة السندات المالية(١) ٠ وعندما تقدمت عمليات الحفر ، قدرت انجلترا الأخطار التي تحدق بمصالحها في الهند من جراء بقاء القناة في أيدي شركة في الغالب أنها فرنسية ، فحاولت أن تدرأ هذه الأخطار بسلسلتين من التدابير الفعالة ، وبذلت أولاً جهوداً عظيمة لتقوية مركزها في مدخل البحر الأحمر وسواحل الجزيرة العربية ، فوسعت منطقة الاحتلال في عدن ، وبسطت حمايتها على النواحي المجاورة لها ، واحتلت زيلع وبربرة على الساحل الغربي للبحر الأحمر ، وفرضت معاهدات حماية انفرادية مع أمراء سواحل الجزيرة العربية وشملت هذه الحماية جميع أقسام حضرموت ، وقطر وعمان والبحرين والكويت ، وأتبعت ذلك بشراء أسهم مصر سنة ١٨٧٥ م ثم باحتلال مصر سنة ١٨٨٢ م وبذلك كانت خطة بريطانيا تضمن السيطرة التامة على طريق الهند (٢) ٠ وكان افتتاح قناة السويس في ١٧ نوفمبر سنة ١٨٦٩ م في احتفال كبير يسوده الفخامة البالغة ، وأنفقت الحكومة المصرية الأموال الطائلة واشترك في الاحتفال عدد كبير من ممثلى البلاد الأجنبية .. وأقيمت القصور الفخمة والبيوت الفاخرة لاستقبال الوفود المشاركة ، وفي يوم الافتتاح سارت ٦٧ سفينة في شكل استعراضي بالقناة وفي مقدمتها اليخت الفاخر الذي أطلق عليه اسم « أوجيني » تكريماً لامبراطورة فرنسا التي كان يحملها ذلك اليخت ، واستمرت الاحتفالات عدة أسابيع(٣) ، وبمعنى آخر كان الافتتاح عالمياً وله أهميته الكبرى

١ ـ بيير رنوفان ، تاريخ العلاقات الدولية ، ص ٣٨٣ ـ ٣٨٤ ٠

٢ ـ ساطع الحصري ، يوم ميسلون ، ص ٤٣ ٠

٣ ـ جالينيا نيكتينا ، قناة السويس ، ص ٢٢ ٠

بالنسبة للعالم بدليل حضور غالبية مندوبي الدول الكبرى ، ويذكر شونفيلد. هيو. ج ، أن البحث الحديث أثبت أن اسماعيل كان يرمي الى هدف آخر من حفلات الافتتاح ، فلم يكن غرضه الرئيسي من اقامة هذه الزينات إلا اعلان استقلال مصر استقلالا تاماً ، وكان قد قضى سنين قبل ذلك وهو يحاول انتزاع استقلاله بمصر من الباب العالى ، ثم قدر أنه يستطيع اعلان هذا الإستقلال في حفلات الافتتاح ، وكان نابليون الثالث محور السياسة الأوروبية ، لذلك فكر اسماعيل في دعوته إلى هذه الحفلات حتى يكون إعلان استقلال مصر أمام عاهل فرنسا وممثلى ملوك أوروبا ، وحاول اسماعيل أن يتصل بنابليون ليدعوه الى حفلة الأفتتاح ، وأرسل رسولاً ليتصل بالامبراطور ، ولكن الباب العالى أحس بنوايا اسماعيل فاتصل بنابليون الثالث من الناحية الأخرى ، وقدر نابليون حرج مركزه فلم يقابل شاهين باشا رسول اسماعيل ، وقابلته الامبراطورة يوجينى وقبلت الدعوة نيابة عن زوجها(١) .

وكانت هناك بعض الدول الأوروبية ترغب في مساعدة اسماعيل باشا في تنفيذ رغبته، فملك إيطاليا فكتور أمانويل أرسل سفنه تحت قيادة ولى عهده الى الإسكندرية ، ونابليون أوعز لزوجته أوجيني عند سفرها بمساعدة الخديوي ، إلا أن الدولة العثمانية وانجلترا اعترضتا على تلك المحادثات السرية ، وشددت انجلترا على ذلك ، حتى التزمت ايطاليا بإرجاع الأساطيل من ثغر الاسكندرية ، فلم تحضر الاحتفال بافتتاح قناة السويس ، وبذلك تكون فكرة الاستقلال عن الدولة العثمانية قد ضعفت لدى اسماعيل(٢) .

وبافتتاح قناة السويس أصبحت هذه القناة جزءاً من جغرافية العالم الطبيعية والسياسية ، فقد وصلت بين قارتين وأصبحت من الشؤون الدولية الهامة (٣). وأعتبرت من أهم المجاري المائية البحرية في العالم ، اذ ربطت بين الشرق والغرب ، وأحكمت الصلة بينهما ، وأصبحت أقصر وأقرب طريق للدول الأوروبية

---

١ ـ شونفيلد . هيو. ج ، قناة السويس ، ص ٨٨ .

٢ ـ اسماعيل سرهينك ، حقائق الأخبار عن دول البحار ، ص ٧١٨ ـ ٧١٩ .

٣ ـ شونفيلد. هيو. ج ، قناة السويس ، ص ٥١ .

ومستعمراتها في الشرق(١) . واجمعت الدول الأوروبية عند افتتاح القناة على أن هذا العمل الذي نجح أخيراً سيكون عالمياً في الفوائد التي سيعود بها على الناس ، وعلق مستر (Brace) قنصل انجلترا في مصر « أن شق القناة قد أدى إلى زيادة المواصلات التجارية بين أوروبا والبلاد الواقعة على البحر الأحمر ، وأن مراكز الدول الأجنبية سوف يزداد في هذه البلاد ، ومن المنتظر أن تقع منازعات بينها وبين تلك الشعوب ، وحينئذ يمكن اتخاذ القناة للتدخل المسلح في شؤونها . وهذا التدخل يقضي على الاحتلال الدائم ، وأن هذا يتوقع في مصر ذاتها(٢)» وكتب ايرل كلارندن (Eral Clarndan) وزير الخارجية البريطاني الى دي لسبس خطاباً قال فيه : « إن الافتتاح الموفق الذي أصابته قناة السويس قد استقبله العالم أجمع بالرضى ، واني إذ يكون لي الشرف بأن أهنئكم وأهنيء الأمة والحكومة الفرنسية على اهتمامها بمشروعكم اهتماماً عميقاً لم يتزعزع فاني أعلم أنني أمثل عواطف أبناء بلدي تمثيلاً صادقاً ، وعلى الرغم من العقبات المتعددة الأشكال التي كان عليكم ان تجاهدوها ، فقد لقيتم أخيراً نجاحاً عظيماً جزاء وفاقا على عزمكم الصادق الذي لم يعرف الكلل ، وإني لأجدني مخلصاً في سروري اذ أقوم بنقل تهنئات حكومة جلالة الملك إليكم على انشاء طريق جديد للمواصلات بين الشرق والغرب وعلى الفوائد السياسية والتجارية التي تتطلع اليها بثقة نتيجة لمجهوداتكم (٣) » .

وفي الوقت الذي افتتحت فيه قناة السويس كان هناك ما يسمى بالانقلاب الصناعي ، نتيجة لهذا بدأ احتياج دول غرب أوروبا الى المواد الخام اللازمة للصناعة والمتوفرة في مستعمرات الشرق ، كذلك رغبة دول غرب أوروبا في ايجاد أسواق لتصريف منتجاتها الصناعية فضلاً عن استثمار رؤوس الأموال فيها بجانب الرغبة في الهجرة نتيجة لازدياد عدد السكان ، كما صاحب التطور الصناعي تطور في صناعة السفن وكذلك وسائل المواصلات الأخرى كالسكك الحديدية نتيجة لاستخدام البخار في

١ ـ محمد مصطفى صفوت ، انجلترا وقناة السويس ، ص ٤٥ .

٢ ـ أحمد رشدي صالح ، قناة السويس ، ص ١٩ .

٣ ـ شونفيلد . هيو . ج ، قناة السويس ، ص ٤٩ .

تشغيل الآلة(١) . وترتب على ذلك كساد في الانتاج الصناعي لصعوبة تصريف ما يفيض عن الاستهلاك المحلى ، وفكرت الدبلوماسية الأوروبية في البحث عن مستعمرات جديدة في آسيا وأفريقيا لأنهاء تلك الأزمة ، وفي هذا المجال كانت بريطانيا التي سبقت غيرها في استخدام الآلات ، وأمكنها في سنة ١٨٧٠ م أن تصرف نصف الناتج من الصلب في العالم وثلاثة اضعاف ما أنتجته أية دولة أخرى ، وبمثل هذه النسبة تفوقت في المصنوعات القطنية ، وتجاوزت تجارتها الخارجية ضعف ما بلغته التجارة الخارجية لأي بلد آخر(٢) ، وتمخض عن كل ذلك اشتداد روح المنافسة بين دول غرب أوروبا ، واتسم هذا التنافس في باديء الأمر بالطابع الاقتصادي ، وسرعان ما تغلبت عليه النزعة الاستعمارية كما ذكرت نتيجة للتيارات السياسية التي كانت تموج بها القارة الأوروبية في ذلك الوقت(٣) .

وإن كان الهدف من شق قناة السويس هو تصريف البضائع والمصنوعات الأوروبية في أسواق الشرق واستيراد المواد الخام ، فإن القناة تكون في خدمة المصالح العالمية ، واذا رغبت فرنسا في سوق لمنتجاتها في شرق البحر المتوسط لتهدد بها التجارة الانجليزية فعليها ـ أي فرنسا ـ أن تنمي هذه السوق ، وذلك بأن تعيد لمصر رفاهيتها وتجعلها باباً الى الشرق ومنفذاً لضرب بريطانيا في الهند ، وبذلك تكون مصر قد ارتبط مصيرها بالتطور الاقتصادى العالمى ، وبالتالى فإن كيان مصر يتأثر بشدة ، وتلك تؤثر في العالم كله أكبر الأثر وأعمقه وذلك هو الانقلاب الصناعي الذي مر بنا آنفاً(٤) .

كانت أسواق الهند في السنوات الأولى من افتتاح القناة ، في المقام الأول من حيث استغلال الدول الصناعية لها ، اذا كانت الحمولة الذاهبة إليها ومنها عبر القناة أكبر بنسبة ما من غيرها ، ثم تغيرت هذه النسبة ، اذ تضاءلت شيئاً فشيئاً وحلت محلها التجارة مع الصين واليابان ، ودول الشرق الأقصى ، وهذا التطور يرجع إلى

١ ـ عبد الرؤوف أحمد عمرو ، قناة السويس في العلاقات الدولية ، ص ٣٢ .
٢ ـ د. مصطفى الحفناوي ، قناة السويس ومشكلاتها المعاصرة ، ص ١٧ .
٣ ـ عبد الرؤوف أحمد عمرو ، قناة السويس في العلاقات الدولية ، ص ٣٢ .
٤ ـ أحمد رشدي صالح ، قناة السويس ، ص ١٢ .

تطور الاستعمار وانتشار حلقته ، وارتباطه بالسياسة الدولية ونموها(١) ٠

أما أهمية القناة بالنسبة لانجلترا فقد كانت أهمية كبيرة تزداد مع مر السنين وجاء شق القناة بالنسبة لها ولامبراطوريتها وتجارتها حدثاً هائلاً كأكبر دولة بحرية استعمارية ظهرت في العالم ، إذ يمتاز هذا الطريق بأن انجلترا تستطيع ببحريتها المتفوقة حماية تجارتها وسفنها ، ومنذ الافتتاح أصبح الى حد كبير تحت رحمة القوة البحرية الانجليزية ، خاصة بعد الكارثة السياسية والبحرية التي منيت بها فرنسا في الحرب السبعينية ، وبذلك لم تعد أهمية القناة في نظر انجلترا قاصرة على وقت السلم ، بل كذلك في وقت الحرب اذ أصبحت القناة الطريق الرئيسي لمرور السفن والقوات والمعدات الحربية الانجليزية إلى شرقي أفريقيا والشرقين الأوسط والأقصى واستراليا ونيوزلندا ، كما أصبحت القناة الطريق الرئيسي لمد نفوذ بريطانيا وسلطانها في شرقي العالم وفي آسيا(٢) ٠ وقامت على ذلك الاستراتيجية الدفاعية للامبراطورية ٠

سعت انجلترا بعد ذلك للحصول على أسهم القناة ، حتى حصلت على نصفها تقريباً ، مما أدى الى اندمال الجراح القديمة بين فرنسا وانجلترا والتي كانت بسبب المسألة المصرية ، فأعلن كليمنصو في خطابه في المجلس النيابي الفرنسي المنعقد في يونيه سنة ١٨٨٢ م ، « أن بريطانيا وفرنسا تشتركان في مصلحتين رئيسيتين أولهما حرية قناة السويس ، وثانيهما ادارة الشؤون المصرية ادارة صالحة(٣)»٠

بعد ذلك تطور الموقف فكان الاحتلال الانجليزي لمصر وسيطرتها على قناة السويس سنة ١٨٨٢ م ، وساعد استمرار السيطرة الانجليزية على قناة السويس ، بالرغم من اتفاقية القسطنطينية سنة ١٨٨٨ م ، بشأن حرية الملاحة في القناة ، على جعل القناة من أهم عوامل المنازعات الاستعمارية ، وزاد حادث فاشودة سنة ١٨٩٨ م من حدة النزاع بين المتنافسين الرئيسيين في مصر ، انجلترا وفرنسا ،

١ ـ أحمد رشدي صالح ، قناة السويس ، ص ٢٥ ٠

٢ ـ أحمد مصطفى صفوت ، انجلترا وقناة السويس ، ص ٤٢ ، ٤٣ ٠ عبد الرؤوف أحمد عمرو ، قناة السويس في العلاقات الدولية ، ص ٣٤ ـ ٣٥ ٠

٣ ـ شونفيلد، هيو، ج ، قناة السويس ، ص ٥٥ ٠

حتى أصبحت انجلترا على وشك الحرب مع فرنسا ٠ واستمر هذا التنازع يتصاعد طوال السنوات التالية حتى توقيع الاتفاق الودي بين فرنسا وانجلترا سنة ١٩٠٤ م(١)

ونتيجة لافتتاح قناة السويس فقد اهتمت الحكومة المصرية بانشاء خطوط بريدية لتربط بين الموانيء ، كما افتتحت مكاتب بريد في كل ميناء على البحر الأحمر ، وأدركت الحكومة أهمية نظام البريد ، فكلفت الشركة العزيزية بتخصيص سفينة تتحرك كل ثلاثاء من السويس إلى جدة ، بينما تقوم أخرى من سواكن ومصوع حاملة البريد الى جدة ومنها الى مصر (٢) ٠

ونتيجة لعودة طريق التجارة العالمية الى البحر الأحمر ، نشطت الحركة في ميناء السويس ، بعد أن أتم بناءه اسماعيل ، وكان سعيد قد بدأ بناءه في سنة ١٨٥٦ م ، وأصلح الطريق بين السويس والقاهرة ، وتم ايصاله بالخط الحديدي السويس ــ القاهرة ــ الاسكندرية ، وبعد مزاولة الشركة المجيدية نشاطها في البحر الأحمر ، وأصبح ميناء السويس هاماً للخطوط الملاحية في البحر الأحمر ، وكانت شركة ديبير الفرنسية قد قامت بتوسيع ميناء السويس واصلاحه ، واقامة حاجز حجري لصد الأمواج وتأمين السفن ، وأنشيء حوض عائم لاصلاح السفن بالميناء كما أنشئت عدة فنارات لهداية السفن ، وبعد افتتاح قناة السويس أصبح للميناء مركز خاص لأنه مدخل القناة التي يربط بين بحرين من أهم البحار ، وساير الميناء حركة السفن في القناة وأخذت الأهمية والعناية تزداد يوماً بعد يوم بازدياد الملاحة في القناة ، كما نشطت الحركة في ميناء القصير على البحر الأحمر ، وهو يواجه قنا على النيل ، وتضيق المنطقة الصحراوية التي تفصل بينهما ٠ ويوصل بين القصير والنيل وديان معروفة ، ولهذا الميناء أهمية خاصة في أوقات الحج ، ويقابل هذا الميناء على الساحل الشرقي للبحر الأحمر ميناء الوجه من ثغور ولاية الحجاز ، وفيه أقيم فنار لهداية السفن، أما ميناء برنيس فيقع قرب رأس لباس على البحر الأحمر وتقابله على النيل تقريباً مدينة أسوان ، وقد اهتمت الحكومة بتعمير الطرق

١ ــ جالينا نيكتينا ، قناة السويس ، ص ٣٦ ٠

٢ ــ شوقي عطا الله الجمل ، البحر الأحمر في سياسة مصر ، ص ١٩ ٠

البحرية التي توصل بين قنا والقصير وبرنيس وسواكن ، وربطت بخطوط تلغرافية
كما اهتمت الحكومة المصرية بميناء سواكن باعتباره ميناء السودان الرئيسى من جهة البحر وعن طريقه يمكن تنظيم اتصال مصر بالسودان . واهتمت الادارة المصرية باصلاح وترميم مرسى السفن بها ، كما اهتمت بربط سواكن بأجزاء السودان الأخرى بخطوط تلغرافية ، وبحث مشروع مد خط حديدي من سواكن إلى بربرة ومنها الى شفرى ، وعندما زادت الحركة في ميناء سواكن عين ضابط بحري لمراقبة السفن وحفظ الأمن وتطبيق القوانين البحرية بالميناء ، وأنشئت المخازن لحفظ البضائع الواردة والصادرة وصيانتها حتى يتم التعرف عليها . كذلك ازدهر ميناء طوكر وميناء عقيق اللذان يقعان جنوب سواكن ، ولما زادت أهمية طوكر كميناء بحري عين لها مأمور خاص (١) . واهتمت حكومة اسماعيل باشا بميناء الاسكندرية ، إذ قامت بتوسيعه واقامة حوض عائم من الحديد سنة ١٨٦٨ م ، وأقيم حاجز ضخم لصيانة السفن والميناء من الأمواج والعواصف ، كما انشئت عدة أرصفة للشحن والتفريغ ، وكان من الأعمال التي ساعدت في تسهيل حركة الملاحة للسفن في البحرين المتوسط والأحمر ، انشاء الفنارات على سواحل البحر الأحمر والبحر المتوسط وخليج عدن ، حتى بلغ عددها خمسة عشر فنارا(٢) .

أما الساحل الجنوبي لشبه الجزيرة العربية فقد استمر يحتل أهمية بعد افتتاح القناة ، وتحول الطريق الرئيسي للملاحة إليها بسبب اشرافه على طريق الهند وسيطرته على المنفذ الجنوبي للبحر الأحمر ، مما جعل انجلترا تحرص على حماية نفوذها فيه ، وبسط حمايتها على جميع أجزائه(٣) ، فميناء عدن ازدادت أهميته مع استخدام السفن البخارية ومع افتتاح قناة السويس ، وكان موضوع حماية الميناء يعتبر من أهم المهام في نظر الانجليز ، ومن ثم عملوا على تقوية منشآته ، وتزويد جزيرة بريم بالمدفعية .

أما الحركة في قناة السويس فقد أخذت في الازدياد سنة بعد أخرى ، فمثلاً في

١ ـ شوقي عطا الله الجمل ، البحر الأحمر في سياسة مصر ، ص ٢٥ ـ ٢٧ .
٢ ـ سيد رجب حراز ، المدخل الى تاريخ مصر الحديث ، ص ٣٥٣ ـ ٣٥٤ .
٣ ـ حسين فوزي النجار ، بريطانيا والجنوب العربي ، ص ٣٧ .

شهر أغسطس سنة ١٨٧١ م عبرت ٦٠ سفينة تحمل ٦٥,٣٧٠ طناً، بينما عبرت في نفس الشهر سنة ١٨٧٢ م ٨٢ سفينة تحمل ٩٥,٢٣٢ طناً، وكانت السفن الانجليزية هي أكبر السفن العابرة ، إذ بلغ عددها ٥٥ سفينة منها ٦ سفن بخارية ، وسفينة واحدة فرنسية عادية و٦ سفن ايطالية منها ٣ سفن بخارية ، و٤ سفن عثمانية و٣ سفن برتغالية ، وسفينتان ألمانيتان ، وسفينة أسبانية ، وسفينة سويدية وأخرى مصرية. ومن ذلك يتبين أن القناة أصبحت ممراً عالمياً وأن أكثر السفن تحمل الجنسية الانجليزية على اعتبار أنها دولة استعمارية وصاحبة أكبر اسطول بحري ، لذلك كان يهمها أمر القناة أكثر من أية دولة أخرى . أما السفن العثمانية الأربع ، فكانت منها ثلاث تابعة للحكومة ، واتجاهاتها من بيروت الى القنفذة ، وأخرى من جدة ـ استانبول ، والثالثة من البصرة ـ استانبول (١) .

وهكذا .. بعودة التجارة العالمية لطريق البحر الأحمر دبت الحياة من جديد في هذا البحر ، وبعودة التجارة العالمية ازدهر هذا البحر وقامت الموانيء الجديدة على شاطئيه الشرقي والغربي ، وازدهرت الموانيء القديمة وازدادت أهميتها ، كميناء جدة وعدن والمخا والسويس ، واهتمت الدول الأوروبية بهذا البحر وأخذت تبحث عن نقاط استراتيجية لتتمركز فيها ، وأصبحت منطقة البحر الأحمر منطقة صراع عالمي ، كما أن عودة التجارة للبحر الأحمر كان لها الأثر الطيب في أوروبا اذ أخذت السلع تنخفض قيمتها الشرائية كما كانت هناك أيضاً حركة انتعاشية في موانيء البحر الأبيض المتوسط .

(١) Suez Canal traffic, August 1827 : (conterued)
Puplic Record Office Ref. .F. O. 195 / 1000 B

أهمية القناة للدولة العثمانية من حيث سياستها العربية

أما أهمية القناة للدولة العثمانية من حيث سياستها العربية ، فينبغي أن نشير هنا بإيجاز إلى أن عمرو بن العاص كان قد استأذن الخليفة عمر بن الخطاب في عام قحط الحجاز ، والمسمى عام الرمادة ، في توصيل البحرين الأحمر والأبيض المتوسط ، فأذن له بإعادة شق الترعة القديمة وسماها خليج أمير المؤمنين ، وجرت فيها سفن الميرة الى الحجاز وظل الحال على ذلك حتى عهد أبي جعفر المنصور العباسي الذي أمر بردمها سنة ١٤٥ هـ الموافق ٧٧٠ م حتى لا تنقل الميرة الى محمد ابن عبد الله بن الحسن الخارج عليه في الحجاز(١) ، توقف بعد ذلك نقل السلع عبر هذه القناة ، وأصبحت التجارة تنقل بالبر الى البحر المتوسط ، وذلك بعد قدومها من الشرق الأقصى عن طريق البحر الأحمر ، واستمر الحال على ذلك حتى تحولت التجارة الى طريق رأس الرجاء الصالح وأقفل طريق البحر الأحمر مما أدى الى كساد التجارة في هذه المنطقة ، بالإضافة الى ركود الحياة فيها ، وقلة النشاط البحري كما أشرنا من قبل ، وضعف سلطان الدولة العثمانية على الجزيرة العربية وعلى الأخص الطرف الغربي منها ، ولذلك يعتبر انشاء قناة السويس سنة ١٨٦٩ م بالنسبة للدولة العثمانية ، حدثاً هاماً بالنسبة لأهمية شبه الجزيرة ولا سيما الحجاز(٢) .

وكان غرب الجزيرة العربية والحجاز له أهمية بالغة بالنسبة للدولة العثمانية على اعتبار الموقع الممتاز خاصة بعد عودة التجارة العالمية اليه ، فوجود اليمن في جنوب غربي شبه الجزيرة العربية جعله منطقة دفاع هامة عن حدود الدولة العثمانية من الجنوب ، وقد أدى هذا الى اقتناع العثمانيين بأن سيطرتهم على اليمن تجعلهم يضمنون سلامة الأماكن الاسلامية المقدسة في الحجاز ، وقد تضاعفت أهمية

---

١ ـ عمر الاسكندري ، وسليم حسن ، تاريخ مصر من الفتح العثماني ، ص ٢٠٩ .
٢ ـ هارولد.ف ، عدن وجنوب اليمن في ملوك العرب ، ص ٧٤ .

موقع اليمن وخطورته بتحول التجارة العالمية الى طريق البحر الأحمر عبر القناة ، أما الحجاز فأهميته تكمن للدولة العثمانية أنه يضم الأراضي المقدسة ، لذلك كان السلطان العثماني أمام أعين المسلمين حامياً للأراضي المقدسة ، ويرون فيه الحاكم المسلم الذي يجب أن يطيع أوامره كل مسلم على وجه البسيطة ، من ذلك تظهر الدولة العثمانية ذات أهمية كبرى تخشاها بقية القوى الكبرى في العالم ، هذا ومن جهة أخرى أرادت الدولة العثمانية أن يكون لها مناطق نفوذ على البحر الأحمر ، الذي أخذت الدول الاستعمارية تزاحم في اقتناء مناطق نفوذ لها في هذه المنطقة الحيوية من العالم ، أعني البحر الأحمر .

وكان افتتاح القناة وازدهار الحياة الاقتصادية في موانئه ، وخصوصا الموانىء الغربية سبباً في أن الدولة العثمانية أخذت تستفيد من الرسوم التي كانت عائدة من وقوف السفن في تلك الموانىء ، ثم وجهت الدولة العثمانية بعد ذلك اهتمامها للبحر الأحمر ، الذي أصبح أهم طريق للمواصلات بين الشرق والغرب ، والى مناطق الجزيرة العربية المطلة على هذا البحر ، وخاصة اليمن التي تشرف على مضيق باب المندب في جنوبه ، وقد أكدت قناة السويس للعثمانيين ضرورة إعادة فرض سيطرتهم الفعلية على اليمن بعد أن تضاعفت أهمية موقعها وخطورتها أثر تحول التجارة العالمية الى طريق القناة ، بل أن هذا الممر البحري الجديد يسر للأسطول العثماني العبور إلى البحر الأحمر والخليج العربي ، ووصل ميناء الآستانة بموانىء الجزيرة العربية مباشرة ، وبذلك سهلت عمليات توصيل القوات والامدادات العسكرية في أقصر وقت ممكن الى بلدان الجزيرة العربية(١) ، كما ساعدت قناة السويس العثمانيين على تدبير الشؤون العربية عن كثب ، وذلك انطلاقاً من قاعدتهم بالحجاز ، حيث رتبوا خططهم للتغلب على اليمن وعسير(٢) ، كما كان فتح القناة عاملاً هاماً ، أعان الدولة العثمانية على تشديد قبضتها على شؤون الحجاز والتدخل المستمر في شؤون الشرافة ، اذ أن الافتتاح كما أوضحنا أوجد طريقاً مائياً مباشراً بين الآستانة وكل من الحجاز واليمن ، وهما من الولا يات

---

١ ـ فاروق أباظه ، الحكم العثماني في اليمن ، ص ٨٣ .

٢ ـ هارولد . ف ، عدن وجنوب اليمن في ملوك العرب ، ص ١٦ .

العثمانية الواقعة على الساحل الشرقي للبحر الأحمر ، كما زادت قدرة الدولة من بسط وتأكيد سيطرتها على الأجزاء الغربية من شبه الجزيرة العربية ، وكان الموقف العسكري قبل فتح القناة صعباً ، لأن الدولة العثمانية كانت تستخدم الطريق البري لتسلكه قواتها المسلحة عبر الصحراء الى الحجاز وعسير ، وكانت هذه القوات تصل في حالة إعياء شديد، بعد أن تكون قد فقدت الكثير من الضحايا بسبب الأهوال التي تلاقيها أثناء السير عبر الصحارى والفيافي الطويلة ، وكانت في بعض الأحيان تصل متأخرة وبعد فوات الأوان ، لكن بافتتاح القناة تبدل الأمر وأصبح في وسع الدولة أن ترسل بحراً ومباشرة حاميات عسكرية جديدة الى الحجاز ومؤناً وامدادات عسكرية الى جيوشها باليمن ، وعلى ذلك فإن فتح القناة أدى إلى دعم سيطرة الدولة على إقليم الحجاز(١) .

وقد رأينا فيما سبق كيف كان السلطان العثماني يستعين بالوالى المصري في ارسال القوات الى اليمن التي كان يعدها في ميناء السويس ، وكانت الدولة العثمانية قد لجأت الى والي مصر اسماعيل للاستعانة في اخماد ثورة العسيريين ضد العثمانيين في اليمن ، حتى لا تخرج عسير نهائياً عن حظيرة الدولة العثمانية ، وأعد الوالي العثماني في مصر حملة قوامها ٥٤٤٤ مقاتلاً وأبحرت هذه القوة من ميناء السويس في ٣ يونية سنة ١٨٦٤ ، متجهة الى جدة ومنها الى شمال اليمن ، وتشبه هذه الحركة استعانة السلطان العثماني بمحمد على للتصدي لدعوة التوحيد والإصلاح(٢) .

ولكن بعد افتتاح القناة يستطيع السلطان العثماني ارسال قواته من العاصمة الآستانة دون الاستعانة بالوالي المصري أو غيره ، كما حدث في الفتح العثماني الثاني لليمن سنة ١٨٧٢ م ، وبعبارة أخرى فقد كان فتح القناة للملاحة العالمية عاملاً هاماً في سهولة وسرعة الاتصال بين الآستانة والحجاز واليمن وهما من الممتلكات العثمانية ، ولأول مرة تتصل الحكومة اتصالاً بحرياً مباشراً بهاتين

---

١ ــ فائق بكر صواف ، العلاقات بين الدولة العثمانية واقليم الحجاز ، ص ٩٤ .
٢ ــ فاروق أباظه ، الحكم العثماني في اليمن ، ص ٧٠ .

الولا يتين العربيتين ، وهما الحجاز واليمن ، وأصبح في مقدور حجيج تركيا استخدام السفن في السفر من الموانيء التركية الى موانيء الحجاز مباشرة(١)٠

هذا وقد أثر افتتاح قناة السويس على الدولة من ناحية أخرى ، اذ أنه عندما استوى السلطان عبد العزيز على عرش السلطنة (١٨٦١ ـ ١٨٧٦ م) زاد الاهتمام بالبحرية ، فأصلح دار صناعة السفن ، وأنشأ لها حوضاً عائماً ، وفتح مدرسة للفنون البحرية ، كما تعاقد مع عدد من معامل أوروبا على صناعة مجموعة من السفن البحرية الحديثة بالاضافة الى ما كانت تصنعه دار الصناعة في الآستانة ، على أن هذا الاهتمام لم يستمر في عهد السلطان عبد الحميد (١٨٧٦ ـ ١٩٠٨ م) ، ويقال أنه تأثر حين شاهد أن هذه القوات شاركت في الخروج على عمه عبد العزيز يوم خلعه وحاصرت قصره من ناحية البحر ، لذلك أهمل الأسطول ، وجعل مقره بعيداً عن البحر في بلديز ، كما حظر على هذه السفن الخروج للمناورات ، ولم يسمح بإنشاء غير طرادين وعدد من النسافات ، كلفت الخزينة الكثير(٢) ٠

وقد أدرك السلطان عبد العزيز أهمية القناة وذلك أثناء الحفر وقبل الافتتاح ، فزار مصر ليؤكد مجدداً سلطة الدولة العثمانية على هذا الاقليم ، وكانت الزيارة في شهر أبريل سنة ١٨٦٣ م (شوال سنة ١٢٧٩ هـ) ٠

ونزل بالاسكندرية ، ثم ذهب إلى القاهرة ، ونزل في ضيافة الخديوي اسماعيل عشرة أيام لقي فيها الحفاوة البالغة مما جعل لاسماعيل منزلة كبيرة عنده ٠ وكان السلطان عبد العزيز هو السلطان العثماني الذي جاء مصر زائراً بعد السلطان سليم الذي دخلها فاتحاً ، ولذلك كانت هذه الزيارة تكريماً وتعظيماً لشأن اسماعيل الذي اغتنم الفرصة واستغل المنزلة التي نالها ليكسب من الدولة العثمانية حقوقاً ومزايا جديدة ، واستخدم المال وبذله بسخاء ، فغمر السلطان وحاشيته بالهدايا

١ ـ فائق بكر صواف ، العلاقات بين الدولة العثمانية واقليم الحجاز ، ص ١٠٥ ٠

٢ ـ محمد جميل بيهم ، فلسفة التاريخ العثماني ، ص ١٤٦ ٠

والتحف الفاخرة . وملأ سفينة بأكملها وقدم الهدايا الى الأعظم فؤاد باشا ليتخذ منه عونا له في مساعيه لدى الحكومة العثمانية . وعاد السلطان عبد العزيز من زيارته مغتبطاً مما لقيه من الإكرام . ومهدت الزيارة الطريق أمام اسماعيل لنيل رغباته(١) . وكان السلطان عبد العزيز يريد ارضاء اسماعيل وذلك من خلال الامتيازات الممنوحة له بموجب فرمانات . خوفاً من انسلاخ هذا الاقليم من الدولة والذي سيصبح في المستقبل طريقاً هاماً للولايات العثمانية في الجـزيرة العربية .

على أن سلطة الدولة العثمانية في شبه الجزيرة العربية لم تقو الا في سنة ١٨٧٠ م وقد مهدت لذلك عوامل مختلفة لأن فتح قناة السويس سهل للأسطول العثماني الالتفاف حول شبه الجزيرة العربية للوصول الى الخليج العربي(٢) .

وبفضل التسهيلات التي أتاحتها قناة السويس . تمكنت الدولة العثمانية كما ذكرت سابقاً من ارسال قوات كبيرة الى اليمن لاستعادة نفوذها فيه واقامة حكم عثماني فعال . واذا قارنا بين الحملة التي أرسلت في سنة ١٨٤٩ م أي قبل افتتاح القناة . وبين الحملات التي تلت افتتاح القناة فإننا نجد الفارق الهائل الذي يوضح أهمية القناة . فحملة سنة ١٨٧٢ م كان عددها أكبر من سابقاتها(٣) وكان على رأسها القائد أحمد مختار . الذي جهز بجيش كامل يعرف بالفيلق السابع لاعادة السيطرة على اليمن(٤) . لأن الدولة العثمانية كانت مقسمة الى سبع مناطق عسكرية وكان في كل منطقة منها جيش يسمى بالأوردى أو الفيلق . ويتكون الفيلق من أربع فرق . وثمانية لواءات. و١٦ آلايا، و٦٤أورطة . ٢٥٦ بلوكا . وكل فيلق من هذه الفيالق ماعدا السابع يتكون من جنود منتظمة يتمركزون زمن الحرب .

---

١ ـ عبد الرحمن الرافعي بك . عصر اسماعيل . جـ ١ . ص ٧٨ ـ ٧٩ .

٢ ـ د. صلاح العقاد . التيارات السياسية في الخليج . ص ١٨٣ .

٣ ـ جورج أنطونيوس . يقظة العرب . ص ١٣٣ .

٤ ـ محمد يحيى الحداد . تاريخ اليمن السياسي . ص ٣٥٠ .

وذلك مثله مثل الجيش الاحتياطي الاستراتيجي ، ويشتمل كل فيلق على جيش نظامي وآخرين من الرديف ، ورابع من المستحفظين ، وفي زمن السلم يكون بكل جهة من جهات الفيالق المذكورة جيش من النظاميين « أي الجند المنظمة »

وأربع فرق من بيادة الرديف ، وما عدا هذه الأوردیات ـ الفيالق ـ السبعة ، فان بلاد كريت وطرابلس الغرب ، والحجاز ، تحتلها جنود عديدة ليست داخلة ضمن الفيالق السبعة ، وكل فيلق يشتمل أيضاً على فرقتين من المرتجلين بكل واحدة أورطة ، وأربعة آلايات من الرجال ، وفرقة من السواري بها ستة آليات ، وفرقة من الطوبجية وتشتمل على عدة بطاريات راكبة ، وستة آلاليات ، مكونة لثلاثة لواءات وأورطة مهندسين حربية وبلوك للبرقيات(١) ٠

وقد سبق أن أشرنا الى أن الحملات العسكرية التي ارسلت لاخضاع عسير واليمن قبل افتتاح القناة كان يستعان فيها بالخديوي في مصر أو بالشريف بمكة في اعدادها وتموينها ، وقد مر بنا ذلك في الفصل الأولى على أنه منذ سنة ١٨٧٠ م

فصاعداً ، أصبح في وسع الدولة العثمانية أن ترسل على عجل المؤن والامدادات العسكرية الى جيوشها باليمن عبر قناة السويس ، ويؤكد صحة ذلك أنه في سنة ١٨٧٢ م استطاع العثمانيون أن يغزوا اليمن من جديد دون مساعدة شريف مكة ،

ودون الاعتماد كلية على الوالي في مصر ، كذلك ساعدت قناة السويس الدولة العثمانية في محاولاتها القضاء على مساويء الادارة العثمانية في اليمن وتطبيق القانون الصادر في سنة ١٨٦٤ م بشأن تنظيم حكم الولايات ·· كما قربت قناة السويس المسافة بين الساحل الغربي لشبه الجزيرة وبين الآستانة فشجعهم ذلك على محاولة تشديد قبضتهم على الحجاز واليمن(٢) ، كذلك جهزت الدولة العثمانية حملة

---

١ ـ اسماعيل سرهنك ، حقائق الأخبار عن دول البحار ، ص ٧٦٧ ، ٧٦٨ ٠

٢ ـ سيد رجب حراز ، الدولة العثمانية وشبه الجزيرة العربية ، ص ١١٤ ، ٨٥ ٠

عسكرية قوامها عشرون ألف جندي ، تحملها السفن الحربية بقيادة محمد رديف باشا ، وأحمد مختار باشا ، وذلك عندما غار الأمير العسيري محمد بن عائض على الحامية العثمانية بالحديدة ، كما قامت قواته بأعمال وحشية ضد الأهالى في تهامة اليمن ، ووصل رديف باشا القنفذة ، أحد الموانىء في غرب شبه الجزيرة العربية ، وأخذ في الاستعداد للوثوب على الأهلين في عسير ، ثم باشر عمله في عسير ، حتى أقر الأمن فيها وقمع الفتنة(١) . ويلاحظ هنا مدى استفادة الدولة العثمانية من قناة السويس في سرعة إخماد الفتن والاضطرابات ، التي تقوم في أجزاء الدولة ، وقامت هذه الحملة سنة ١٨٧٢ م ووصلت القنفذة في سنة ١٢٨٨ هـ .

الا أنه يلاحظ منذ بداية التدخل العثماني في منطقة جنوب الجزيرة في سبعينات القرن التاسع عشر أن أصبح النفوذ الانجليزي مهدداً تهديداً خطيراً ، مما جعل انجلترا تعمل على تغيير المعاهدات الولائية إلى حمايات فرضتها على الرؤساء العرب لإبعاد النفوذ العثماني عن عدن(٢) .

أما عن اهتمام الحكومة المصرية بشؤون البحرية على أثر بناء قناة السويس فقد كان سعيد باشا عازماً على اصلاح البحرية ، الا أن انجلترا كان يهمها ألا تنهض قوات مصر البحرية ، فسعت لدى الدولة العثمانية لتمنع تجديد الأسطول المصري ، وأوهمت السلطان أن تقوية الأسطول المصري فيه تهديد للعثمانيين وسيادتهم على مصر ، فأصدر السلطان أمره لسعيد بألا يقوم باصلاح سفن الأسطول وألا ينشيء ولا يشتري سفناً جديدة الا بأمره ، وكانت انجلترا تهدف من وراء ذلك ألاّ يكون هناك منافس لسيادتها البحرية في البحر المتوسط والبحر الأحمر ، لذلك سعت الى وقف نشاط مصر البحري(٣) . إلا أن الخديوي اسماعيل قام بتزويد البحرية المصرية بسفن حربية مدرعة ، عن طريق تعاقده مع شركة فرنسية على ثلاث سفن ، وتعاقده مع النمسا على سفينتين ، لكن انجلترا كما رأينا كان من سياستها إضعاف قوة مصر البحرية والحربية وذلك لضمان السيادة في البحرين الأحمر والمتوسط ولتنفذ سياستها الاستعمارية المرسومة في هذه المناطق ، فلم تظهر

---

١ ـ هاشم سعيد ، تاريخ عسير ، ص ٢٠٩ .

٢ ـ جاد طه ، سياسة بريطانيا في جنوب اليمن ، ص ٣٥٤ ـ ٣٥٥ .

٣ ـ شوقي عطا الله الجمل ، سياسة مصر في البحر الأحمر ، ص ٥٠ .

لهذه الجهود المبذولة لاحياء البحرية المصرية بعين الارتياح ، فلجأت للطريقة التقليدية في إثارة مخاوف الدولة العثمانية من جهود اسماعيل هذه ، وأوعزت إلى السلطان بأن يقف في وجه هذه الجهود والحد منها ، وتذرعت الدولة لذلك بأن الفرمانات لا تبيح لمصر انشاء سفن حربية مدرعة دون اذن سابق من السلطان ، وقامت أزمة بين السلطان والخديوي الا أن هذه الأزمة حلت ، وذلك بأن ابتاعت الدولة العثمانية لنفسها هذه السفن المدرعة .

وقام الاسطول المصري برحلات منتظمة في البحر الأحمر ، فساد الأمن والسلام مياهه ، بعد أن كانت الأخطار تسود فيه ، كما دب العمران وانتشرت مظاهر الرخاء والتطور في موانيء افريقيا الشرقية التي أصبحت متصلة ببلدان العالم بعد أن كانت تكاد تكون في عزلة تامة، وأدى هذا الى ازدهار التجارة ونشاط الزراعة وغيرها من مواد الثروة في هذه الجهات(١) . وفي أواسط ذي الحجة سنة ١٢٨١ هـ (مايو سنة ١٨٦٥ م) أصدر السلطان عبد العزيز فرماناً باحالة ميناء سواكن وميناء مصوع للادارة المصرية على أن تورد مصر لخزينة جدة ٢٥٠٠ جنيه عثماني سنوياً الا أن هذا الفرمان عدّل فيما بعد ضمن فرمان تغيير الوراثة الصادر في محرم سنة ١٢٨٣ هـ الموافق سنة ١٨٦٧ م فجعلت الإحالة وراثية ونص على أن تنتقل ولاية مصر مع ما هو تابع لها من الأراضي ، وكامل ملحقاتها ، وقائمقامية سواكن ومصوع إلى أكبر أولاد الخديوي بطريقة التوارث ، وبالصورة نفسها إلى أكبر أولاد ذريته ،

وبعد أن استقرت الأمور لمصر في مصوع وسواكن ، شكلت منها ومن الأقاليم السودانية المطلة على البحر الأحمر بالاضافة الى مديرية التاكة ، محافظة جديدة عرفت باسم محافظة سواحل البحر الأحمر ، وعين أحمد مختار باشا مديراً لشرقي السودان ، ومحافظة البحر الأحمر ، إلا أن ادارة هذه الأقاليم لم تستقر على وتيرة واحدة ، ففى سنة ١٢٨٨ هـ / ١٨٧١ م ألغيت حكمدارية السودان ومحافظة سواحل البحر الأحمر ، ثم تقسيم السودان الى مديريات ومحافظات مستقلة ، على أنه أعيد توحيد ادارة محافظتي مصوع وسواكن في محرم سنة ١٢٨٩ هـ / ١٨٧٢ م (٢) نظراً لازدياد أهميتهما بعد افتتاح قناة السويس .

---

١ ـ شوقي عطا الله الجمل ، سياسة مصر في البحر الأحمر ، ص ٢٢ .
٢ ـ المصدر السابق ص ١٢ .

وبعد الافتتاح رأت الدولة العثمانية فائدة قناة السويس وخشيت من انسلاخ مصر ، هذا الاقليم الحيوي من جسم الدولة ، فأصدرت فرماناً في ٢٩ نوفمبر سنة ١٨٦٩ م « وهو الذي أكد حقوق السيادة العثمانية على الخديوية المصرية وبالصورة التي رسمتها ١٨٤٠ ـ ١٨٤١ م ، وأعاد فيه السلطان ذكر المسائل التي قبلها اسماعيل بشأن تحديد عدد السفن الحربية والعلاقات الخارجية ، وأكد عليه ضرورة استخدام موارد البلاد لخدمة مصالحها الحقيقية ، ومعاملة الرعايا المصريين بالعدل والإنصاف وألا تجبى ضرائب جديدة من غير حاجة شرعية تامة ، وألا يعقد فرض الا بعد موافقة السلطان(١) »٠ولعلنا نذكر تلك الاحتفالات التي أقامها الخديوي اسماعيل بمناسبة افتتاح القناة ليكسب لنفسه استقلالا ذاتياً عن الدولة ٠ وهنا شعرت الدولة العثمانية بهذه الحركة فأصدرت هذا الفرمان حتى يقف عند حده ، وألا يتكرر منه ذلك في المستقبل ، كل هذا بدافع حرص الدولة العثمانية على سيادتها كاملة ، ليحقق لها السيادة الكاملة على القناة ، وكان فرديناند دي لسبس عندما فكر في أن تباع الشركة للدول البحرية الأوربية عندما وقفت أمامه الصعوبات المادية والخسارة التي واجهتها الشركة في السنوات الأولى ليضمن دولية وحيادة القناة ، لم توافق الحكومة العثمانية على ذلك ، وما كانت لتصمت أبداً لمثل هذه المشاريع التي تتعارض بطبيعة الحال مع حقوق سيادتها ، فشركة القناة شركة مصرية خاضعة للقوانين العثمانية(٢) ٠

وفي الحرب الروسية التركية سنة ١٨٧٧ م أرسلت بريطانيا إلى روسيا في ٦ مايو سنة ١٨٧٧ م تبلغها أن ، « كل محاولة لحصر القناة أو النواحي المجاورة لها أو تعطيلها بأي شكل فإن الحكومة البريطانية تعتبر ذلك تهديداً للهند واضراراً جسيماً بتجارة العالم ، وأن كل عمل من هذا القبيل يتعارض مع احتفاظها بموقف الحياد السلبي » وقد استجابت روسيا لذلك ، كما أرسلت بريطانيا مذكرة مماثلة إلى كل من الباب العالي والخديوي وشركة القناة ، وقد أجابت الدولة العثمانية بأنها تؤيد حرية المرور بقناة السويس لجميع سفن الدول المحايدة ، ولكنها في

---

١ ـ د٠ سيد رجب حراز ، المدخل الى تاريخ مصر الحديث ، ص ٣٦٥ ٠

٢ ـ محمد مصطفى صفوت ، انجلترا وقناة السويس ، ص ٤٥ ٠

الوقت نفسه تعتبر القناة جزءاً من ممتلكاتها لا يوضع بأي شكل تحت نظام الحياد ، واستناداً لهذا لن تسمح للسفن المعادية بدخولها ، واحتفظت السلطات العثمانية بحقها الكامل في القبض على السفن الروسية التي تدخل القناة(١) ٠ وأكدت الدولة العثمانية بعد ذلك أحقية استعمال القناة في أوقات الحرب وأنها جزء لا يتجزأ من ممتلكات الدولة العثمانية ، وكان ذلك على الصعيد الدولي في اتفاقية ٢٩ اكتوبر سنة ١٨٨٨ م والخاصة بحرية الملاحة في قناة السويس ، ومن أهم البنود التي عنيت بهذا الحق المادة الرابعة من الاتفاقية التي جاء فيها:« بما أن القناة البحرية تظل في زمن الحرب طريقاً حراً ولو كان ذلك لمرور السفن الحربية التابعة للدول المتحاربة عملاً بالمادة الأولى من هذه الاتفاقية ، فقد اتفقت الدول المتعاقدة على عدم استعمال أي حق من حقوق الحرب ، أو اتيان أي فعل عدائي أو أي عمل من شأنه لتعطيل حرية الملاحة في القناة ، أو في الموانيء الموصلة إليها ، أو في دائرة نصف قطرها ثلاثة أميال بحرية من هذه الموانيء حتى لو كانت الدولة العثمانية احدى الدول المتحاربة ، ويمتنع على البوارج الحربية للدول المتحاربة أن تباشر داخل القناة أو في الموانيء المؤدية إليها عمليات التموين أو التخزين إلا بالقدر الضروري جداً ، ويتم مرور السفن المذكورة في أقصر وقت ممكن وفقاً للأنظمة المعمول بها ، ولا يجوز لها الوقوف إلا لضرورة قضت بها مصلحة العمل ، ولا يجوز أن تزيد مدة بقائها في بورسعيد أو في خليج السويس على ٢٤ ساعة فقط في حالة التوقف الجبري ، وفي الحال عليها الرحيل في أقرب فرصة ممكنة ، ويجب أن تمضي ٢٤ ساعة بين خروج سفينة متحاربة من أحد موانيء الدخول وبين قيام سفينة أخرى تابعة للدول المعادية(٢)»، ومن خلال هذه المادة يتبين أن الدولة العثمانية وبقية الدول المشاركة في هذه الاتفاقية ، قد حافظت على سلامة الموانيء المؤدية اليها عمليات التموين ، كما حافظت على أملاك الدولة العثمانية ، بضمانات مختلفة من حيث الزمن والمكان ، فمن ناحية الزمن حددت ٢٤ ساعة مدة توقف السفن المتحاربة في موانيء بورسعيد والسويس التابعة للدول العثمانية وذلك في حالة الضرورة ، ومسافة قدرها ثلاثة أميال بحرية يضمن سلامة أمن المواني ٠

---

١ ــ الدراسات الثقافية ، قناة السويس ، ماضيها وحاضرها ، ص ٢٣ ٠

٢ ــ بطرس بطرس غالى ، يوسف شلالة ، قناة السويس ومشكلاتها ، ص ١٣ ٠

ونصت المادة الثامنة ، « وعلى كل حال يجتمع المندوبون مرة في السنة للتثبت من تنفيذ المعاهدة تنفيذاً حسناً ، وتعقد هذه الاجتماعات الأخيرة برياسة مندوب خاص تعينه حكومة السلطة العثمانية لهذا الفرض · ويجوز أيضاً لمندوب الحضرة الخديوية حضور الاجتماع كذلك ، وتكون له الرياسة في حالة غياب المندوب العثماني ، ويحق للمندوبين المذكورين المطالبة بنوع خاص بإزالة كل عمل ، أو فض كل اجتماع على ضفتي القناة من شأنه أن يمس حرية الملاحة وضمان سلامتها (١) » ·

وهنا أيضاً كسبت الدولة العثمانية بموجب هذا البند امتيازاً خاصاً ، وذلك في ترأس الاجتماعات السنوية للتثبت من تنفيذ الاتفاقية ويأتي بعده في الأفضلية الخديوي ، على اعتبار أن القناة جزء من الدولة لضمان سلامة الأراضي العثمانية ، كما نصت المادة التاسعة ، « تتخذ الحكومة المصرية في حدود سلطتها المستمدة من الفرمانات والشروط المقررة في المعاهدة الحالية ، التدابير الضرورية لتنفيذ المعاهدة ، وفي حالة عدم توفر الوسائل الكافية لدى الحكومة المصرية ، يجب عليها أن تستعين بحكومة الدولة العثمانية التى يكون عليها اتخاذ التدابير اللازمة لاجابة هذا النداء ·· »(٢) ، وبموجب هذه المادة ، اعتبرت الدول مصر تابعة للدول العثمانية التي بموجبها تضع التدابير الضرورية في تنفيذ هذه المعاهدة من وسائل دفاعية للقناة ، ومما لا شك فيه أن الدولة هنا لديها مكاسب مادية وأخرى معنوية ، فمبدأ استعانة حكومة مصر بالدولة العثمانية في وضع التدابير للتنفيذ دون أية دولة أخرى ، معناه الارتباط الكامل لمصر التي تجري القناة في أرضها بالدولة العثمانية فهو بذلك يعد مكسباً معنوياً ، يؤكد سيادة الدولة العثمانية على هذا الاقليم،أما من الناحية المادية فهو استفادة الدولة من الرسوم العائدة من مرور السفن وتأكيد ذلك جاء بموجب قرارات هذه المعاهدة ، كما نصت المادة العاشرة من اتفاقية سنة ١٨٨٨ م الخاصة بحرية مرور السفن في قناة السويس ، « ···· لا تتعارض في أحكام المواد ٤ ، ٥ ، ٧ ، ٨ مع التدابير التي قد يرى عظمة السلطان وسمو الخديوي

---

١ ــ عبد العزيز الشناوي وجلال يحيى ، وثائق ونصوص التاريخ الحديث والمعاصر ص ٦٦٣ ·

٢ ــ بطرس بطرس غالى ويوسف شلالة ، قناة السويس ومشكلاتها ، ص ١٤ ·

اتخاذها في حدود الفرمانات المخولة ، ليضمنا بواسطة قواتهما في حدود الفرمانات الممنوحة ، الدفاع عن مصر وصيانة الأمن العام ، واذا رأى صاحب العظمة السلطان أو سمو الخديوي ضرورة استعمال الحقوق الاستثنائية بهذه المادة ، فإنه يجب على حكومة الدولة العثمانية أن تخطر بذلك الدول الموقعة على تصريح لندن » ·

ومن المتفق عليه أيضاً أن أحكام المواد الأربع المذكورة لا تتعارض اطلاقاً مع التدابير التي ترى حكومة الدولة العثمانية ضرورة اتخاذها لكي تضمن بواسطة قواتها الخاصة الدفاع عن ممتلكاتها الواقعة على شرقي البحر الأحمر ·· (١) وكان مندوب الدولة العثمانية قد اقترح قبل اقرار هذه المادة النص الآتي : « للباب العالى مطلق الحق في اتخاذ كل الوسائل الضرورية للدفاع عن الإقليم » ثم عاد فاقترح النص الآتي : « لا تعطل مواد المعاهدة حقوق الباب العالى في اتخاذ الوسائل والاجراءات التي يراها ضرورية للدفاع عن مصر» والنصان في عمومهما يشملان الحصر البحري والزيارة والتفتيش ، ولم تعترف الدول على اطلاق النص على الحق في اتخاذ كافة الاجراءات الضرورية للدفاع عن مصر ـ ومنها الحصر البحري ـ وإن كان بعضها كايطاليا ، قد لاحظ أن الصياغة الأخيرة تعلق حق مصر في الدفاع عن نفسها على ادارة الحكومة العثمانية ، واقترح لتلافي ذلك أن يقرر الحق لحكومة مصر ذاتها(٢) ، وأعفت المادة العاشرة الدولة العثمانية من قيود عسكرية خاصة بهذه الاتفاقية ، وذلك عندما يكون الأمر متعلقاً بقيام قواتها المسلحة بالدفاع عن الحجاز أو اليمن وهما من ولايات الدولة وكانت هذه القيود قد وضعت أصلاً لتلتزم بها الدول المتحاربة ، ضمانا لحرية الملاحة في قناة السويس ، هذا وملكية مصر للقناة وسيادتها عليها هي المبرر الشرعي للاستثناءات التي تقررت لمصلحتها والتي تبيح لها توقيف بعض مواد الاتفاقية ·· كما أن هناك استثناءات للدولة ذاتها تحققت في المادة الثانية عشرة التي جاء فيها : « ····· قد اتفقت على ألا يجوز لاحداها الحصول على مزايا اقليمية أو تجارية أو امتيازات في الاتفاقات الدولية التي تبرم

---

١ ـ عبد العزيز الشناوي وجلال يحيى ، وثائق ونصوص التاريخ الحديث والمعاصر ، ص ٦٦٤ ·
٢ ـ الدراسات الثقافية ، قناة السويس ، ماضيها وحاضرها ، ص ٣٣ ·

مستقبلاً فيما يتعلق بالقناة ، ويحتفظ في جميع الأحوال بحقوق تركيا كدولة ذات سيادة اقليمية »(١) ٠

وهكذا كان اهتمام الدولة العثمانية بالقناة كما رأينا ادراكاً منها أن القناة هي أهم العوامل من حيث تحقيق سياستها العربية ، ولأن هذا الممر البحري الجديد من شأنه تيسير عبور الأساطيل العثمانية ، ووصل ميناء الآستانة بموانىء الجزيرة العربية مباشرة وبذلك تسهل عملية توصيل القوات والامدادات العسكرية في أقصر وقت ممكن ، كما يسر هذا الممر للدولة الوقوف عن كثب على أمور هذا الجزء ، وسوف نرى أن الدولة استطاعت بعد افتتاح قناة السويس أن تقيم حكماً على هذه المناطق وأقصد بها غرب الجزيرة كان أكثر فعالية من ذي قبل ٠



---

١ – بطرس غالي ، ويوسف شلالة، قناة السويس ومشكلاتها ، ص ١٥ ٠

الفصل الثالث

جهود الدولة العثمانية لتأمين الحجاز بعد افتتاح القناة

أ - إخماد القلاقل في عسير ١٢٨٩هـ - ١٨٧٢م.

ب - الفتح الثاني لليمن ١٢٨٩هـ - ١٨٧٢م.

ج - محاولة استعادة نفوذ الدولة العثمانية في عدن.



إخماد القلاقل في عسير ١٢٨٩هـ - ١٨٧٢م

كان الأمير محمد بن عائض في مطلع ١٢٨٨ هـ الموافق سنة ١٨٧١ م في أوج عزه ، اذ كان الأمن يروج في جميع بلاده ، وأخذت هيبته تدب في قلوب أهل ولايته ، فقدموا له فروض الطاعة ، الا أن تهامة اليمن التى كانت تحت النفوذ العثمانى المباشر في ذلك المخلاف السليماني صارت على عكس بلاد عسير ، اذ ضاق الأهالى من الحكم العثماني المباشر ، مما أدى الى تدهور حالة الأمن وترديه ، وانتشار الفساد ، مما جعل بعض أعيان البلاد يتجهون الى أمير عسير طالبين منه التدخل لانقاذ بلادهم من العثمانيين فاستجاب لذلك حاكم عسير ، ورأى في ذلك الفرصة لتحقيق رغباته التوسعية بضم تهامة اليمن والمخلاف السليمانى وطرد العثمانيين منها ، (١) وفي سنة ١٢٨٨ هـ (١٨٧١ م) توجه الأمير محمد بن عائض على رأس جيش كبير واستولى أولاً على المخلاف السليماني واستطاع أن يطرد الحاميات العثمانية ويجبرها على الرحيل بحراً الى الحديدة التى كانت مركزاً لتجمع القوات العثمانية في اليمن ، ثم تقدم بعد ذلك الى تهامة اليمن ، وأخذ يعبث في أرجائها سلباً ونهباً وقتلاً ، واستولى على مدينة الحديدة ، ويقال ان طلائعه وصلت الى مخا ، وارتكب جنده الكثير من الفظائع إلا أن العثمانيين استطاعوا أن يجمعوا شملهم من جديد فكروا على محمد بن عائض وهزموه ، فارتد بعد ذلك منهزماً ، وارتكب أثناء عملية التراجع الفظائع والمنكرات إلى أن وصل مدينة أبى عريش ، وأقام عليها لاحق الزيداني على رأس حامية عسكرية (٢) .. وكان محمد بن عائض قد استولى قبل ذلك على بلاد بنى شهر وغامد وزهران .. وهذه البلاد تابعة للاشراف في مكة ، وبذلك يكون ابن عائض قد نقض العهود والصلح

١ ـ النعيمي ، تاريخ عسير ، ص ٢٠٨ .
٢ ـ العقيلى ، تاريخ المخلاف السليمانى ، ص ٥٦٥ .

الذى عقده مع الدولة العثمانية (١) . وهكذا يخرج ابن عائض للمرة الثانية عن طاعة الدولة . واشتكى من أعماله كثير من مشايخ تلك النواحى . لذلك رأت الدولة لزوم ارسال الجنود لتمكين دعائم الحكومة العثمانية . وما أن وصلت أخبار غارة الجيش العسيرى على تهامة إلى الآستانة حتى أرسلت الجيوش لقتاله في نفس السنة . وذلك لابقاء اليمن تابعة للدولة العثمانية . وسيرت الدولة فرقتين أحداهما من الآستانة الى بلاد اليمن لحرب عسير . والثانية من بغداد عن طريق نجد (٢)

وكانت فرقة الاستانة تحت قيادة الفريق محمد رديف باشا ومعه أحمد مختار باشا رئيساً لأركان الحرب (٣) . وكانت هذه الفرقة العسكرية يزيد عددها على ستة آلاف مزودين بالمدافع (٤) . وقيل أن هذه الحملة كان تعدادها عشرين ألف جندى . وكانت هذه الفرقة على تمام الاستعداد (٥) . وجدير بالذكر أن مصر ـ بناء على تكليف من الباب العالي ـ تكفلت بارسال المؤن اللازمة من أرز وسمن وسكر للقوات العثمانية . وقد ثبت ذلك من الخطاب الذى أرسله خديوى مصر الى الباب العالى في ١٨ ذى القعدة سنة ١٢٨٧ هـ يخبره بوصول مكاتبته التى يطلب فيها ارسال خمسمائة ألف أقة سكر لأجل الفرقة العسكرية الشاهانية التى أرسلت الى الحجاز واليمن . ويرد عليه بأنه أصدر الأوامر المؤكدة المشددة للمختصين باعداد وتجهيز الكميات المذكورة وارسال نصفها الى ميناء الحديدة . والنصف الآخر الى الأمكنة التى خصصها سعادة رديف باشا . وأضاف في الختام : « أما أثمان هذه الأشياء ومصاريفها فسيرسل بها كشف فيما بعد » ثم يعرض استعداده لتلبية أى طلب (٦) . أما عن الدور الذى قامت به حملة رديف باشا الذى وصل الى ميناء القنفذة مباشرة فهنا يتضح أثر القناة إذ أصبح باستطاعة الدولة أن ترسل قواتها في أى وقت دون مساعدة مصر أو الأشراف في الحجاز . وذلك على عكس ماكان عليه

---

١ ـ ابن دحلان . خلاصة الكلام عن أمراء بيت الله الحرام . ص ٣٢٥ .

٢ ـ لم تذكر المراجع عن الفرقـة الثانية والقادمة عن طريق نجد من بغداد . بل انفرد بذكرها اسماعيل سرهينك . (٣) اسماعيل سرهينك . حقائق الأخبار عن دول البحار ص ٧١٣ .

٤ ـ فاروق أباظة . الحكم العثماني لليمن ص ٧٧ .

٥ ـ النعيمي . تاريخ عسير . ص ٢٠٩

٦ ـ سجل ٢٤ عابدين . الوثيقة رقم ١٢٧٢ . شوقى عطا الله الجمل . الوثائق التاريخية لسياسة مصر في البحر الأحمر . ص ٤٣١ .

الأمر قبل ذلك ، وأخذ رديف باشا يستعد للهجوم على الثوار ، وفي نفس الوقت وجه نداءات للأهالى والثوار جاء فيها« ان الله ليس بظلام للعبيد فالقبائل والعشائر والأهالى المنقادون لطاعة أولى الأمر عليهم أن يثبتوا على قدم الطاعة والانقياد ، وأن يعلنوا ذلك لكل حاد وباد لتشملهم الرأفة والرحمة والشفقة ، وانا نقول لكم عموماً انه حيث القصد من ماموريتنا وسفرنا من دار الخلافة العلية الى هذه الأماكن إنما هو من أجل تأمين البلاد ، وترفيه العباد ، ورفع الظلم والتعدى عنهم ، وقمع وردع أهل الاعتساف والفساد ، فمن كان منكم مطيعاً لأوامر الله التى من أهمها طاعة ولى الأمر فسيجرى في حقه اللطف والصيانة ، ويعامل بكامل العدل » .

ولكن لم يجد رديف باشا لنداءاته جواباً من قبل الأهالى أو الأمير محمد ابن عائض ، وفي أعقاب ذلك المنشور عقد العسيريون برئاسة الأمير محمد بن عائض اجتماعاً تقرر فيه ، رفض ماجاء في الانذار المذكور ، واعلان النفير العام لمقاومة الجيش الزاحف، ويكون مقر قيادة الأمير عقبة شعار المطلة على وادى تيه ، بالاضافة الى مرابطة رجال ألمع وقبائل تهامة بمضيق دالج المطل على ماء الأحابيش من شمالي ألمع مما يلى محائل (١) ، واحتل بعد ذلك رديف باشا منطقة حلى يعقوب وهى أول مركز للحدود العائضية ، ثم والى زحفه الى محائل فاحتلها في ١٠ ذى الحجة سنة ١٢٨٨ هـ (٢) .. وهنا أخذ القائد العثمانى ينسق خططه الهجومية ، وذلك لعلمه باستمالته الأهالى في الدفاع بالاضافة الى ماكانت عليه المواقع العسيرية من قوة ومتانة (٣) عند ذلك رابط محمد بن عائض بحشوده من رجال القبائل في باحة شعار ، وأخذ في اقامة التحصينات والاستحكامات وتهيئة خطط للدفاع ظناً منه أن العثمانيين سيتقدمون من تلك الجهة ، وكان ابن عائض قد استنهض قبائل ألمع فرابطوا في وادى حلى الا أنهم لم يتمكنوا من صد الزحف وولوا منهزمين (٤) .

---

١ ـ النعيمي ، تاريخ عسير ، ص ٢١٢ .
٢ ـ العقيلى ، تاريخ المخلاف السليماني ، ص ٥٨٤ .
٣ ـ النعيمي ، تاريخ عسير ، ص ٢١٢ .
٤ ـ العقيلى ، تاريخ المخلاف السليماني ، ص ٥٨٤ .

وبعد فشل علي بن يحيى المفيدى عن الدفاع ، وانسحابه من مضيق دالج أخذ يغطى هزيمته بمحاولة يائسة ، إذ اعتصم بقمة جبل مطل على مركز الشعبين ومعه ثلاثمائة مقاتل لصد القوات العثمانية ، ولكن دون فائدة ، فما كاد الجيش العثماني يصل ماء الملحة من موارد حلى يعقوب حتى اكتشف مواقع على بن محمد وجماعته وذلك بالمكبر ، فأرسل اليه القائد سرية من جنوده مجهزة بقوة نارية ضاربة فاكتشف جبل قورة ، واستطاعت احتلال قمة الجبل وانسحب على بن يحيى المذكور وقواته ، فاعتصم بجبل الشرافة المطل على الشعبين من الجنوب ، (١) أما رديف باشا فبعد أن هزم رجال ألمع زحف حتى وصل وادى العوص ومنه تسلقت قواته العقبة الصعبة ، ونصبت خيامها في سطح تهلل ، وهنا ارتبكت خطة دفاع محمد بن عائض ، واختل توازنه ، فاضطر الى الانسحاب من خطوطه ، محاولاً القيام بحركة سريعة ومبادرة العثمانيين بالهجوم ، إلا أن هجومه لم يسفر عن نجاح ، وظل القتال سجالاً حتى أرغم على الانسحاب من ذلك الميدان الى الحفير بالقرب من قرية السقا ، بينما تقدم القائد العثمانى واحتل السقا وضيق على الأمير محمد بن عائض ، فالتجأ الى قرية ريدة وتحصن بها ، ونظراً لحصانة ريدة ومناعتها الطبيعية ، بالاضافة الى ما أعده محمد بن عائض من وسائل الدفاع فإن العثمانيين لم يظفروا من هجماتهم المتكررة عليها بطائل (٢) ، وعقد بعد ذلك القائدان رديف باشا وأحمد مختار ، اجتماعاً بحثا فيه الحالة ، وتقرر أن يبحر الجيش الاحتياطى المرابط في القنفذة الى ميناء الشقيق ومنه الى ريدة عن طريق تهامة بقيادة أحمد مختار باشا (٣) ، وذلك من ناحية الغرب ، ثم تقدم أحمد مختار من ميناء الشقيق ووالى زحفه الى أن عسكر غرب ريدة ، وبذلك أصبحت بين شقي رحا ، وهكذا شدد العثمانيون الهجوم على قرية ريدة من الشرق بقيادة محمد رديف ، ومن الغرب بقيادة أحمد مختار ، واستمر الهجوم خمسة أيام متوالية ضعفت بعدها مقاومة العسيريين فدب اليأس في قلوبهم ، وأخذت الخيانة تلعب دورها بين أقارب الأمير ، فخرج منهم من كان في حصن شهران ، ثم استسلم آل

---

١ ـ النعيمي ، تاريخ عسير ، ص ٢١٣ .

٢ ـ العقيلى ، تاريخ المخلاف السليماني ، ص ٥٨٥ .

٣ ـ النعيمي ، تاريخ عسير ، ص ٢٠٥ .

مفرح ولم يبق إلا القصر الذى تحصن به الأمير ، فضعفت معنوية حرسه الخاص ورجاله المقربين وأحاط العثمانيون بالقصر من كل جانب فطلب أكثرهم الأمان والاستسلام ، واضطر أخيراً الأمير محمد بن عائض الى طلب الأمان لنفسه وأهله فتعهد له بذلك ، بموافقة أحمد مختار وتعهده بقبول شروط التسليم ، وسلم الأمير نفسه ودخل العثمانيون القصر (١) ٠

ويذكر الواسعى أن السلطان عبد العزيز أرسل جيشاً لأخذ بلاد عسير ، وقد اتصل شريف مكة محمد بن عون ـ الذى نصب من قبل العثمانيين سنة ١٨٥٦ م ـ بأمير عسير محمد بن عائض ، وذلك بأن يسلم العسيرى بلاده للدولة العلية ، وأن أملاكه وخيوله وحصونه تحفظ ، وتخصص مرتبات له ولعائلته ، ولبعض الرؤساء المستحقين ، ويستخدم جميع من يستحق الخدمة في الوظائف العالية ولا يفضل عليه أحد ، فقبل الأمير محمد بن عائض ذلك ، وبعد المخابرة من الشريف الى السلطان بذلك ، وصل شريف مكة الى عسير والجنود محاصرة لعسير ، فقدم الرسول وبيده فرمان السلطان خطاباً للأمير محمد بن عائض جاء فيه « إنك آمن بأمان الله ورسوله ، وانى قد قبلت جميع مطلبك الذى عرضت علينا بواسطة الرشيف محمد بن عون ، وما عليك إلا تسليم البلاد لرديف باشا ، وأموالك وخيولك وجميع أملاكك مع الحصن لا تمسها عساكرنا بسوء ، إلا اذا لم تتبع أمرنا هذا السلطاني » فلما اطلع محمد بن عائض على منطوق الفرمان كتب لمختار باشا وكان محاصراً للقصر يقول في مكتوبه، « إننى دخلت تحت طاعة السلطان حسب الفرمان» فقبل أحمد مختار باشا وتوجها الى رديف ليطلع على الفرمان ، وبينهما وبين رديف باشا ثلاث ساعات ، فلما وصلا إليه في خيمته أمر في الحال بقتل محمد بن عائض ٠ (٢)

تفرغ بعد ذلك رديف باشا لتنظيم عسير ، فأخذ في قتل العسيريين وتشريدهم ونفى كبارهم كوسيلة لتوطيد أركان الحكم العثمانى في البلاد ، وأخذ في القضاء على العراقيل التى تقف أمامه ، وكان قد نفى الى تركيا فوق ستمائة رجل

---

١ ـ العقيلى ، تاريخ المخلاف السليماني ، ص ٥٨٥ ـ ٥٨٦ ٠

٢ ـ الواسعى ، تاريخ اليمن ، ص ١٠٦ ـ ١٠٧ ٠

من رؤساء عسير ، وكان على رأسهم الشيخ العلامة رئيس قضاة عسير أحمد ا بن عبد الخالق الحفظى ، وقام رديف باشا بتنسيق الادارة في عسير ، متخذاً من مدينة أبها مقراً للمتصرفية ، وجعل من مركز الشعبين مقراً لولاية رجال ألمع ، واتخذ من السقا وريدة قاعدة عسكرية لقواته ومن محائل نقطة انطلاق لجيشه الاحتياطى ، واتخذ النماص ولاية لبنى شهر . أما رغدان فجعلها ولاية لسراة غامد وزهران ٠ وجعل ثغر القنفذة مرفأ لاقليم عسير ، واتخذ من الشقيق نقطة اتصال للسواحل اليمنية ، وأخيراً جعل صبيا مركزاً للمخلاف السليماني ٠ (١)

وهكذا استطاع العثمانيون أن يسيطروا على عسير والمخلاف السليمانى ، وضموها الى المنطقة الخاضعة لنفوذهم في تهامة ، واستولوا على كل ما يملكه أمير عسير من خيل ونقود وأسلحة ومدافع وغير ذلك من الأحجار النفيسة ٠ (٢)

وبعد أن فتح أحمد مختار باشا اليمن كما سنعرضه بعد الفقرة التالية توجه الى عسير سنة ١٢٨٩ هـ (١٨٧٣ م) وتسلم دفة الحكم وظل مدة سنتين ثم وصل عثمان بك سنة ١٢٩١ هـ (١٨٧٥ م) فأخذت الثورات القبلية تندلع ، وكان أشدها ثورة قبيلة قيس من رجال ألمع الذين امتنعوا عن دفع الضرائب ، فوقعت بين الطرفين مناوشات ، ازاءها جرد حملة عسكرية مجهزة بوسائل الحرب ، فوقع قتال بينهم ، وفي أواخر سنة ١٢٩٢ هـ (١٨٧٦ م) تسلم حيدر بك متصرفية عسير لمدة ثلاثة أعوام وكانت الحالة هادئة نسبياً ، سوى أن هناك مناوشات من قبل الأمير على بن محمد بن عائض في بعض المراكز الواقعة في تهامة ، إلا أن الوالي العثماني استطاع أن يخمدها ، وبعد ذلك تولى دفة الامارة أحمد فيض باشا سنة ١٢٩٥ هـ (١٨٧٩ م) الذى اهتم بجمع الضرائب الباهظة للدولة فأثار ذلك العسيريين ، الذين التفوا حول الأمير على بن محمد بن عائض ، وكان المحرك للثورة رجال ألمع الذين أشعلوا نار الثورة في قرية شرمة ، وعلم الوالي فأسرع إليهم على رأس حملة عسكرية مجهزة بالمدافع والرشاشات ، فقابلوا الثوار في سفوح الجبال ، وكانت المعارك دامية وأخيراً تقهقر الثوار الى قرية شرمة فتعقبهم الجيش في هجوم خاطف فأخذ يقنف

---

١ ـ النعيمي ، تاريخ عسير ، ص ٢١٦ ـ ٢١٧ ٠

٢ ـ الواسعى ، تاريخ اليمن ، ص ١٠٧ ٠

القرية بنيران مدافعه فلاذ الثوار بالفرار ، ودخل الجيش العثمانى قرية شرمة ، وأخذ يتعقب الثوار حتى شتت شملهم ، وبعد ذلك وصل تحسين باشا الى الولاية سنة ١٢٩٨ هـ (١٨٨٢ م) وباشر سلطته ، وكان عهده مثل عهد سلفه اذ كانت الغارات والاضطرابات قائمة ، واستمر في الولاية حتى سنة ١٣٠٠ هـ (١٨٨٤ م) .. فتولى الامارة رفعت باشا ، وهدأت الأحوال في عهده ، وبقى في الحكم حتى سنة ١٣٠٥ هـ (١٨٨٩ م) ثم تولى الامارة محمد أمين باشا الذى عرف بالحنكة والفراسة وقد انحصرت جهوده في صد هجمات المغيرين على المراكز العثمانية من القبائل المغيرة .. وفي سنة ١٣١٠ هـ (١٨٩٣ م) وصل يوسف باشا فأعاد للولاية هيبتها وأخذ في تخطيط وانشاء الدور للدوائر الحكومية ، ثم توجه أحمد أمين باشا سنة ١٣١٦ هـ على رأس حملة عسكرية لاخضاع القبائل الثائرة في اليمن على حكم الدولة في أثناء ولاية أحمد فيضى باشا بزعامة الامام المنصور بالله محمد بن يحيى حميد الدين ، عاد بعد ذلك محمد أمين الى عسير وبقى حتى سنة (١٣١٧ هـ (١٩٠٠ م) وفي سنة ١٣١٨ هـ (١٩٠١ م) وصل موسى كاظم باشا ، وباشر سلطته ، إلا أن الفوضى استمرت قائمة ، فاستبدل موسى باسماعيل حقى باشا سنة ١٣١٩ هـ (١٩٠٢ م) .. وهذا بدوره قضى على دواعى الفوضى ، فهدأت الحالة ابان ولايته ، وكان اسماعيل يتصف بالعدل والانصاف ، وفي سنة ١٣٢٢ هـ (١٩٠٥ م) أخذ الأمير على بن محمد بن عائض في الاستعداد لشن هجوم على الحامية العثمانية واتصل بزعماء القبائل التابعة للواء عسير محرضاً على القيام بالثورة ، إلا أن الحامية تمكنت من قطع خط الرجعة على من في محلة مناظر ، فاستسلموا حيث وقعوا في أيدى رجال الحامية ، وفشل هذا الهجوم من قبل الثوار ، واستمر حقى باشا حتى سنة ١٣٢٤ هـ (١٩٠٧ م) ، فوصل الى امارة عسير سليمان شفيق وباشر سلطته في عسير ، وكان المخلاف السليمانى تابعاً لمتصرفية عسير والأمن اذ ذاك مضطرب في هذه الجهات بل في لواء عسير بوجه عام ، فواجه الوالي العثماني ظروفاً عصيبة ، لاسيما عند إعلان الادريسى ثورته سنة ١٣٢٧ هـ (١٩١٠ م) (١) ، وكانت الحروب قائمة حتى بين القبائل ، إذ اشتعلت الحروب القبلية ونشب القتال بين أهل أبى عريش وأهل ضمد واستمرت حتى سنة ١٣١٠ هـ (١٨٩٣ م) ، ثم بين المسارحة وأهل

---

١ ـ النعيمي ، تاريخ عسير ، ص ٢١٧ ـ ٢٢٢ .

أبى عريش ، ومن الجانب الشرقى بين الحرث والمسارحة ، وفي الجنوب بين بنى شبيل والمسارحة ، وفي الجنوب الغربى بين الحكامية والحزم ، وفي الشمال بين أهل صبيا والجعافرة وظلت الفتن والحروب في طول المخلاف وعرضه بين كل قبيلة والقبيلة المعاقبة لها ، وزاد الفتن والحروب ضراوة وقسوة ترخيص فرنسا بيع الأسلحة في مستعمراتها ، ومن ميناء جيبوتى ، فنشطت تجارة الأسلحة في تهامة وزادت مقاومتهم للعثمانيين ، وفي سنة ١٣١٩ هـ (١٩٠٢ م) ضرب الأسطول الايطالى موانىء البحر الأحمر العربية واستمرت الفوضى والفتن حتى سنة ١٣٢٧ هـ (١٩١٠ م) وقيام الادريسي (١) ، وكانت القوات العثمانية المرابطة في هذه الفترة في منطقة عسير ، ستة عشر طابوراً في محايل وثلاثة طوابير في قوز أبي العير وفي القنفذة ثلاثة طوابير وفي أبها عاصمة اللواء عشرة طوابير (٢) ٠

وهكذا يؤخذ من العرض السابق أن الدولة العثمانية استطاعت أن تفرض سلطتها على منطقة عسير والمخلاف السليمانى وساعدهم على ذلك افتتاح القناة كما تمكنت الحكومة العثمانية من أن تقف على مجريات الحوادث في تلك المنطقة ، وقد قدمنا في عرضنا هذا سرعة تغيير الولاة والمتصرفين على عكس الفترة السابقة ، وهنا يعود للحالة الجديدة التى أوجدتها قناة السويس بالنسبة لغربي شبه الجزيرة العربية ٠



١ ـ العقيلى ، تاريخ المخلاف السليماني ، ص ٥٦٥ ـ ٥٦٦ ٠
٢ ـ البركاتي ، الرحلة اليمانية ، ص ١٠٨ ٠

الفتح الثاني لليمن ١٢٨٩هـ - ١٨٧٢م

واستمراراً لسياسة الدولة من حيث بذل الجهد لتأمين الحجاز بعد افتتاح قناة السويس فقد رأت الدولة العثمانية أن تعود للسيطرة على اليمن خصوصاً بعد أن رأت انجلترا قد وضعت قدميها في عدن ، وأرسلت الدولة حملة سنة ١٨٤٩ هـ احتلت الحديدة وبعض مناطق تهامة ، وقد مر بنا ذكر ذلك في الفصل الأول ، وهذه الحملة كانت مرسلة عن طريق الوالي المصري ، ووصلنا حتى تولى الامام على ابن المهدي الامامة ، وكيف أنه أخرج العثمانيين من صنعاء .

ونعود الآن لتكملة الحالة التي كان عليها اليمن، ففي سنة ١٢٧١ هـ - ١٨٥٤ م تكاتفت قبيلة أرحب مع قبيلة بني الحارث وهاجموا صنعاء ، ولما طالت الحرب والفتن بين صنعاء والقبائل الذين حول صنعاء ، اجتمع أعيان صنعاء ورؤساء بعض القبائل

واتفقوا على خلع الامامين المتعارضين المتوكل على بن المهدى ، والمنصور محمد ابن عبد الله الوزير ، وتنصيب السيد محسن بن أحمد الشهاري ولقبوه بالمتوكل الذى اتخذ من منطقة حدة مقراً له (١) ، واجتمع بعد ذلك الأئمة المخلوعون وهم غالب ابن محمد بن يحيى ، والعباس بن المتوكل ، وأحمد بن عبد الله أبو طالب في منطقة الروضة وأجمعوا رأيهم على تنصيب السيد غالب بن محمد ، ولقبوه بالهادي

وتعهدوا بمساعدته ، وقام بالأمر غالب بن محمد ، وكان الأمر في صنعاء للحاج أحمد الحيمى ، وقامت الحرب بين الوزيرين الحيمي المذكور ، ووزير المتوكل الشهاري دامت شهرين ، وانتهت بالصلح ثم حدث اختلاف بين الامام الهادى غالب بن محمد مع وزيره الحيمي ، مما حمل الحيمي على مراسلة الامام المخلوع على بن المهدى الى دار سلم من سنحان ، احدى نواحى صنعاء ، وطلب وصوله الى

---

١ - الواسعى ، تاريخ اليمن ، ص ٩١ - ٩٢ .

صنعاء فلبى المهدى دعوته ، وعندما علم الهادى غالب بن محمد بذلك زحف بقبائله نحو صنعاء ، فأغلق الوزير الحيمى أبواب المدينة وتعذر على الامام الهادى الاستيلاء عليها ، ولكنه فرض الحصار واتجه الهادى الى خولان لجمع عدد آخر من القبائل ، إلا أن المهدى خرج من صنعاء ، وأجمعت القبائل على خلعه مرة أخرى وحسم الخلاف بين الامام الهادي ونائبه الحيمي ودخل صنعاء، وفي سنة ١٢٧٥ هـ - ١٨٥٨ م قام السيد حسين بن أحمد وتلقب بالهادى ، وذلك في بلاد الطويلة ، ودخل صنعاء سنة ١٢٧٥ هـ - ١٨٥٨ م إلا أن أهالى صنعاء حاصروه في قصر الامارة ثم أخرجوه من صنعاء ، ونصبوا الشيخ محسن بن على معيض شيخاً على صنعاء ، وأعلن معيض ولاءه للمتوكل محسن بن أحمد الشهاري الذى كان مايزال مقيماً في منتزه سنحان وبايعه ووصل اليه وانتقل معه الى حصن ذى مرمر من بنى حشيش ، وأناب المتوكل عنه في صنعاء السيد محمد بن قاسم الحوثى ، إلا أن الشيخ محسن معيض لم يلبث أن خرج عن طاعة الامام المتوكل الشهاري ، واستدعى الى صنعاء الامام الهادى حسين بن أحمد ، في حين تقدم الامام المتوكل محسن بقواته من القبائل ، وحاصر صنعاء ، واضطر الامام الهادى الى الخروج منها ، ثم تصالح مع الشيخ محسن معيض ، وكان من بنود الصلح أن تكون الخطبة له في صنعاء ، وأن يكون شيخ صنعاء وقاضيها منهم .. وصار الامام المتوكل يتنقل بين مسناع وحزيز وهما لا يبعدان عن صنعاء دون أن يدخلها (١) .

ومن خلال ذلك يتبين أن اليمن وصنعاء بالذات كانت تعيش فترة قلقة مشحونة بالاضطرابات والمنازعات بين الأئمة المتنازعين فيما بينهم وبين القبائل الذين ظلوا يلعبون دوراً ايجابياً في زيادة البلبلة ، وعدم الاستقرار ، ثم لما عظمت الفتنة في صنعاء وخارجها من فساد القبائل وعتوها ، كتب الامام على بن المهدى والامام غالب بن محمد بن يحيى والسيد حسين بن المتوكل وغيرهم من العلماء والرؤساء

---

١ - الواسعي ، تاريخ اليمن ، ص ٩٢ - ١٠٦ .

الى السلطان عبد العزيز بواسطة شريف مكة ، حيث أن القبائل حول صنعاء قد شقوا عصا الطاعة واستبدوا بالبلاد وعاثوا فيها فسادا ، ورجوه أن يمدهم ببعض من العساكر (١) . ·

وكانت قناة السويس قد شجعت الدولة العثمانية على اعادة النظر في سياستها العربية بقصد تقوية نفوذها في الجزيرة العربية. فأرسل الباب العالى رؤوف باشا على رأس قوة حربية لضم اليمن الى الدولة ، وقد تمكنت القوات من النزول في الحديدة ، إلا أن رؤوف باشا مرض (٢) .. وكانت عسير كما مر بنا قد سقطت في يد الدولة ، فزحفت القوات العثمانية بعد ذلك الى صنعاء حسب أوامر من الباب العالى .. وكانت بقيادة القائد أحمد مختار الذى جهز بجيش كامل يعرف بالفيلق السابع ، (٣) ثم توجهت قوات أحمد مختار من الحديدة الى صنعاء .. حتى وصل الى عتارة الواقعة في بلاد حراز في الجانب الغربى من مناخة ، حيث اصطدمت قواته مع أتباع الدعوة الباطنية ، الذين اتخذوا من عتارة مركزاً لتجمعهم.

وقد منى أتباع الباطنية بالهزيمة أمام القوات العثمانية واستسلم زعيمهم (٤) ، ثم التقى وفد الامام على بن المهدى بالقائد العثمانى أحمد مختار في مناخة ودعاه الى دخول صنعاء .. حسب أمر السلطان ليربى العصاة والمتمردين وبعد تربيتهم يرجع من حيث أتى. فهز لهم رأسه ، وتكلم بكلمات تركية لا يفهمونها فظنوا أن الأمر كما يريدون ، فلما وصلوا الى تقيل عصر غربي صنعاء بمسافة نصف ساعة خرج الامام على بن المهدى والامام غالب بن محمد ، وحسين بن المتوكل وغيرهم

---

١ ـ الواسعى ، تاريخ اليمن ، ص ١٠٨ ·
٢ ـ جاد طه سياسة بريطانيا في جنوب اليمن ، ص ٢٥٩ ، ومصطفى سالم ، تكوين اليمن الحديث ، ص ٣٢ ·
٣ ـ محمد يحيى الحداد ، تاريخ اليمن السياسي ، ص ٣٥٠ ·
٤ ـ فاروق أباظه ، الحكم العثماني لليمن ، ص ٨٨ ·

من الأشراف والعلماء والرؤساء ، ثم طلب أحمد مختار باشا من الامام على ا بن المهدي وسائر الأشراف والعلماء بواسطة رئيس صنعاء الشيخ محسن معيض تسليم المعاقل المحيطة بصنعاء خصوصاً القصر المسمى غمدان فسلموها وغفلوا عنها (١) وكان

وصول العثمانيين في السادس عشر من شهر صفر سنة ١٢٨٩ هـ الموافق ٢٦ أبريل سنة ١٨٧٢ م .. ثم انقسم الجنود قسمين قسم بقى في مكان يقال له وهب جنوب صنعاء وقسم استولى على بقية المعاقل نحو قصر غمدان وأبواب صنعاء والتى كان عددها عشرة ، (٢) وكان من العوامل التى ساعدت الحملة العثمانية على دخول صنعاء ذلك أن أهلها ضاقوا ذرعاً من المنازعات التى لا تنقضى بين الأئمة الزيدية ، وبين منافسيهم على الامامة وكانوا في الوقت نفسه يرغبون في العيش في سلام (٣) ،

ثم لما تمكن أحمد مختار باشا من قبض المعاقل ووضع العسكر فيها طلب الدفاتر من الامام على بن المهدي، ثم استشار الامام ووزراءه وكتابه وسائر الأشراف ، فأشاروا عليه بعدم تسليم ذلك ، لأنه بعد تسليم الدفاتر وقبض المعاقل يحصل اختلال البلاد ، اذ باطلاع الوالي على الدفاتر يعرف ادارة البلاد ومصادرها وايرادها ومعرفة ذلك يكون سبباً لملك البلاد بعد قبض المعاقل ، وهذا خلاف ما كتبوا للسلطان ، وأن طلب الامام والأشراف والمشايخ للأتراك انما هو لقمع الثائرين العصاة وقبض المعاقل والدفاتر خلاف المراد ، ويفهم من هذا الغرض الاستيلاء على البلاد ، ثم ان الشيخ محسن معيض أشار على الوالي قبل الاطلاع على الدفاتر أن يضرب الرجل الشقي المسمى المدفعي ، وكان هذا يقيم في شعوب شمال صنعاء بعشر دقائق ، وقد لقى الناس من هذا الشقى أنواعاً من العذاب نهباً وقتلاً وفي ذمته نفوس كثيرة من الأشراف أو غيرهم ، وأن الوالي العثماني اذا أخذ هذا الشقي استجلب قلوب العامة والخاصة وتسلم اليه الدفاتر .. وبعد ذلك تكون البلاد جميعها تحت يديه ويشكل حكومة حسب رغبته ، وكتب أحمد مختار للمدفعي ،

---

١ ـ الواسعي ، تاريخ اليمن ، ص ١٠٩ .

٢ ـ المصدر السابق ص ١١٠ .

٣ ـ سيد رجب حراز ، الدولة العثمانية وشبه الجزيرة العربية ، ص ٨٥ .

أن يدخل تحت الطاعـــة ، وظن المدفعي أن تحصنه في بيته يدفـع عنه قـوة الجنـود والمدافع ، ولـم ينظر إلى مـا حصل لأمير عسير الذي لم ينفعه جمعه الكثير وما كان له من القوة

فلما عرف الوالى العثمانى تمنعه وعصيانه أخرج له شرذمة من العساكر ، وأخذ المدفعى مع ماله فحصل للناس السرور ، وبعد هلاك هذا الشقي رجفت القلوب هيبة للجنود السلطانية ، وسار الأمن في جميع الربوع اليمانية ، ثم بعد ذلك طلب الوالي الدفاتر لمعرفة العشور اليمانية وأن ليس له طمع في ولاية اليمن ، بل لتربية العصاة المتمردين ، ثم تسلم الوالي الدفاتر وبعد تسلمها شكل حكومة (١) ، في مدينة صنعاء لتسيير دفة الحكم في ولاية اليمن التى أصبح مختار باشا والياً عليها من قبل السلطان العثمانى عبد العزيز سنة ١٢٨٩ هـ (١٨٧٢ م) وحاول أحمد مختار أن يجذب اليه قلوب العامة من اليمنيين ، وعين في وظائفهم مأمورين من الأتراك حتى يكونوا أداة طيعة في يده لتدعم الحكم العثمانى في البلاد ، أما بالنسبة للامام فقد عرف العثمانيون مكانته الروحية بين أتباعه الزيديين ، ورأوا أن يسمحوا له بالاقامة في صنعاء مع منحه معاشاً شهرياً بشرط أن يقتصر نشاطه على ممارسة نفوذه الروحى بين أتباعه بما لا يتعارض مع مصالح الحكومة العثمانية في الولاية ، (٢) ، ثم أخذ أحمد مختار في توطيد الأمن والقضاء على الخلافات وبعد انقضاء أربعة أشهر توجه من صنعاء موسى كاظم باشا وفضلى باشا على رأس قوة عسكرية عثمانية للسيطرة على كوكبان الواقعة في شمال غرب صنعاء ، وكان يحكمها الامام الزيدى أحمد بن محمد شرف الدين كما كان يحكم المنطقة الممتدة غرب كوكبان حتى حدود تهامة .. وقد أخذ الأمير يدعم الحصون التابعة له في جبل كوكبان ، وذلك عندما سمع بهجوم العثمانيين الذين حاصروه سبعة أشهر وتمكنوا من السيطرة على المنطقة بأكملها بعد أن نشبت بين الجانبين معارك دامية استسلم في نهايتها أمير كوكبان ، وقتل فيها أخوه وقائد جنده ، (٣)

وهكذا تمكن الحكم العثمانى من الوصول الى صنعاء والقضاء على الخلافات الناشبة فيها وما حولها ، ولكن أخفق الحكم العثمانى في بسط نفوذه على الجهة

---

١ ـ الواسعي ، تاريخ اليمن ، ص ١١٠ ـ ١١١ .

٢ ـ فاروق أباظه ، الحكم العثماني لليمن ، ص ٩٥ .

٣ ـ الواسعي ، تاريخ اليمن ، ص ١١٢ .

الشمالية التى ظلت تحت حكم المتوكل المحسن بن أحمد الى أن توفي سنة ١٢٩٥ هـ (١٨٧٨ م) فخلفه الامام الهادى شرف الدين بن محمد (١) كما أن السيطرة العثمانية لم تصل الى شرقي اليمن الأعلى ولا جنوب اليمن الأسفل حتى أن مأرب، وصعدة ونجران وشهارة، وقفلة عنر، وما حولها من القبائل شديدة البأس مثل حاشد وبكيل وأرحب وذر حسين وأمثالها ظلت تحت الأئمة والمشايخ المحليين (٢)، ولقد تتابع الولاة العثمانيون على اليمن بعد أحمد مختار على النحو الآتي:

أحمد أيوب: ١٢٩٠ ـ ١٢٩٣ هـ (١٨٧٣ ـ ١٨٧٦ م) وفي عهده ثارت قبيلة خولان فخرجت من صنعاء فرقة استطاعت أن تخمد الثورة وتدخل القبيلة تحت الطاعة (٣).

ثم يأتى مصطفى عاصم ١٢٩٣ ـ ١٢٩٥ هـ (١٨٧٦ ـ ١٨٧٨ م) الذى اتخذ سياسة جديدة اتسمت بمزيد من الشدة والقسوة ومن ذلك أمره باعتقال عدد من كبار علماء صنعاء وسجنهم في الحديدة، ومن ضمنهم رئيس العلماء، أحمد محمد الكيسي، ومحمد بن قاسم الحوثى، ومحمد بن اسماعيل، وعلى الجديرى، ومحمد المطاع، ومحمد بن يحيى حميد الدين الذى مهد لثورة عارمة (٤)، والذى لقب بالامام المنصور، وذلك بسبب ولائهم للامام المتوكل محسن بن أحمد الشهاري، ثم يأتي حافظ اسماعيل حقى ١٢٩٥ ـ ١٢٩٩ هـ (١٨٧٨ ـ ١٨٨٢ م) الذى اتصف بالعدل والاستقامة، ومن أهم أعماله انشاء أربعة طوابير أو ألوية في الجيش من اليمنيين ودربهم أحسن تدريب عسكرى، ولكن الحكومة العثمانية ألغت هذه الطوابير، وعزلت الوالي لأن ذلك في اعتقادها يساعد على تقوية مركز اليمنيين (٥). أما سعيد عزة باشا ١٢٩٩ ـ ١٣٠٢ هـ (١٨٨٢ ـ ١٨٨٥ م) فقد سعى الى التقريب بين الأتراك واليمنيين، إلا أنه لم يستطع أن يضع حداً لنضال اليمنيين ضد العثمانيين وتوفي بعد ذلك فتولى الولاية أحمد فيضى باشا، ولكنه لم يستمر

---

٢ ـ أحمد حسين شرف الدين، اليمن عبر التاريخ، ص ٢٦٥.

٢ ـ فاروق أباظه، الحكم العثماني لليمن، ص ٩٥.

٣ ـ الواسعي، تاريخ اليمن، ص ١١٧.

٤ ـ أحمد حسين شرف الدين، اليمن عبر التاريخ، ص ٢٦٥.

٥ ـ محمد يحيى الحداد، تاريخ اليمن السياسي، ص ٣٥١.

في الولاية سوى سنة واحدة اذ استعمل القسوة في معاملته للناس ،وكان قبل ذلك متصرفاً في عسير ، ويذكر الواسعى أنه أرسل الجنود الى همدان وأمرهم بالهجوم على كل بيت فيه حبوب ، وذلك بسبب المجاعة التى مرت ببلاد اليمن ، وأخيراً أرسل أحمد فيضى الى مكة قومنداناً (١) ، وعين عزيز باشا ١٣٠٣ ـ ١٣٠٥ هـ (١٨٨٦ ـ ١٨٨٨ م) الذى أزال الجور عن الناس ومنع الرشوة بين الموظفين العثمانيين وحارب الامام الهادى شرف الدين بن محمد في معركة قامت بينهم في جبال عيال يزيد ، واستطاع اليمنيون أن يسجلوا انتصاراً ، وقد أرجع العثمانيون أسباب الهزيمة الى عدم اخلاص عبد الله بن أحمد الضلعى الذى يعرف بعبد الله باشا ، وكان عضواً في المجلس الحاكم في اليمن ، ثم يأتى عثمان باشا ١٣٠٥ ـ ١٣٠٧ هـ (١٨٨٨ ـ ١٨٩٠ م) الذى انتهج سياسة الارهاب وأشاع أخذ الرشوة ، واعتقل عبد الله الضلعى الآنف الذكر وأرسله الى مدينة عكا في فلسطين ، كما اعتقل القاضى يحيى ا بن أحمد المجاهد صاحب تعز ، إلا أن هناك أوامر سلطانية صدرت بالافراج عنه ، ثم يأتي عثمان نوري باشا سنة ١٣٠٧هـ (١٨٩٠م) الذي وصف بالاستقامة والتواضع ولقب بالفقيه ، ولكن كبار موظفي العثمانيين في اليمن عملوا ضده فعزل من منصبه في نفس العام (٢) ، وسوف نكمل ذكر الولاة الذين في عهدهم قامت الثورة اليمنية ضد الحكم العثمانى في فصل لاحق ٠

وهكنا وبصفة عامة فإن الائمة في صنعاء لم يشعروا قط بالهدوء والسكينة منذ أن أعيد تثبيت الحكم العثماني لليمن سنة ١٨٧٢ م ، اذ وجد الائمة الزيدية في فترة من الفترات أنه من السياسة والحكمة احترام السلطان الخليفة على الرغم من الاختلافات المذهبية فيما بينهم ولكنهم مع ذلك لم يستطيعوا تماماً معاشرة الموظفين العثمانيين الذين يرسلون الى بلادهم أو مشاركتهم (٣) ، كما نلاحظ أن الولاة العثمانيين لم يسيروا في حكمهم على وتيرة واحدة ، بل نجدهم يديرون البلاد على حسب الحالة الموجودة ، لذلك نلاحظ اختلاف المعاملة بين الولاة واليمنيين ، كما نلاحظ أيضاً سرعة تغيير الولاة في بعض الأحيان ، كل ذلك التحكم يعود لأثر

---

١ ـ الواسعي ، تاريخ اليمن ، ص ١٢١ ٠

٢ ـ محمد يحيى الحداد ، تاريخ اليمن السياسي ، ص ٣٥٢ ٠

٣ ـ هارولد ٠ ف ، عدن وجنوب اليمن في ملوك العرب ، ص ١٢٠ ٠

قناة السويس التى ساعدت الدولة في فرض السيطرة على هذا الاقليم ٠
وانصرف العثمانيون الى تنظيم شؤون اليمن .. واتخذوا من مدينة صنعاء مقراً للوالي العثماني(١) ويصدر بتمييه فرمان من الباب العالى الذى لا يحدد مدة ولايته ، والمتصرف يمثل الوالي في حدود كل لواء من ألوية اليمن .. ويرجع اليه في مختلف الأمور .. وكان يتبع المتصرفين قائمقامون للأقضية التى كانت تنقسم اليها الألوية ، ويلى هؤلاء المديرون الذين يبسطون نفوذهم على مناطق محدودة داخل الأقضية ولم يكن النفوذ العثمانى ممثلاً في المناطق اليمنية التى لا يمكنه فيها حماية ممثليه العثمانيين ، حتى أن كثيراً من الأتراك المكلفين بمهام ادارية أو دبلوماسية في المناطق النائية داخل الولاية كانوا يتعرضون لصعاب جمة (٢) ٠
ومن ذلك يتضح أن الدولة العثمانية حاولت تطبيق نظام الولايات الصادر سنة ١٨٦٤ م في اليمن ، إلا أنها لم تطبقه بالكامل لأن لليمن ظروفاً خاصة اتضحت من عرضنا حتى الآن ، وأرادت الدولة العثمانية أن تدخل كثيراً من وجوه الاصلاح ولكن نفوذ الامام وعناصر المحافظين كانت تقف حجر عثرة أمامهم ، وزاد ذلك من سوء الموقف الداخلى ، اذ أخذ الأئمة يثيرون القبائل على حكم العثمانيين ، حتى اتصف حكمهم بالحروب وقمع الثورات ، واستخدام القوة في كثير من الأحيان ، وزاد الحالة سوءاً أن كثيراً من الولاة العثمانيين كانوا يعتبرون تعيينهم في اليمن نفياً لهم ، فكانوا لا يأبهون لصالح البلاد ، كما كان بعضهم يقضى وقته في جمع المال .. أو في الانصراف الى الملذات ، ومع ذلك فهناك ولاة قاموا بأعمال جليلة ، واتصفوا بالعدل والحب للشعب اليمني واهتموا بشأنه ، ومع ذلك لا يستطيع أحد أن ينكر أن الدولة حرصت على ادخال الاصلاحات الحديثة بانشاء المدارس والمستشفيات وأقاموا المساجد كما أدخلوا نظام التلغراف (٣) ، وأقاموا بعض الثكنات العسكرية ، ثم بدأوا ببناء سكة حديد من شمال الحديدة في اتجاه صنعاء ، ولكنهم أوقفوا العمل فيه عند باجل ٠ وعلى بعد بضعة كيلو مترات (٤) كان بعض أولئك المصلحين يريدون دفع البلاد الى الأمام لتسير مع الزمن ، ولكنهم كانوا اذا فعلوا ذلك وجدوا من يتهمهم من أهل اليمن بخروجهم عن الدين ٠ (٥)

١ - سيد رجب حراز ، الدولة العثمانية وشبه جزيرة العرب ، ص ٨٦ ٠
٢ - فاروق أباظه ، الحكم العثماني لليمن ، ص ١٠٥ ٠
٣ - أحمد فخرى ، اليمن ماضيها وحاضرها ، ص ١٥٩ - ١٦٠ ٠
٤ - محمد يحيى الحداد ، تاريخ اليمن السياسي ، ص ٣٦٤ ٠
٥ - أحمد فخرى ، اليمن ماضيها وحاضرها ، ص ١٦٠ ٠

وهكذا يتضح من العرض السابق للحالة التى كان عليها اليمن بعد افتتاح قناة السويس ، اذ أعيد تثبيت الحكم العثمانى وعاد لليمن الهدوء والسكينة ، وأصبحت الدولة على اطلاع دائم بأحوال اليمن الداخلية ، واستطاعت أن تعين الولاة على حسب الحالة التى كانت عليها البلاد ، وحاولت كذلك أن تطبق نوعاً من نظام الولايات ، وهذا يعود لقناة السويس التى سهلت الاتصال السريع بتلك المناطق ، بالاضافة الى خطوط التلغراف ، وجاء تثبيت نفوذ الدولة في عسير ثم في اليمن بمثابة خطوط تأمين للحجاز ، أو بمعنى آخر تأمين لمركز الدولة في الأماكن المقدسة الاسلامية .



محاولة استعادة نفوذ الدولة العثمانية في عدن

بعد استيلاء القوات العثمانية بقيادة أحمد مختار باشا على صنعاء وعمران وكوكبان ، بالاضافة الى منطقة الجنوب ريمة وتعز ، اتبع أحمد مختار القسوة في معاملة اليمنيين ، وذلك بقصد القضاء على المقاومة ودعم النفوذ العثمانى ، واستتب الأمر بالفعل للعثمانيين في اليمن فترة من الزمن ، وأراد العثمانيون أن يستغلوا فترة الهدوء السائدة في اليمن في ذلك الوقت ، وأن يتجهوا نحو الجنوب ، اذ طمعوا في جحاف الهضبة الجميلة التى تكثر فيها المحاصيل ، ويوجد بها نحو ٣٦٠ بئراً ، وارتفاعها عن سطح البحر يقارب ثمانية آلاف قدم ، وتطل على نجد الضالع من جهة الشرق ، وفي المدى المقابل تظهر في الأفق مرتفعات جبل حرير الشاهقة والمماثلة ، بينما يطل الشمال على أصقاع حصبة ، ومن خلفها تقف سلاسل جبال صفاً وراء وصف ، والى الجهة اليسرى من الناحية الأمامية تداعب الرياح سطح المياه الفضية التى تعكس ضوء الشمس من نهر تيبان الخصيب الذى وصل ذات يوم الى البحر ماراً بالشيخ عثمان (١) .. ومن أجل ذلك رأت الدولة ضرورة احتلال تلك المناطق بالاضافة الى انهاء الوجود البريطانى في تلك المنطقة ، ومع بداية يناير طفق التدخل العثمانى في جنوب الجزيرة العربية يزداد تبلوراً ، وقلق سلطان لحج من احتمال هجوم كبير يجرى على أراضيه ، واعتبرت الحكومة البريطانية أن هذا الاجراء اذا ماحدث فسوف تعتبره خطراً على مصالحها في عدن (٢) وكان ايرال جرانفيل (Granville) وزير الخارجية البريطانى

---

١ ـ هارولد . ف عدن وجنوب اليمن في ملوك العرب ، ص ٩٣ .

2. C.R.T.P. No. 1 Earl Granville to Sir Elliot Jan. 1, 1873.

يعتقد أن الباب العالي لن يقوم بأية اجراءات عدوانية ضد سلطان لحج الا بعد الاتصال بالحكومة البريطانية ، وطلب جرانفيل من السير اليوت (Elliot) السفير البريطاني في الآستانة أن يبلغ الباب العالي « أنه من الخطورة بمكان حدوث أى تدخل من جانب السلطات التركية في هذه المنطقة ضد حكام أصدقاء بريطانيا العظمى وحكومة صاحب الجلالة تكره أى حدث يزعج المنطقة .» (١)

وبناء على تلك التعليمات اجتمع السير اليوت (Elliot) بخليل باشا وزير خارجية الدولة العثمانية الذى أكد له بأنه لن تحدث أى عملية توسعية بجوار عدن دون تعليمات من الباب العالي الذي لن يعطى مثل هذه التعليمات دون الرجوع الى الحكومة البريطانية ، وأشار خليل باشا من ناحية أخرى الى أن الباب العالى يعتبر لحج جزءاً من الأراضى اليمنية التى كانت في ذلك الوقت خاضعة تماماً لسيادة السلطان ، وأضاف خليل باشا أن التفاصيل سوف تبلغ بها حكومة جلالة الملكة التى على أية حال يجب أن تلاحظ مراعاة الدولة العثمانية للادعاءات البريطانية (٢) ، ويلاحظ أن لهجة الباشا كانت حازمة وشملت التعهد بعدم القيام بأية عمليات توسعية في منطقة جنوب الجزيرة العربية دون الاتصال السابق بالحكومة البريطانية ، وليس من الحكمة افتراض ادعاء الباشا أحقية الباب العالي في استدعاء رؤساء المنطقة لتقديم ولائهم له ، لأن أرض اليمن تابعة لسلطات الباب العالي ، ثم أكد جرانفيل للسير اليوت (Elliot) بأن يوضح للباب العالي بأن الحكومة البريطانية سوف تنظر بعدم الارتياح لأية عمليات تقوم بها السلطات التركية في اليمن من شأنها ازعاج المناطق المجاورة لعدن .

وكانت نتيجة لهجة خليل باشا ضرورة اخطار الحكومة التركية بأن المشكلة ليست مشكلة تلك الأراضى التى تحتلها الحكومة البريطانية في عدن ، وأن ليست هذه الحكومة في حاجة الى تأكيد احترامها من جانب الباب العالي ، بل ان المسألة

---

1. C.R.T.P. No. 2 Earl Granville to Sir Elliot Jan. 23, 1873.

2. C.R.T.P. No. 3, H. Elliot to Eqarl Granville Jan. 3, 1873.

وجاد طه سياسة بريطانيا في جنوب اليمن . ص ٢٦٢-٢٦٣

هى وجوب منع السلطات التركية في اليمن من التدخل في شؤون سلطان لحج والرؤساء العرب الآخرين في المنطقة الذين بينهم وبين الحكومة البريطانية علاقات ودية بزعم أن اليمن تابعة للباب العالي ، وأن هؤلاء الرؤساء يعيشون في أرض تابعة لولاية اليمن ، وهم بذلك يعتبرون رعايا للباب العالي ، واستمر جرانفيل (Granville) يوضح وجهة نظر الحكومة البريطانية في التعليمات المرسلة للسير اليوت (Elliot) « وأيا كانت حقوق الباب العالي في السيادة على اليمن فانه من المعروف أن اليمن منذ سنة ١٦٣٣ م كانت تحت حكم رؤساء عرب مستقلين عن الباب العالي وحكومة جلالة الملكة لا ترغب في مناقشة هذه المسألة بصفة عامة ولكنها تود أن يحاط الباب العالي علماً بأن حكومة جلالة الملكة ترغب في احترام استقلال الرؤساء الوطنيين المقيمين بجوار عدن .. وان حكومة جلالة الملكة لن تقف مكتوفة الأيدى اذا ما حدثت أية محاولة للانتقاص من سيادتهم » (١) .

ونفذ السير اليوت (Elliot) التعليمات الصادرة اليه من وزير الخارجية البريطانية وأعد مذكرة للاتصال بالباب العالي ومناقشته بخصوص العلاقات بين سلطان لحج وحكومة عدن (٢) ، وقد جاء في تلك المذكرة أن لحج التى تقع داخل خمسة عشر ميلاً من نطاق نقط الحدود العسكرية لعدن وهى المدينة الرئيسية التي تسيطر على البلد كلها ومنها تأخذ عدن جميع امداداتها من الحبوب والعلف والماء وغير ذلك ، وأن سلطانها يتقاضى راتباً شهرياً من الحكومة البريطانية نظير قيامه هو وشعبه بامداد عدن وجعل الطريق مفتوحة بين سلطنته والمناطق المجاورة لها وأن سلطان لحج هذا لم يكن أبداً تحت سلطة الباب العالي، وقد حدث منذ عدة شهور ، وبعد أن ترأس المشير أحمد مختار حكم مدينة صنعاء التى تبعد ما لا يقل عن ١٥٠ ميلاً ، دعا سلطان لحج ليحضر اليه ، ثم أعد بعد ذلك العدة ليهاجم هنتاش التى تقع أسفل عدن ولقد أجاب سلطان لحج حاكم صنعاء بأن ولاءه للحكومة البريطانية حيث يتقاضى منها راتباً شهرياً ، هذا ولم تكن هناك اجابة أو اهتمام من الباشا حاكم صنعاء ، كتعقيب على رد سلطان لحج ،

---

1. C.R.T.P. No. 4, Earl Granville to Sir H. Elliot Jan. 30, 1873.
2. C.R.T.P. No. 5, Sir H. Elliot to Earl Granville Jan. 24, 1873.

وجاد طه سياسة بريطانيا في جنوب اليمن . ص ٢٦٤

ولكى يكون واضحاً فإنه لم يكن هناك أى ظل للسطلة على أى من هذه الجهات للدولة العثمانية ومن ثم فإنه لم يكن يوجد أى مبرر لمحاولة الباشا اعادة السيطرة على المناطق التى تحيط بعدن (١) . ولكنه يبدو أن سياسة الدولة بعد افتتاح القناة هى محاولة للقضاء على النفوذ البريطاني ، وقد وافق جرانفيل (Granville) على مذكرة أعدها السير اليوت ((Elliot)) لتقديمها للباب العالي (٢) ، وفي ٣ فبراير أبلغ السير اليوت ((Elliot)) الصدر الأعظم بامتنانه لتأكيدات خليل باشا بعدم القيام بأية اجراءات ضد سلطان لحج قبل الرجوع والتفاهم في ذلك مع الحكومة البريطانية ، فأجاب الصدر الأعظم بأنه قد فوض وزير الخارجية التركية تفويضاً كاملاً بالنسبة لهذا الموضوع ، ولكى يزيد الأمر تأكيداً اتخذ مجلس الوزراء التركى قراراً بذلك ووضع تحت تصرف السلطان وقد أبدى السير اليوت ((Elliot)) عند مقابلته لخليل باشا شكره الجزيل لما قاله الصدر الأعظم إلا أن خليل باشا علق على ذلك بأن مجلس الوزراء قد فوضه فعلاً بالنسبة لهذا الموضوع ، الا أن مجلس الوزراء قرر في نفس الوقت أن يبذل وزير الخارجية جهده للحصول على موافقة الحكومة البريطانية بأن يقدم سلطان لحج خضوعه الاسمى للسلطان دون أن يلتزم بدفع أية ضريبة لخزانة الدولة العثمانية أو تقديم أية خدمة لها ، وأجاب اليوت على ذلك بانه يأمل ألاّ يقدم هذا الاقتراح للحكومة البريطانية لأنه متأكد تماماً بأنه ليس هناك احتمال لقبوله ، كما أشار اليوت ((Elliot)) الى أن مشكلة الأرض المتنازع عليها ليست أمراً جديداً ، فمنذ سنة ١٨٣٩ م عندما كان والي مصر مسيطراً على اليمن فإنه اعترف بأن الجبال الواقعة شمالي سهل لحج تشكل حدود اليمن ، وأضاف اليوت ((Elliot)) : « ان حكومة جلالة الملكة لن تقف مكتوفة الأيدى أمام أى ضغط على القبائل المستقلة والتى تقطن المنطقة الواقعة قرب برزخ باب المندب » .. ويبدو أن الباب العالي لم يكن يود أن تسوء العلاقات بينه وبين الحكومة البريطانية ، وفي نفس الوقت كان راغباً في اختيار أفضل وسيلة للتراجع بعد الموقف الذى وضعته فيه الاجراءات التهديدية لوالى صنعاء ..

---

1. C.R.T.P. Enclosure 5. Memarrdum Jan. 24, 1873.
2. C.R.T.P. No. 6, Earl Granville to Sir H. Elliot Feb. 15, 1873.

ولا ريب أن هناك خوفاً من أن أى تنازل من جانب السلطان قد يكون مظهراً من مظاهر الضعف وانتقاص سلطته على الأقاليم المعترف له فيها بالسلطة (١) ، ويبدو أن هذه الاجراءات كان لها أثرها اذ وضع الباب العالي سياسة على أساس عدم القيام بأية عملية عدائية ضد الرؤساء العرب في المنطقة المجاورة لعدن (٢) ، كما أبلغ الصدر الأعظم السير اليوت ((Elliot)) أنه أصدر أمراً للحاكم العام لليمن بأن يكف عن التدخل في شؤون حاكم لحج أو مضايقته ، وأن يترك الأمور تسير في المنطقة المجاورة لعدن كما كانت في السابق (٣) ، وكان الباب قد تنرع للسير اليوت ((Elliot)) بأن سلطان لحج هو النذى حاول الاتصال بحكومة السلطان دون أن يطلب منه ذلك (٤)

تطورت الأمور تطوراً جديداً مع بداية شهر مايو سنة ١٨٧٣ م اذ وصلت أنباء لحاكم الهند العام أن الوالي العثماني في تعز أرسل الى الوكيل التركى في عدن بأن المشير في صنعاء أمر بمنح سلطان الحوشبي راتبا شهريا قدره ٥٠ ريالاً ، كما أصدر تعليماته بأن تتقدم قوة عثمانية الى بلاد سلطان الحوشي لحماية بلاده ، واذا كان ذلك قد حدث فعلاً فإنه يكون معارضاً لتأكيدات خليل باشا ٠ (٥) وقد تساءل الحاكم العام للهند عن أحقية الحكومة البريطانية في وضع تلك الأقاليم التى هى تحت حمايتها ، وما يجب أن تقوم به حكومته بالنسبة لادعاء الحكومة العثمانية وكذلك بالنسبة للأقاليم نفسها ٠

وكان الحاكم العام للهند يرى:أن الحكومة البريطانية تبنى أحقيتها في وضع رؤساء هذه الأقاليم على أنها مستقلة عن السيطرة والنفوذ التركى منذ القرن الماضى وأن الحكومة البريطانية قد دخلت في علاقات وطيدة مع هذه الأقاليم دون الرجوع الى الدؤلة العثمانية أو أية قوة أجنبية أخرى، ويمكن القول ان هناك ارتباطات حديثة يمكن أن تتخذ ذريعة لتسويغ ذلك ، ومن ناحية أخرى فقد كان

1. C.R.T.P. No. 4, Sir H. Elliot to Earl Granville Feb, 12. 1873.
2. C.R.T.P. No. 8 Sir H. Elliot to Earl Granville Feb. 12, 1873.
3. C.R.T.P. No. 10, Sir H. Elliot to Earl Granville Feb. 14, 1873.
4. C.R.T.P. No. 12 Sir H. Elliot to Earl Granville Feb. 14, 1873.
5. C.R.T.P. Enclosure in No. 13, The Victory to the Duck, May 19, 1873.

الحاكم العام للهند يرى الاجراءات الحالية التى يتخذها المسؤولون الأتراك تعتبر ضارة للمصالح البريطانية، ولهذا يمكن أن تكون هناك أرضية جيدة لمثل هذه الارتباطات من قبل الحكومة البريطانية مع حكام هذه الأقاليم ، وتمسكنا بهذه الارتباطات هو لصالح الأمن والسلام ، ولن يكون هناك بعد ذلك أى اعتراضات يمكن أن تقدم تجاه احتلالنا لتك المناطق .. ومما يذكر أن العبدلي حاكم أهم وأكبر اقليم في هذه المنطقة قد طلب المساعدة والحماية البريطانية .

ومع أن حكام تلك الأقاليم قد حققوا أنواعاً من الاستقلال ، فإنهم ليسوا تحت سيطرة الحكومة البريطانية ولكن الحكومة البريطانية منحتهم منذ بضع سنين رواتب ، وكانت تتدخل في فض النزاع الداخلى بين تلك الأقاليم ، ولقد كانوا ينظرون لحاكم عدن على أنه صديق وناصح أمين في جميع قضاياهم ، ومشاكلهم أما بالنسبة للظاهرة الثانية والتى تتمثل في حق الحكومة البريطانية في تلك الأقاليم تجاه حكام الأقاليم أنفسهم يمكن أن يلاحظ أنه بينما نعتبر أنفسنا أحراراً في عدم فرض اجراءات نحو هؤلاء الحكام العرب ، فإننا نرى أنه من الضرورى ، ولصالح ممتلكاتنا في عدن أن نكون بعيدين تماماً من فرض أية اجراءات قهرية ، ويمكننا أن نقول ان حماية مصالحنا وأهدافنا تتطابق مع وجهة نظرنا مع مصالح وأهداف حكام الأقاليم وأشار الحاكم العام للهند الى أنه يجب مد الحماية البريطانية لتشمل مناطق العبدلى والفضيلى والعقربى ، والحوشبي والعلوى والأميرى والصبيحى واليافعى والعولقى التى عقدت معها معاهدات في أوقات مختلفة (١) .
وقد اعتمد وزير الخارجية البريطاني جرانفيل ((Granville)) على مذكرة حاكم الهند الأخيرة عند ارساله تعليماته للسير اليوت ((Elliot)) في ١٥ مايو سنة ١٨٧٣ م فقد طلب جرانفيل ((Granville)) بأن يكرر اليوت ((Elliot)) تأكيداته بخصوص تمسك حكومة جلالة الملكة فيما يختص باليمن وأشار الى أنه يجب التمسك بهذه الآراء وذلك بالنسبة للتدخل العثمانى في شؤون القبائل العربية التى حددها الحاكم العام للهند عند المناقشات مع الباب العالى (٢) .

---

1. C.R.T.P. Enclosure 2 ain the No. 13. The Governor Gennd of India in counsil to the Duck of Arglly April 11, 1873.
2. C.R.T.P. No. 13, Earl Granville to Sir Elliot May 15, 1873.

إلا أن الأمور تطورت بسرعة ، فقد وردت تقارير من عدن تفيد بأن مجموعات من الجنود العثمانيين ومؤنهم تتمركز في أراضى الحوشبي في لحج (١) وبدأت بالفعل تحركات للجنود العثمانيين بالقرب من المناطق المجاورة لعدن ، وهذا لا يتطابق مع التأكيدات التى سبق أن أعطاها الباب العالي ، ثم طلب جرانفيل من السير اليوت الآ يضيع الوقت في ابلاغ ذلك الأمر الى الحكومة العثمانية ، وأن يطلب اصدار تعليمات سريعة لسلطاتها في اليمن لسحب القوات العثمانية الموجودة في المنطقة ، والكف عن القيام بأية أعمال مقلقة للقبائل التى بينها وبين عدن علاقات ودية ، ولا بد من احترام التأكيدات التى أعطيت لحكومة جلالة الملكة بهذا الصدد (٢) ، وقد اتصل السير اليوت بالباب العالي وطالبهم باصدار أوامر في الحال بانسحاب القوات العثمانية التى دخلت في أراضى سلطان الحوشبي ، كما أوضح وجهات النظر البريطانية ، مع اتخاذ لهجة يشوبها التهديد حين قال : « إن الاجراءات التى اتخذتها السلطات العثمانية مست المصالح البريطانية في عدن ، وان حكومة جلالة الملكة تضع في اعتبارها اتخاذ ترتيبات قد تراها ضرورية للمحافظة على سمعتها وأمن المستعمرة البريطانية ، وان مسؤولية اتخاذ هذه الاجراءات تقع على أولئك الذين فضلوا اثارة القلاقل في منطقة ظلت مستقرة مدة طويلة » .

وأجاب رشيد باشا أنه على الرغم من عدم ادراكه صدق ما ادعاه من تأثر المصالح البريطانية في حالة اعتراف الرؤساء العرب في المنطقة بسلطة الباب العالي ، فإنه - أى رشيد باشا - يؤكد بأنه لن يتخذ بعد ذلك أية اجراءات من شأنها أن تدهور العلاقات مع الحكومة البريطانية (٣) . وصدرت بعد ذلك أوامر من الباب العالي للوالي باليمن تقضى بسحب المجموعات العسكرية التى دخلت أراضى الحوشبى (٤) ثم بدأ التدخل واضحاً في بلاد الأميرى واضطرب الموقف على الحدود الجنوبية لليمن ، اذ كان الشيوخ المتحالفون مع بريطانيا بموجب معاهدات وارتباطات يواجهون مصاعب وتهديدات ضخمة من خلال تصرفات العثمانيين ،

---

1. C.R.T.P. No. 14, Earl Granville to Sir Elliot May 23, 1873,
2. C.R.T.P. No. 15, Earl Granville to Sir Elliot June 5, 1873.
3. C.R.T.P. No. 16, Earl Granville to Sir Elliot May 30, 1873.
4. C.R.T.P. No. 17, Earl Granville to Sir Elliot June 1, 1873.

ولاح أن موقف البريطانيين سوف يستمر مزعزعاً في عدن الى أن تصدر التعليمات الى السلطات العثمانية بالاقلاع عن التدخل في شؤون هؤلاء الرؤساء (١) ، وفي الخامس من يونيو ١٨٧٣ م توجه أحمد أيوب باشا الوالي الجديد لليمن ومعه تعليمات مشددة بسحب القوات العسكرية التى عسكرت في قصر الحوشبى ، وأن تظل بعيداً عن التدخل بأية طريقة في شؤون الأقاليم التى تربطها علاقات صداقة مع حكومة جلالة الملكة (٢) .

وفي ٢٧ يونيو سنة ١٨٧٣ م وصلت قوة مكونة من مائتين من الجنود العثمانيين وفيلق قوامه مائتان من الجنود العرب غير النظاميين من قعطبة الى الراحة عاصمة الحوشبى ، وهناك خمسمائة من الجنود العثمانيين وصلوا الى مورساد الصبيحى ، وسوف تتقابل المجموعات التى في الراحة ومورساد في منطقة زائدة ، ويبدو أن تعليمات الباب العالي القاضية بسحب القوات الموجودة في أرض الحوشبي لم تصل بعد الى صنعاء ، (٣) ، واستفسر السير اليوت عن هدف الحوادث الأخيرة بالاضافة الى الاجراءات التى اتخذتها السلطات العثمانية ضد القبائل الواقعة بجوار عدن في الشحر والمكلا ، فأجاب رشيد باشا بأنه قد صدرت تعليمات بالفعل تقضى بانسحاب العثمانيين من أراضى سلطنة الحوشبى ، وقد اتصفت الاجابة بالتبرم بسبب اصدار هذا الأمر ، واسترسل رشيد باشا في اجابته للسير اليوت .. « ليس الوقت الحاضر هو المناسب لمناقشة استقلال الولايات التسع لمقاطعة لحج ، والذى تنادى به الحكومة البريطانية وكذلك بالنسبة لأقليم حضر موت ، ولا نريد مناقشة شرعية المعاهدات التى أبرمتها الحكومة البريطانية مع الأقاليم السابقة الذكر .. »

واستمر رشيد باشا يوضح وجهة النظر العثمانية للسير اليوت بالنسبة لوجود قوات عثمانية على أراضى الحوشبى .. « .. وهى الحادثة الوحيدة التى يمكن

---

1. C.R.T.P Enclosure 2 in No. 19 regadier General Schneider to Mr. Gonne May 12, 1873.
2. C.R.T.P. No. 20 Sir H.Elliot to Earl Granville June 10, 1873.
3. C.R.T.P No. 21 Schneider to Duck of Argyll June 27. 1873.

للحكومة البريطانية التحدث عنها ، ولا تعتبر كافية لكى يوصف بها الموقف ككل
وعلاوة على ذلك فإن الحكومة العثمانية بدأت تعطى أوامرها بسحب قواتها من
أراضي الحوشبي فوراً » أما بالنسبة لوجود مسؤولين عثمانيين في شكا والمكلا
وكذلك الأقاليم التسع التى يربطها تحالف مع الحكومة البريطانية فلم يجد تفسيراً
لذلك الا أنه أشار الى السفن التى تحمل العلم العثماني والتى تتردد على حضر موت
فإنها تمر بغرض ازدهار التجارة وسد حاجات السكان المتزايدة كنتيجة حتمية
للتطور والحضارة ، وذلك يبرهن على ازدياد التجارة وتقدم الحضارة ، الشيء الذى
ترضى عنه بريطانيا ، وأضاف رشيد باشا أن السياسة العثمانية في اليمن تهدف الى
المحافظة على حسن الجوار ، والعمل على التقدم التجارى مع الاحترام الكامل
لعادات وتقاليد السكان في المناطق المجاورة .. وأضاف قائلاً .. « ونحن نلاحظ بكل
سرور أن تلك الأقاليم المجاورة لعدن تحتفظ بعلاقات ودية مع السلطات
البريطانية ونحن مسرورون أيضا من أن هؤلاء السكان يستفيدون من وجود سوق
رابحة لمنتجاتهم في أسواق عدن ، وأن ليس من هدفنا تغيير مثل هذه الأوضاع .. »
واختتم رشيد باشا كلماته باعرابه عن أمله واعتقاده بأن تكون هذه التفسيرات
الصريحة نهاية للاجراءات التى تقوم بها بريطانيا وتزيل الشك للحادث المؤسف
له والخاص بأراضى الحوشبى (١) ، وعلى الرغم من كل التأكيدات فإن الوالي
الجديد لليمن أحمد أيوب باشا والذى قيل بأن معه تعليمات تقضى بسحب
الجنود العثمانيين من أراضى الحوشبي لم يقم بسحب الجنود العثمانيين من شكا ،
بل وصلت ثلاثون فرقة من الجنود غير النظاميين لدعم القوة الموجودة هناك ، وكان
ذلك في ٢٦ يوليو سنة ١٨٧٣ م (٢) ، وفسر رشيد الأحداث الأخيرة بقوله .. « إنه
يجب على حكومة جلالة الملكة أن تتأكد من التعليمات الواضحة التى أعطيت
للوالى العثماني الجديد لليمن كى يبتعد عن التدخل في شؤون الأقاليم المجاورة
لليمن ، والتى يربطها تحالف مع الحكومة البريطانية » (٣) .. وأبرق رشيد باشا

---

1. C.R.T.P Enclosure No. 23 Raschid Pasha to Sir H. Elliot July 15, 1873.
2. C.R.T.P Enclosure in No. 24 General Schneirder to the Duck of Argyll July 30, 1873.
3. C.R.T.P Enclosure in No.25 Sir H.Elliot to Earl Granville August 5, 1873.

لتأكيد ذلك عن طريق والى مصر الى الوالي الجديد لليمن بأن يسحب القوات العسكرية في المناطق التى جاءت في التعليمات المرسلة أخيراً (١) ، وأرسل أحمد أيوب باشا خطاباً على الرغم من تعليمات حكومته بسحب قواته من أراضى الحوشبى الى سلطان لحج باسم الشيخ فضل بن محسن وجاء في هذا الخطاب أن الاجابة التى سبق أن أرسلها سلطان لحج الى الوالى السابق لليمن أحمد مختار بتاريخ يوليو قد وصلته وأنه استخلص منها أن السلطان فضل قد سلم خطاب أحمد مختار باشا الى الجنرال شنيدر ((Chneider)) المقيم السامي في عدن ، واضاف أحمد أيوب أنه : .. « يجب أن يكون مفهوماً أن الحكومة العثمانية لن تتخلى عن حقها في سيادتها التى يجب أن تحرسها وتحميها ، ومن تسوّل له نفسه أن لا يقدم ولاءه ، فإن الحكومة العثمانية سوف تعاقب أولئك في طريق الضلال (٢) » .. واعتبرت الحكومة البريطانية هذا الخطاب مخالفة صريحة للتأكيدات التى سبق أن قدمها الباب العالى للحكومة البريطانية (٣) ، واقترح بعد ذلك الجنرال شنيدر (Chneider)) المقيم السامي في عدن ارسال خطاب الى أحمد أيوب باشا لكى يعلم أن المقيم يعلم بالتعليمات والأوامر المعطاة له من الحكومة العثمانية ، وجاء في خطابه قوله : « اننا نضع أمام فخامتكم أن الكتائب العثمانية سواء النظامية أو غير النظامية ، والتى أرسلت بواسطة سلفك أحمد مختار باشا الى شكا في اقليم الحوشبى لم تنسحب حتى الآن ، ولقد تلقينا منذ فترة من الحكومة البريطانية أن فخامتكم قد أرسلت من استنبول بتعليمات من حكومة الباب العالي بسحب القوات السابق ذكرها من أراضى الحوشبى ، ونحن نثق في سعادتكم بأنك سوف تنفذ ماجاء في التعليمات ، وأن تسمحوا بعودة الأمور الى ماكانت عليه في حالتها الطبيعية ، وذلك بعدم التدخل في شؤون الرؤساء الذين تربطهم معاهدات مع الحكومة البريطانية أو يتقاضون رواتب منها » (٤) .

---

1. C.R.T.P No. 26 Sir H.Elliot to Earl Granville Sep. 8,1873.
2. C.R.T.P Enclosure 3 in No. 27 Ahmed Ayot to Fadhl Bin Mohsin July 27, 1873.
3. C.R.T.P Enclosure 3 in No 27 General Chneider to Gonne Auguts 21, 1873.
4. C.R.T.P Enclosure 2 in No. 27 General Chneider to Gonne August 21, 1873.

إلا أن الجنود العثمانيين ظلوا مرابطين في شكا ورفضوا الانسحاب منها ، (١) .. كما أن والى اليمن أحمد أيوب باشا أجاب على خطاب المقيم السامي شنيدر ((Chneider)) السابق والخاص بسحب القوات العثمانية من شكا طبقاً للتعليمات الموجهة له من الباب العالي ، وتجاهل هذه الأوامر والتعليمات ، وأوضح أن أقليم الحوشبى ألحق بتعز (٢) ، ونقلت هذه المعلومات الى وزارة الخارجية البريطانية ، واتصل جرانفيل بالسير اليوت ، وأبلغه بضرورة الاتصال برشيد باشا كى يصدر تعليمات وأوامر أكثر صرامة لوالي اليمن أحمد أيوب باشا (٣) ، وقد وضع أحمد أيوب باشا وجهة نظره في تقرير جاء فيه ، « .. يوجد بين هذه الأقاليم اقليم يسمى الصبيحى ، وبعض الأماكن على الساحل والتى تعتمد على البن ، وهم في حالة هدوء ، وهؤلاء رغبة منهم ، وبتوجيه من شيوخهم قرروا أن يكونوا تحت ظلال الباب العالي ، لذلك ليس من الضرورى ارسال قوة عسكرية .. أما بالنسبة للحوشبى فقد وافقوا بمحض رغبتهم أن يكونوا خاضعين للباب العالي ، وأن الوالي عين لحكمهم المشير على مانى أفندى ، وهم في حالة هدوء وطاعة ، ولا يستلزم الأمر ارسال قوات عسكرية ، ولرغبة هؤلاء السكان الملحة في أن يصبحوا رعايا عثمانيين ، فإن فضل محسن شيخ لحج أصبح عدوا لهم ، لذلك أخذ يضطهدهم ، ويتعدى على حقوقهم وتبعاً لذلك فإنهم طلبوا الحماية ، وتمشياً مع هدف المحافظة على حقوق الباب العالي والهدوء في تلك المناطق فإنه يجب ارسال قوة عسكرية اذا دعت الضرورة لذلك » كما أشار أحمد أيوب الى أن السلطان فضل بن محسن أخذ يتدخل في شؤون سكان المناطق المجاورة ، والتى هى تحت حكم المشير على مانى ، وهى مقر الحكومة المحلية ، كما ازدادت شكاوى وهمسات الناس تجاه هذه الأفعال ، وأمر الوالى بأن يخبر السلطان فضل بأنه اذا كانت له ممتلكات في هذه المنطقة فسوف يسمح له بالمحافظة عليها شريطة ألا يتعدى ، على حقوق الآخرين ، وأن يخضع لتعليمات الحكومة العثمانية وإلا فسوف تضطره السلطات العثمانية الى ترك المنطقة ٠ (٤)

---

1. C.R.T.P N0. 28 John Koye to Lord Tenteden Oct. 10, 1873.
2. C.R.T.P Enclosure in No. 28 Chneider to the Dukeof Argyll October 10' 1873.
3. C.R.T.P Granville to Sir H.Elloit October 17, 1873.
4. C.R.T.P Enclosure 3 in N0. 35 the Governer General of the Yemen to the Grand Vizier August 6, 1873.

واتخذ التدخل العثماني شكلاً آخر بالنسبة لسلطنة لحج ففى ٢٥ أغسطس زار السلطان فضل سلطان لحج المقيم السامي البريطاني في عدن ، وقدم شكوى في تصرف أخويه عبد الله وعبد الكريم ، وابنه فضل بن عبد الكريم الذى أرسل الى تعز وصنعاء دون اذن من السلطان ، وذلك بغرض تقديم فروض الولاء والطاعة للسلطات العثمانية نيابة عن شقيقي السلطان عبد الله وعبد الكريم ، وحمل فضل ابن عبد الكريم عند عودته رسائل من الباشا كان القصد منها اضعاف موقف السلطان في سلطنة لحج ، والذى كان يخشى من محاسبة سوء تصرف اخوانه الذين يعيشون في منزل حصين ، وأى تصرف منه يؤدى الى حدوث صدام دموى ، واقترح السلطان فضل على المقيم السامي في عدن بايقاف مرتبات أخويه ، ومنع أى شخص يريد أن يزرع في الأراضى التابعة له ، وذلك عقاباً لأخويه ، إلا أن المقيم السامي وافق على ايقاف المرتبات ولم يوافق على منع الزراعة في أراضيهم ، واعتبر ذلك عقاباً ضمنياً للزراع ، كما أرسل المقيم السامي في عدن تحذيراً باسم الحكومة البريطانية للأخوين عبد الله وعبد الكريم بانهما اذا استمرا في أعمالهما المعارضة لرغبات وتعليمات السلطة الحاكمة في لحج ، فإن الحكومة البريطانية لن تتردد في طردهما من البلد (١) .. وتطورت الأمور بعد ذلك اذ هاجم أتباع عبد الله أخ السلطان فضل في ٢٠ اكتوبر سنة ١٨٧٣ م سوقاً في لحج ، إلا أن السلطان فضلًا استطاع القضاء على هذه الحركة بعد أن قتل اثنان وجرح عشرة من الجانبين وتوسط الشيوخ بين السلطان فضل وشقيقه عبد الله الذى أعطى للسلطان ولده وولد عبد الكريم كرهائن دليلاً على حسن النية ، إلا أنه بعد ذلك قامت مجموعة مسلحة من الجنود العثمانيين وعددها ٢٥ جنديا ، جاءت من شكا واحتلت منزل عبد الله المحصن في لحج ، وطلب قائدها من السلطان اعطاءه الرهائن لأن عبد الله وأخاه عبد الكريم قاما بمهمتهما وأصبحا رعايا عثمانيين .. ولكن السلطان رفض تسليم الرهائن ، واتصل من الناحية الأخرى المقيم السامي بقائد المجموعة ، وطلب منهم مغادرة لحج وإلا فسوف يصبح مسؤولا عن النتائج كما أوصى المقيم

---

1. C.R.T.P Enclosure 2 in No. 34 General Chnerider to Mr. Gonne August 26, 1873.

البريطانى سلطان لحج بعدم الاحتكاك بالجنود العثمانيين الذين نزلوا في منزل أخيه عبد الله ، لأن ذلك سيعقد الأمور ، .. وكانت وجهة نظر البريطانيين في حالة عدم انسحاب القوات العثمانية من لحج أنه يجب ارسال مجموعة عسكرية الى هناك (١) . إلا أن قائد المجموعة العثمانية تلكأ في الانسحاب بقواته من لحج ، وذكر أنه في لحج بموجب تعليمات من قائده ، وأنه يمثل حاكم تعز ، وذكر أنه مسؤول تماما عن حماية عبد الله على اعتبار أنه من رعايا العثمانيين (٢)

وبذلك يكون العثمانيون قد استغلوا الصراع الناشب بين أفراد الأسرة الحاكمة في لحج وكانوا على استعداد لمواصلة خطتهم في استرجاع عدن وتأكيد سيادتهم عليها

واتخذ الموقف بعد ذلك طابعاً خطيراً ، وأمر نائب الملك في الهند المقيم السامي في عدن بإرسال قوات بريطانية لحماية سلطان لحج على ألاّ يهاجم القوات العثمانية (٣) ، واتصل جرانفيل بالسير اليوت لمناقشة الوضع مع الباب العالى وقام اليوت باتصالات جديدة جددت بموجبها الحكومة العثمانية تعليماتها لوالى اليمن بعدم التدخل في شؤون القبائل المستقلة ، وحذر السير اليوت رشيد باشا بأنه « اذا لم تحترم الحكومة العثمانية الوعد الذى أعطته لحكومة جلالة الملكة بخصوص هذا الصدد ، فإن ذلك سيؤدى الى عواقب وخيمة ، وأجابه رشيد باشا .. « بأن الأوامر التي صدرت للوالي كافية ، وأنه لا يتوقع عدم احترامها ، ومقتنع بأن تكرار هذه الأوامر سوف يكون لها تأثير» . (٤) ودعمت الحكومة البريطانية نتيجة للتدخل العثمانى في الأراضى المجاورة لعدن قاعدتها في لحج بمجموعة عسكرية مكونة من مدفعية ومشاة من البريطانيين ومهندسين عسكريين ورجال من العرب الموالين للبريطانيين ، وذلك تحت قيادة الكولونيل ماكنزى ((Mackenzie)) وذلك لمعاونة سلطان لحج ، كما أن هناك مجموعة أخرى مكونة من ٥٠ رجلاً من حاملى السيوف بقيادة هنتر ((Hanter)) توجهوا الى لحج ، وكان الفرض

1. C.R.T.P Enclosure 1 No. 31 General Schneider to Duck of Argyll October 20, 1873.
2. C.R.T.P Enclosure 5 No. 36 General Schneider to Duck of Argyll October 27, 1873.
3. C.R.T.P Enclosure 3 No. 31 the Victory of India to the Duck of Argyll October 22, 1873.
4. C.R.T.P No. 33 Sir H.Elliot to Earl Granville Oct. 14, 1873.

من هذه القوات مواجهة التدخل العثماني المتزايد في المنطقة بدليل أنه عندما قام سلطان لحج بزيارة المقيم السامي للمرة الثانية وطلب مساعدته في القبض على أخويه فأجاب شنيدر ((Chneider)) « بأن السلطان هو الحاكم لبلاده ويجب عليه أن يكون قادراً على أداء واجبه الأمنى .. وأن تدخل الحكومة في مثل هذه الحالة سوف يضعف سلطته بين الناس ، وإننى متأكد أن الحكومة لا توافق على الاشتراك في اتخاذ أية اجراءات ضد أشقائه » (١) .

وفي ٧ نوفمبر سنة ١٨٧٣ م تقابل السير اليوت ((Elliot)) مع رشيد باشا موضحاً خطورة السياسة التى رسمتها السلطات العثمانية في اليمن بالنسبة للأراضى العربية والتى تربطها بحكومة جلالة الملكة معاهدات ، وأن اجراءاتهم تتعارض كثيراً مع التأكيدات التى سبق أن قدمها الباب العالي للحكومة البريطانية في مناسبات كثيرة ، وتماطل رشيد باشا في اجابته، وتساءل هل تحدث السير اليوت مع الصدر الأعظم بخصوص هذا الموضوع ، فأجابه اليوت بأنه أبلغه بها وكذلك حثه على اتخاذ اجراءات سريعة لتدارك الموقف ، ثم أبلغه رشيد باشا بأنه قرر ارسال كامل باشا الحاكم العام للقدس الى اليمن بوصفه مندوباً عن الحكومة لتقصى الحقائق ، لتكون الحكومة على علم بالموقف السياسى ، ووعد بأن الأوامر الى الحاكم العام لن تقلق القبائل ، وأجابه السير اليوت على ذلك بأنه « مما يدعو للسرور اعطاء هذا الوعد ، إلا أنه مما يبطل قيمته أنه قد أعطى قبل ذلك أكثر من مرة دون أية نتيجة » (٢) ، وفي ١٦ نوفمبر وصل عزول باشا ومعه بعض المسؤولين العثمانيين لحج ، حاملين خطابا من والي اليمن يطلب فيه المساعدة في احلال السلام بين السلطان وأخيه عبد الله ، إلا أن المقيم البريطاني أخبر الباشا أن الحكومة البريطانية تنتظر انسحاب القوات العثمانية من لحج والحوشبى طبقاً للأوامر والتأكيدات التى أعطيت من قبل الحكومة العثمانية ، كذلك أن سلطان لحج لا يرغب في أن يتدخل العثمانيون في حل المسألة بينه وبين أخيه عبد الله ويجب أن يكون خضوع عبد الله بلا قيد ولا شرط للسلطان فضل ، وأجاب عزول

1. C.R.T.P Enclosure 5 in No 136 Schneider to Mr. Gonne October 20, 1873.

2. C.R.T.P. No. 41 Sir Elliot to Earl Granville Nov. 7, 1873.

باشا بأن عبد الله تحت حماية العثمانيين، لهذا فإن القوات العثمانية جاءت لكى تحميه من السلطان - سلطان لحج - وذكر عزول بأنه لم يتسلم أوامر بخصوص الحوشبي أو بقية الرؤساء الذين تربطهم معاهدات بالحكومة البريطانية ،
وتسلم سلطان لحج خطاباً من قائد القوات في تعز قال فيه : « إن شهر رمضان يقترب وان القوات العثمانية في شكا تعانى من الازدحام » لذلك يطلب السماح له بايواء بعض منهم في زائدة حيث يملك سلطان لحج قلعة صغيرة وحامية عسكرية ، وأشار المقيم السامي على السلطان أن يرفض السماح بذلك وأن يذكر سلطان لحج في اجابته على القائد بأنه قد علم أن الحكومة العثمانية قد أصدرت أوامر بانسحاب القوات العسكرية من مقاطعة الحوشبى . كما أشار المقيم أيضاً بعدم ارجاع الرهائن ، وأن يتجنب السلطان أى هجوم ضد القوات العثمانية . كما أرسل المقيم السامي خطابين الى المتصرف العثمانى في تعز ، والى قائد الكتيبة العثمانية التى في منزل عبد الله بخصوص اتخاذهم اجراءات تخالف تماماً للأوامر والتعليمات التى صدرت من قبل الحكومة العثمانية ، كما أن الكابتن هنتر ((Hanter)) أرسل الى لحج ليساعد السلطان ، ويشرح للقائد العثمانى سخف الموقف الذى اتخذ من قبل المسئوولين وذلك في حالة عدم انسحاب القوات العثمانية . (١) .

ولم تنسحب القوات العثمانية من لحج والحوشبي وتعقدت الأمور ، وازدادت حدة النزاع بين السلطان واخوته ، وذلك بسبب وجود القوات العثمانية ، لأن سلطان لحج لا يرغب في تدخل العثمانيين الموجودين للدفاع عن عبد الله الذى كان تحت الحماية العثمانية . (٢) وانتقلت المحادثات مرة أخرى الى استانبول ، حيث اجتمع السفير البريطانى السير اليوت بالباب العالي ورشيد باشا ، وتحدث معهما بشأن استمرار احتلال اقليم الحوشبى من قبل القوات العثمانية مبيناً اهتمام حكومة جلالة الملكة بهذه المسألة ، وفي ١٤ نوفمبر أخبر رشيد باشا السير اليوت بأنه يجب ارسال برقية في الحال الى والي اليمن وتساءل اليوت عن الضمان الذى يمكن تقديمه لحكومة جلالة الملكة ، فأجاب أن القرار قد اتخذ من مجلس الوزراء

1. C.R.T.P Enclosure 3 in No. 42 Schneider to Mr. Gonne October 22, 1873.
2. C.R.T.P No. 43 Earl Granville to Sir H.Elliot Nov. 19, 1873..

العثمانى ولا يمكن اهماله (١) ، وأرسل الصدر الأعظم برقية الى والي اليمن في ١٥ نوفمبر سنة ١٨٧٣ م .. « .. إنني فهمت من خطابك الأخير بأن لحج ليست لها علاقة مع اقليم الحوشبى ، وبناء على طلب بعض شيوخ الاقليم أرسلت اليها بعض القوات العسكرية ، وفي رأيى أنك فعلت هذا العمل تحت تأثير سوء الفهم عندما أرسلت القوات الى تلك المنطقة. لذلك يجب عليك سحب تلك القوات والضباط في الحال ، كذلك أية قوات تكون قد أرسلتها الى أى مكان آخر في لحج ، ويجب عليك أن ترسل لى تقريراً عما تم عمله طبقاً لهذه الأوامر » إلا أن العثمانيين قلقوا من وجود قوات بريطانية في لحج فاتصل موسورس باشا ((Musures)) السفير العثماني في لندن ، بوزير الخارجية البريطاني جرانفيل (Granville) وسلمه خطاباً من رشيد باشا جاء فيه ، ان ارسال فرقة من خمسمائة جندى من عدن لمنع احتلال لحج بواسطة القوات العثمانية يعد اجراء راجعاً الى سوء الفهم الناتج عن حادثة شيخ لحج. ومن المحتمل أن وجود بعض الجنود العثمانيين في أراضى لحج جذب أنظار السلطات البريطانية التى أثارتها التقارير المبالغ فيها ، ولكن السير اليوت قد تأكد سابقاً بأن الحكومة العثمانية ليست لديها نوايا للاحتلال ، وهذه حقيقة .. لأن حكومة الباب العالي لم تدخر جهداً عندما وصلت اليها التفسيرات غير المتفقة مع ما يعنيه حادث سلطان لحج ، فأرسلت تعليمات سريعة للذين يمثلون السلطات العثمانية ، كذلك على القوات العثمانية أن تتجنب أي عمل ممكن أن يظهر للواقع هذه التفسيرات التى وضعت من قبل الحكومة البريطانية لحادث سلطان لحج ، وأعتقد أنه كان كافياً اخبار لورد جرانفيل بما جاء سابقاً واعطاء تأكيدات رسمية بحسن نوايانا ، والبرهنة بأن المقياس الذى اتخذ كذريعة من قبل الحكومة البريطانية لا يمثل الحقيقة (٢) . وعلق وزير الخارجية البريطاني ((Granville)) للسفير العثمانى في لندن عن موقف بريطانيا بعد سحب القوات العثمانية من لحج والحوشبى .. « .. انه بعد حل المسألة تماماً ، فأنا لا أتصور أن هناك أى غرض لوجود القوات

---

1. C.R.T.P No. 45 Sir H.Elliot to Granville Nov. 14, 1873.
2. C.R.T.P No. 46 Rachid Pasha to Musures Pacha Nov. 27, 1873.

البريطانية » (١) .. ولازالة الشكوك ، ولتجنب سوء الفهم في المستقبل ، فقد اتصل السير اليوت برشيد باشا للتأكد من أن التعليمات الحالية تكون قد فهمت بحيث تطبق على كل الأقاليم التى تربطها معاهدات مع الحكومة ، والذى وعد الباب العالي بعدم ازعاجها ، فأجاب رشيد باشا بأن ذلك ما تعنيه التعليمات التى أصدرها » (٢) ، ويبدو من خلال ذلك نجاح الدبلوماسية البريطانية ، وعدم رغبة الدولة العثمانية الدخول في صدام مكشوف مع القوات البريطانية ، لذلك انسحب الأتراك في السادس من ديسمبر سنة ١٨٧٣ م من لحج وشكا ، كما خلت المنطقة بين لحج وتعز من القوات العثمانية (٣) .. وأن شقيقي سلطان لحج استسلما للمندوب السامي في عدن ، الذي أرسلهما الى سجن الدولة في عدن وكانت الحكومة البريطانية غير واثقة من تأكيدات الباب العالى ، لذلك أرسل السير اليوت السفير البريطانى في استانبول مذكرة الى رشيد باشا أشار فيها أن لغة التعليمات المرسلة لوالي اليمن لم تكن واضحة بحيث يمكن تطبيقها على جميع أنحاء البلاد التى بينها وبين بريطانيا معاهدات والتي تعهد الباب العالي في يولية الماضى بعدم ازعاجها ، واسترسل اليوت في مذكرته .. « وعلى الرغم من توضيحى لفخامتكم ماجاء في البرقية ، فإنك أكدت لى أن الأوامر سوف تفهم بحيث تطبق على جميع أنحاء البلاد التى ارتبط حكامها مع بريطانيا بمعاهدات ، لذلك فليس من الضرورى العودة لعدم الفهم ، والذى يمكن أن تقوله فخامتكم مستقبلاً ، وانى أتمنى ارسال تعليمات اضافية لوالي اليمن لقطع الشك عنده ، وتوضيح الأمور بخصوص الموضوع .. » (٤) .. ووعد رشيد باشا بأن التعليمات سوف ترسل حالاً لوالى اليمن ، كما كرر القول بأن الباب العالى ملتزم بالحل الذى أعلنه بخصوص الأقاليم التى جاءت في الموضوع ، ويأمل أن تسحب حكومة جلالة الملكة القوات التى أرسلت الى عدن .. وأجاب السير اليوت على ذلك بأنه لا يملك أية معلومات بخصوص تلك القوات ، لكن حذره بأنه في حالة عدم تنفيذ القادة العثمانيين للوعود التى أصدرها الباب العالى ، فإن حكومة جلالة الملكة ربما تفكر

1. C.R.T.P No. 50 Sir H.Elliot to Earll Granville Nov. 21, 1873.
2. C.R.T.P No. 47 Earl Granville to Sir Elliot Nov. 27, 1873.
3. C.R.T.P No. 53 Earl Granville to sit Elliot Dec. 9, 1873.
4. C.R.T.P Enclosure in No. 56 Sir H. Elliot to Racshid Pasha Nov. 13 1873.

أنه من الضرورى اتخاذ بعض الأعمال لحماية المقاطعات التى شملها التهديد من قبل القوات العثمانية (١) ..

وهكذا انتهت المفاوضات الدبلوماسية بين الحكومتين البريطانية والعثمانية بأن استخلص السفير البريطانى في استانبول تأكيداً خاصاً من الحكومة العثمانية في اليمن ينص على عدم التدخل في شؤون الرؤساء المرتبطين بعلاقات مع حكومة جلالة الملكة ، وكان هذا هو الموقف العام الذى ساد المنطقة سنة ١٨٧٣ م ٠

وبعد انسحاب العثمانيين من أراضى الحوشبى والعبدلى ، لم ينسحبوا من امارة دثينة التي تقع في أراضي الأميرى ، شمال أراضى الحوشبى ، وكان من الطبيعى أن يستولى العثمانيون على هذه الامارة عند تقدمهم الى أراضى الحوشبى ولحج ، كذلك فإنه من وجهة النظر البريطانية يجب أن يتبع انسحابهم من أراضى الحوشبى والعبدلى انسحابهم من أراضى الأميرى ، وفي يونيو سنة ١٨٧٥ م

أرسل السفير البريطانى في الاستانة مذكرة الى الباب العالى أشار فيها الى استمرار والي اليمن العثماني في عدم اطاعة تعليمات الحكومة العثمانية بشأن سحب قواتها ، وطالب بارسال أوامر سريعة تقضى بسحب أية قوة عثمانية قد تكون في أراضى القبائل التسع ، وخصوصاً دثينة .. وأجابت الحكومة العثمانية أنها أمرت بالفعل بسحب قواتها ، ونتيجة لضغط الحكومة البريطانية على الباب العالي انسحبت القوات العثمانية النظامية من دثينة وبقيت بعض القوات غير النظامية وموظفون عثمانيون ، إلا أن المقيم السامي البريطانى عبر عن تخوفه من استمرار التدخل العثمانى في دثينة وذلك في مذكرة بعث بها الى الحكومة البريطانية ، ونتيجة لهذه المذكرة بعث السير اليوت ((Elliot)) بمذكرة شديدة اللهجة في ١٢ سبتمبر سنة ١٨٧٦ م الى وزير الخارجية العثماني أشار فيها الى أن تأكيدات حكومة الدولة العثمانية لم تنفذ، وأن هناك محاولات لضم جزء من أراضى الأميرى الى

---

1. C.R.T.P No. 56 Sir H. Elliot to Earl Granville Dec. 2, 1873

الممتلكات العثمانية ، وأن الحكومة البريطانية لا يمكنها الاستمرار الى أجل غير محدود ، وتجددت الاحتجاجات التى لا يلتفت اليها ، وأن حكومته كانت تتوقع ارسال تعليمات محددة بسحب كل المسؤولين العثمانيين ، وأن يمتنع المسؤولون العثمانيون عن التدخل في أراضى الأميرى ، وفي غضون ذلك الوقت كان

للاحتجاجات البريطانية بعض الأثر ، فانسحب العثمانيون من بعض مناطق دثينة إلا أنهم لم ينسحبوا من كل الأقاليم (١) ، ولكن الخلاف ظل قائماً بين الحكومتين العثمانية والبريطانية بشأن دثينة ، وهل هى واقعة داخل منطقة النفوذ العثماني أم البريطاني ، وفي محاولة لازالة ذلك الغموض صدرت تعليمات الى المقيم السامي في عدن في مارس سنة ١٨٧٧ بأن يتفاوض مع والى اليمن لتنظيم الحدود بين الممتلكات العثمانية والقبائل التسع المتعاقدة مع الحكومة البريطانية ، وظل الأمر معلقاً حتى سنة ١٨٨٠ م حينما أرسل الكولونيل ستيفنس ((Stevens)) بغرض تحديد الحدود الفعلية لأراضى الأميرى التى تقع فيها أمارة دثينة (٢) ،

وكانت بريطانيا قد أرسلت قوات من الهند لتهديد الثائرين والعثمانيين المجاورين للمحميات ، واستمر هذا النضال السياسي حتى سنة ١٨٧٨ م عندما تم للبريطانيين شراء الأراضى المشرفة على خليج عدن ، المعروفة باسم أراضى الشيخ عثمان ، وذلك لتأمين منطقة عدن ضد أى هجوم قد يقوم به العثمانيون أو الشيوخ الآخرون ، (٣) أما بالنسبة لرؤساء القبائل المعترف بهم من السلطات البريطانية ، فقد يواجهون صعوبات متفاوتة الدرجات في فرض سيطرتهم على القبائل المتمردة أحياناً والناقمين ، والمغامرين ، والمعادين لبريطانيا ، والذين يجدون لهم في اليمن دائماً عوناً وملجأ ، وأسلحة وذخائر في بعض الأحيان تشجيعاً للثورة (٤) ، وليس غريباً في أن تكون هذه المساعدات من قبل الأئمة الزيود أو العثمانيين ٠

---

١ ـ جاد طه ، سياسة بريطانيا في جنوب اليمن ، ص ٢٨٧ ـ ٢٩١ ٠

٢ ـ جاد طه ، سياسة بريطانيا في جنوب اليمن ، ص ٣٠٠ ٠

٣ ـ محمد الشرقاوى ، الاستعمار البريطاني في جنوب اليمن ، ص ١٥ ٠

٤ ـ جان جاك بيربى ، جزيرة العرب ، ص ١٨٢ ٠

ويتضح من العرض السابق أن افتتاح قناة السويس سنة ١٨٦٩ م ساعد الدولة العثمانية على اقامة حكم فعال في منطقة عسير والمخلاف السليمانى ، التى ارتبطت ارتباطاً مباشراً بالدولة مما سهل عليها التحكم في شؤون تلك المناطق ، وبعد ذلك اتجهت الدولة بكل ثقة الى اليمن فأعادت الهدوء والسكينة اليها بعد صراع طويل ومرير بين الأئمة الزيدية ، كما استطاعت الدولة أن تطبق نوعاً من نظام الولايات كما أسلفنا القول ، ولحماية ذلك أوجدت الدولة جيشاً كبيراً في المنطقة عرف بالجيش السابع ، وتثبيت سلطة الدولة العثمانية في تلك المناطق ، عسير والمخلاف السليماني ثم اليمن كان بمثابة خطوة دفاعية لتأمين الحجاز ، أو بمعنى آخر لتأمين مركز الدولة في الأماكن المقدسة ، وكان فتح قناة السويس للملاحة البحرية في ١٧ نوفمبر سنة ١٨٦٩ م ، هو الذى أدى الى زيادة اهتمام العثمانيين بالبحر الأحمر الذى أصبح أهم طريق للمواصلات الدولية بين الشرق والغرب ، وبسواحل الجزيرة العربية المطلة على هذا البحر ، وخاصة الساحل اليمنى الذى أصبح البريطانيون يسيطرون على جانبه الجنوبى المتحكم في باب المندب ، وذلك بسيطرتهم على عدن سنة ١٨٣٩ م ، وقد رأى العثمانيون بعد افتتاح قناة السويس ضرورة اعادة فرض سيطرتهم الفعلية على عدن بعد أن تضاعفت أهمية موقعها وخطورتها في تهديد القوات العثمانية في اليمن ، لذلك أرادت الدولة مد سيطرتها الفعلية على عدن ليكون لها مركز ممتاز فيها ، ولتستعيد احترام العالم الاسلامى وعلى الأخص العالم العربى . وكانت الدولة تهدف الى جمع الشعور العربى في المنطقة ضد بريطانيا ، إلا أن الدولة أرغمت على الانسحاب ، وخلاصة القول أن فتح القناة قد أضاف آفاقاً جديدة أمام الدولة العثمانية ، جعلها تعيد تقييم سياستها في تلك المناطق ، واعادة السيطرة عليها ، لأن افتتاح قناة السويس للملاحة كان معناه سهولة ارسال الحملات والامدادات من عاصمة الدولة الى غربي الجزيرة

العربية مباشرة مروراً بمصر التى هى احدى ولايات الدولة العثمانية ، هذا بالاضافة الى سرعة وصول المكاتبات والأنباء والتقارير من غربي الجزيرة إلى عاصمة الدولة العثمانية، ومن ثم كانت محاولات الدولة المتعددة التى أشرنا اليها في هذا الفصل والتى انتهت الى النتائج التى أوضحناها في هذا الفصل أيضاً ٠



الفصل الرابع

عوائق استكمال نفوذ الدولة العثمانية على الساحل الغربي للجزيرة العربية

أ - احتلال انجلترا لمصر وسيطرتها على القناة .

ب - النفوذ البريطاني في عدن .

ج - ثورة اليمن .



احتلال انجلترا لمصر وسيطرتها على القناة

مع بداية القرن الثامن عشر أخذت الدول الأوروبية الكبرى تفكر في الطريقة التى تقتسم بها ممتلكات الدولة العثمانية ، وفي احياء الطريق القديم للتجارة ـ طريق مصر ـ واذا نظرنا الى خريطة العالم فاننا نرى مصر ذات موقع استراتيجى .. اذ تقع في ملتقى القارات الثلاث أوروبا ، وآسيا ، وأفريقيا ، وأنها بموقعها الجغرافي الممتاز هنا أقرب وأيسر طريق بين الشرق والغرب ، وأنه ليس من المستحيل وصل البحرين الأبيض المتوسط والأحمر بطريق برى أو بطريق بحرى ، ولا سيما أنه وجد الطريقان في القديم وفي العصور الوسطى ، فقام التنافس بين انجلترا وفرنسا اللتين اهتمتا بأمور مصر ومستقبلها نتيجة لاهتمامهما بفتح الطريق القديم ، ففرنسا كانت وجهة نظرها أن فتح الطريق سيجلب لها متاجر الشرق ، ويلحق بتجارة أعدائها الانجليز ضرراً كبيراً فيرون من ناحيتهم أن فتح هذا الطريق يعد مغنماً كبيراً لتجارتهم واختصاراً للوقت والنفقات (١) ، وبدأ التنافس يشتد بين انجلترا وفرنسا على الاستئثار بالنفوذ الأعلى في مصر ، وكانت فرنسا في السنوات الأخيرة من حكم محمد علي قد صارت صاحبة نفوذ كبير في مصر ، وخشى عباس « ١٨٤٨ ـ ١٨٥٤ » اذا استمر النفوذ الفرنسى يتزايد بواسطة الذين درسوا في فرنسا وتأثروا بمساعي فرنسا التى تعمل لكسب ودهم ، وكان يتزعم هؤلاء عمه محمد سعيد ، خشى عباس أن تتدهور الباشوية المصرية (٢) ، وتصبح مجرد بلاد

---

١ ـ محمد مصطفى صفوت ، انجلترا وقناة السويس ، ص ٩٢٧ .
٢ ـ محمد فؤاد شكرى ، مصر والسودان ، ص ٣٠ .

خاضعة للحماية الفرنسية ، فعمل على مكافحة النفوذ الفرنسي ، (١) لذلك صمم على الاستعانة بالنفوذ الانجليزى ، وكان القنصل الانجليزى في مصر شارل ميرى ((C.Mery)) له كلمة مسموعة لدى عباس ، واتجهت هنا السياسة الانجليزية لكسب مركز في مصر ،وذلك بتيسير طرق المواصلات البرية بين الاسكندرية والقاهرة وبين القاهرة والسويس عن طريق بناء السكك الحديدية (٢) ، كما توصل عباس مع شارل ميرى في ١٦ نوفمبر سنة ١٨٥١ م على أصول اتفاق بينه وبين الحكومة الانجليزية ، أن تتدخل انجلترا لدى الباب العالي للمحافظة على حقوق عباس ، كما جاء في فرمانات الوراثة ، وأن يتفاوض عباس مع المهندس الانجليزى السير روبرت استفنسون ((Sir Stephenson)) لمد الخط الحديدى وأن يعمل عباس على تشجيع التجارة الانجليزية وتأمين المواصلات للهند

وعارضت فرنسا ذلك المشروع معارضة شديدة ، واستغلت في سبيل ذلك ما لها من نفوذ في مصر والدولة العثمانية ، ولكن المشروع الانجليزى نجح ، ودخل في دور التنفيذ .. وفي أثناء انشاء السكة الحديدية بين القاهرة والاسكندرية توفي عباس ، واعتلى سعيد باشا منصة الحكم في مصر (٣) ، الذى اتجه لفرنسا ، وكان من أبرز الامتيازات التى حصلت عليها فرنسا في مصر ، أخذ امتياز حفر قناة السويس الذى ناله فردناند دى لسبس ، وتسبب سعيد باشا في اغضاب بريطانيا التى قاومت مشروع قناة السويس (٤) ، ورأينا ذلك في الفصل الثانى ، ولا شك أن تصرفات سعيد السابقة تعارض المصالح الانجليزية في مصر ، والتى كانت سياستها تجاه مصر منذ معاهدة سنة ١٨٤٠ م تعمل على الابقاء على مصر تحت السيادة العثمانية وفقاً للفرمانات الصادرة .

واهتمت بريطانيا بمصر ، عندما أصبح لها في الهند قاعدة لامبراطورية .. عندها أخذت ترمق مصر كطريق حيوى لا تعيش دونه ، وأخذ حرصها يزداد بقدر ماكان يثير تخوفها على ضياع هذا الطريق ، ولا سيما بعد فتح قناة السويس

---

١ ـ د . شوقى عطا الله الجمل ، البحر الأحمر في سياسة مصر ، ص ٨ .
٢ ـ محمد فؤاد شكرى ، قضية الجلاء عن مصر ، ص ٧ .
٣ ـ أحمد رشدى صالح ، قناة السويس ، ص ١٧ .
٤ ـ محمد فؤاد شكرى ، مصر والسودان ، ص ٤٥ .

وقد وجدت أن أفضل طريق لذلك هو الاكتفاء مؤقتاً بالمحافظة على علاقة مصر بالدولة العثمانية في حدود الفرمانات الصادرة (١) ، كما أن انتعاش التجارة الانجليزية في أسواق الشرق يتبعه اهتمام خاص متزايد ، لذلك تخشى انجلترا أن تشاركها قوة أخرى ، ولذا كان من الطبيعي أن حكومة بالمرستون تحارب مشروع القناة وتعارض مجهودات دى لسبس . (٢)

ومما لاشك فيه أن الدولة العثمانية كانت تدرك أهمية مصر وبالتالى الحجاز ويدل على ذلك اهتمام السلطان العثمانى بمصر والخديوى والامتيازات التى منحت لهما من خلال الفرمانات ، ففى سنة ١٢٨٣ هـ الموافق ١٨٦٦ م تحصل الوالى اسماعيل على فرمان سلطانى غير بموجبه طريقة التوارث في منصب الخديوية المصرية ، فبعد أن كانت لأكبر أبناء محمد على باشا انحصرت بهذا الفرمان في ذرية اسماعيل ، وصارت لأكبر أولاد الجالس على منصب الخديوية (٣) ، كما حصل الوالى اسماعيل باشا في ٨ يناير سنة ١٨٦٧ م (٥ صفر سنة ١٢٨٤ هـ) على فرمان جديد يخوله وخلفاءه لقب خديوى ، وبعد أن كان والياً ، ارتقى بهذا اللقب السامى الى مرتبة قريبة من مرتبة الصدر الأعظم ، كما أقر هذا الفرمان حق الحكومة المصرية واستقلالها في ادارة شؤونها الداخلية والمالية ، وحقها في عقد المعاهدات الخاصة بالبريد والجمارك ومرور البضائع والركاب في داخلية البلاد ، وشؤون الضبط للجاليات الأجنبية ، كل هذه الفرمانات لم تأت عفواً من قبل الدولة العثمانية بل ببذل اسماعيل المال من الخزانة المصرية ، (٤) والتى تنفق على رجال المابين الهاميوني ، وكان بينهم عدة وزراء أغدق عليهم اسماعيل الأموال على شكل هدايا فاخرة ليساعدوه في الوصول الى مقاصده ، (٥) وكان من نتيجة بذل اسماعيل هذه الأموال أن استدانت مصر ، ونشأت أزمة مالية أدت الى تدخل أجنبى واحتلال بريطانيا مصر ، إلا أن العلاقات بين مصر والدولة العثمانية فترت ، ولم

---

١ - عبد العزيز رفاعى ، قضية الجلاء عن مصر ، ص ٧ .

٢ - أحمد رشدى صالح ، قناة السويس ، ص ١٧ .

٣ - اسماعيل سرهينك ، حقائق الأخبار عن دول البحار ، ص ٧١٥ .

٤ - عبد الرحمن الرافعى ، عصر اسماعيل ، جـ ١ ، ص ٨٤ .

٥ - اسماعيل سرهينك ، حقائق الأخبار عن دول البحار ، ص ٧١٥ .

تكن كما كانت عليه في السابق ، وذلك لشعور الدولة بزيادة انسلاخ مصر عن جسم الدولة العثمانية وذلك بسبب الفرمانات السابقة والممنوحة للخديوى اسماعيل والذى زاد شعوره بالاستقلال عن الدولة العثمانية . فدعا في حفلات افتتاح قناة السويس سنة ١٨٦٩ م ملوك أوربا ورؤساء حكوماتها الى حضور تلك الاحتفالات دون وساطة الدولة العثمانية ، واعتبر السلطان العثمانى هذه الدعوة اغفالاً لواجب الولاء نحوه واحتج لدى الدول على مسلك الخديوى ، فلم يكترث اسماعيل لهذا الاحتجاج بل مضى في دعوته ، وأقام حفلات القناة برئاسته ، وحضرها ملوك أوربا وأمراؤها.وقيل أنه كان معتزماً اعلان استقلال مصر التام في تلك الاحتفالات ، ولكن الحكومات الأوربية لم توافقه على تلك الرغبات ، ونصحته أن يعدل عن عزمه ، وانتهت احتفالات القناة (١) وبلغت تكاليف انشاء القناة ، ومصاريف احتفالات الافتتاح مبلغ ٤٥٠ مليون فرنك مما أدى الى افلاس مصر ، وفقر خزانتها .. فاضطرت مصر أن تلجأ الى بنوك أجنبية طالبة مساعدة مالية ، وانتهزت انجلترا تلك الفرصة ، وشرعت في تنفيذ مشاريعها الاستعمارية ، وسارعت البنوك الانجليزية بتقديم القروض الى الحكومة المصرية بشروط قاسية ، واستخدم الانجليز جميع المناورات التى زادت من مصاعب الحكومة المصرية ، وبدأت بريطانيا تتحدث علناً عن عطفها على شركة قناة السويس ، وبدأت تكشف عن اهتمامها بالقناة ، وسارعت الى مكافأة فرديناندى ليسبس الذى سبق أن وصفته بالاحتيال، ومنحته الحكومة البريطانية عدة أوسمة رفيعة ، وأسبغت عليه لقب مواطن لندن وكان ذلك ضمن خطة رسمتها بريطانيا للاستيلاء على القناة (٢) ، فهى بذلك - أى انجلترا - تريد بهذا العمل أن تحاول ارضاء فرنسا عن طريق أحد مؤسسى المشروع ، وبالتالى تكسب ود الشركة المؤسسة تمهيداً للسيطرة عليها في المستقبل ، في حين أغفلت الدولة العثمانية شؤون مصر نتيجة لسوء العلاقة بينها وبين الخديوى اسماعيل ، حيث تجاهل السلطان ولم يدعه لحفلة افتتاح القناة واهماله جانب الولاء له ، لذلك أصدرت الدولة فرماناً في ٢٩ نوفمبر سنة ١٨٦٩ م والموافق ٢٤ شعبان

١ - عبد الرحمن الرافعى ، عصر اسماعيل ، جـ ١ ، ص ٨٤ .
٢ - جالينا نيكتينا ، قناة السويس ، ص ٢٢ .

سنة ١٢٨٦ هـ جاء به رسول من الباب العالى الى مصر عقب انتهاء حفلات القناة ، وبهذا الفرمان قيد السلطان العثمانى حقوق الخديوى ، فجاء فيه : « أنه لا يجوز للخديوى اسماعيل أن يقترض قروضاً جديدة دون أن يبين وجه الحاجة اليها ، ويحصل على اذن من السلطان» ويبدو لنا أن السبب لهذا التقييد للخديوى غيرة الباب العالي على مصر واستياؤه من تورط اسماعيل في الديون الباهظة مما يؤدى الى تدخل الدول الأجنبية ، وهذا الذى تتلافاه الدولة العثمانية لانقاذ مصر ، وبالتالى انقاذ القناة ، واعلان الدولة العثمانية لذلك الفرمان جاء ليؤكد للعالم تبعية مصر والقناة لها ، ولتصرف الدول الأوروبية عن مطامعها فيها ، إلا أن اسماعيل أخذ في تحسين علاقاته بالدولة العثمانية ، عندما رأى أنه في حاجة الى مساندتها ، بعد أن خذلته الدول الأوربية ، واشتدت ورطته المالية ، فقصد الآستانة في صيف سنة ١٨٧٢ م يصحبه اسماعيل صديق باشا وزير المالية ، ونوبار باشا وزير الخارجية ، ليسعوا في اعادة العلاقات الودية بينهم وبين السلطان ، وبذلوا كثيراً من مظاهر الولاء ، بالاضافة للمال والهدايا حتى عادت علاقات الود بين الخديوى والحكومة العثمانية ، فنال في ١٠ سبتمبر سنة ١٨٧٢ م (٧ رجب سنة ١٢٨٩ هـ) فرماناً يثبت الامتياز السابق منحه اياه وينسخ القيود الواردة في فرمان سنة ١٨٦٩ م ، كما نال في ٢٥ سبتمبر سنة ١٨٧٢ م (٢٢ رجب سنة ١٢٨٩ هـ) خطاً شريفاً يؤكد فيه مزايا فرمان ١٠ سبتمبر ويخوله صراحة حق الاستدانة من الخارج دون قيد ولا شرط (١) ، وبموجب هذا الفرمان عادت الامتيازات الأولى ، وكان ذلك رغبة السلطان في ارضاء الخديوى للمحافظة على سيادته على مصر ، إلا أن تلك الفرمانات أتت بنتائجها السلبية على الدولة ، اذ عاد الانسلاخ من جديد عن الدولة ، هذا ويعتبر بداية شق قناة السويس الدليل الواضح على تدخل الأموال الأجنبية في مصر ، اذ قيل عن فتح القناة انه يعادل في تأثيره الاستعمارى بالنسبة للمسألة المصرية غزوة نابليون بونابرت ، إذ أنها أخذت شكلاً آخر ، ودخلت دوراً جديداً بعد فتح القناة (٢) ، على أننا لا نريد فصل المسألة المصرية عن الدولة العثمانية ، وذلك على اعتبار ارتباطها بالدولة العثمانية صاحبة النفوذ على مصر ،

---

١ ـ عبد الرحمن الرافعى ، عصر اسماعيل ، ج ـ ١ ، ص ٨٤ ـ ٨٥ .
٢ ـ أحمد رشدى صالح ، قناة السويس ، ص ١٩ .

كما يعتبر تدخل الأموال الأجنبية في مصر تدخلاً أيضاً لها في الدولة العثمانية ٠

وعلى الصعيد الدولى كان ضعف النفوذ الفرنسى على أثر انتصار المانيا في الحرب السبعينية سنة ١٨٧٠ م على فرنسا قد مهد لانجلترا الطريق لتكون صاحبة الكلمة العليا في المسألة المصرية ، واستطاعت أن تنفرد بالتدخل في شؤون مصر ، ونحن لا ننسى كما مر بنا أن التنافس بين الدولتين قد اشتد خاصة في عهد انشاء قناة السويس ، ولكن تكافؤ القوتين حال دون سيطرة احداهما على مصير البلاد ، ومن الملاحظ أن صوت فرنسا في المسألة المصرية أخذ يضعف في نهاية سنة ١٨٧٠ م بسبب هزيمتها في الحرب السبعينية .. فانتهزت انجلترا الفرصة لتنفيذ سياستها في وادى النيل ، فمنذ افتتاح قناة السويس سنة ١٨٦٩ م بدأت انجلترا في العمل على تثبيت مركزها في مصر تمهيداً لاحتلالها ، وفي سنة ١٨٧٠ م عهد الخديوى الى شركة انجليزية تدعى شركة جرانفليد ((Granvilled)) انفاذ مشروع توسيع ميناء الاسكندرية ، والقيام بأعمال الاصلاح فيها مقابل عدة ملايين من الجنيهات (١) وفي سنة ١٨٧٥ م أخذ معين المال ينضب من بين يدي اسماعيل خديوى مصر ، بعد القروض الباهظة التى استدانها ، والأعباء الجسيمة التى ناءت بها الخزينة ، وذلك مقابل صرفها للمشاريع الاصلاحية التى قامت في مصر ، ففكر في بيع أسهم مصر في القناة ، وعرضها على فرنسا ، فترددت في الأمر ، ولكن الحكومة الانجليزية ما أن علمت بالمسألة حتى بادرت بشرائها ، لأنها وجدت في هذه الصفقة فرصة سانحة لوضع يدها على القناة (٢) ، وكان لهذه الصفقة صدى كبير في كل أرجاء أوربا .. اذ أنها أصبحت دليلاً على أن انجلترا تركت نهائياً السياسة السلبية التى اتبعها جلادستون ((Gladston)) في وزارته الأولى ، وأنها أصبحت الآن تتبع سياسة خارجية نشيطة ، وبدأ ديزرايلى ((Disraeli)) سياسة التسلط الاستعمارى التى قد بلغت أوجها في

---

١ ـ عبد الرحمن الرافعى ، عصر اسماعيل ، جـ ١ ص ٩١ ـ ٩٢ ٠

٢ ـ مصطفى الحفناوى ، قناة السويس ومشكلاتها المعاصرة ، ج ١ ، ص ٣٧٤

نهاية القرن التاسع عشر الميلادى وذلك باحتلال الانجليز مصر ، وتصميمهم على البقاء فيها ، وتقسيم افريقيا والاشراف على مناطق كبيرة في آسيا ، (١) وكان أيضاً من نتائج هذه الصفقة ، أن استطاعت انجلترا اتخاذ سياسة مالية خاصة ، واعتبرت مصر من بين مناطق النفوذ التى يجب أن تحرص عليها ، أما من جانب السياسة المصرية فان بيع حصة مصر في أسهم قناة السويس كان مقدمة للتدخل الفعلى في مالية مصر ، اذ لم تمض ثلاثة أيام على بيع الأسهم حتى أجاب طلب الخديوى الجنرال ستانتون ((Stanton)) قنصل انجلترا العام بالقاهرة بأن تعين انجلترا موظفين انجليزيين يستعان بهما في ادارة شؤونه المالية ،وردت الحكومة الانجليزية على ذلك في ٢٧ نوفمبر سنة ١٨٧٥ م بأن ألّفت بعثة من خمسة أفراد من كبار موظفى الحكومة تحت رئاسة « كيف » رئيس الصيارفة ووجهت اليها تعليمات بأن تفاوض الخديوى وحكومته في ادارة مصر ومركزها المالى ، وأن تقف على حقيقة الاضطراب المالى وتسدى النصيحة الى الخديوى (٢) ، اذ أن هناك ارتباطاً شديداً بين شراء أسهم قناة السويس وبين ارسال بعثة « كيف » ((Caiv)) بل هناك فرصة سياسية اغتنمتها انجلترا ، لأنها كانت تشعر أن مصر قد أوشكت على الانهيار وأنه لا بد لها أن تتدخل في شؤونها تدخلاً مباشراً حتى تكسب بذلك مركزاً سياسياً ٠ وفي ربيع سنة ١٨٧٦ م وحدت الديون العديدة التى استدانها اسماعيل فأصبحت ديناً عاماً يبلغ ٩١ مليون جنيه ، وكان هذا الاجراء قد اتخذ بغرض تنظيم حالة الفوضى التى وصلت اليها البلاد ، ثم وضعت أمور الدخل والخرج في مصر تحت مراقبة ثنائية بين انجلترا وفرنسا ٠ (٣)

لم تقف انجلترا عند ذلك الحد من التدخل في شؤون مصر ، بل تطور الأمر على مر السنين ، ففى سنة ١٨٧٧ م أوعزت انجلترا الى الخديوى أن يمين غوردون باشا حاكماً عاماً للسودان ، ويعتبر هذا المنصب من أكبر مناصب الدولة العثمانية وأعظمها خطراً ويتم التعيين لهذا المنصب من قبل الباب العالي ، وهى المرة

١ ـ محمد مصطفى صفوت ، انجلترا وقناة السويس ، ص ٥٤ ـ ٥٥ ٠

٢ ـ شونفليد ، هيو ، ج ، قناة السويس ، ص ٩٠ ـ ٩١ ٠

٣ ـ رجب حراز ، المدخل الى تاريخ مصر الحديث ، ص ٣٧٦ ـ ، وانظر شونفليد هيوج قناة السويس ، ص ٥٦ ٠

الأولى في تاريخ مصر يسند فيها هذا المنصب السامى الى أجنبى ٠ إلا أن العلاقات الودية توثقت في هذه الفترة ، بعد افتتاح القناة - بين الخديوى وانجلترا ، وتعددت مظاهرها ، ففى ١٤ أغسطس سنة ١٨٧٧ م عقدت معاهدة بين الخديوى وانجلترا للتعاون على ابطال الرقيق . وأخذت انجلترا بعد ذلك تسعى لامتداد سلطة مصر على الساحل الغربى لأفريقيا لترث ذلك فيما بعد ، ففى ٧ سبتمبر سنة ١٨٧٧ م اعترفت انجلترا بسلطة مصر في بلاد الصومال الشمالية ، فكانت هذه المعاهدة مظهراً من مظاهر العلاقات الودية بين مصر وانجلترا (١) في وقت لم تعر فيه انجلترا أى اهتمام للدولة العثمانية صاحبة السيادة على مصر . وسياسة الود هذه أتت بعد ضعف فرنسا ، اذ اتجه اسماعيل صوب انجلترا وذلك بقصد الحصول على نوع من الاستقلال الذاتى ، والتى كانت تشجعه انجلترا لتزيد من انسلاخ مصر عن جسم الدولة العثمانية ، إلا أن التنافس بين فرنسا وانجلترا ظل قائماً حتى هذا الوقت ولكن لم ترغب انجلترا في اغضاب الحكومة الفرنسية بدليل موافقة انجلترا على اقتراح فرنسا بألا تدخل المسألة في مناقشات مؤتمر برلين سنة ١٨٧٨ م ورأت استبقاءً لصداقة فرنسا عدم احتلال مصر واستعاض سولسبرى ((Salisbury)) عن ذلك ، أى عن احتلال مصر وقناة السويس باحتلال جزيرة قبرص ، التى تشرف على آسيا الصغرى ، ومدخل القناة معاً ، وذلك تمهيداً لاحتلالها مصر (٢) ٠

وكانت انجلترا قد استطاعت أن تعقد اتفاقاً مع الدولة العثمانية تعهدت فيه انجلترا بمساعدة الدولة العثمانية ضد أى عدوان يوجه الى ممتلكاتها الآسيوية في مقابل استيلائها على جزيرة قبرص ، وادارة أمورها (٣) ، وجزيرة قبرص تعتبرها الاستراتيجية الانجليزية قاعدة هجوم حين ترغب في احتلال قناة السويس وتعتبر أيضاً قاعدة دفاع عن القناة بعد احتلالها ضد الخطر الروسى في الشمال ، واذا كانت الدولة العثمانية قد تنازلت للحكومة الانجليزية عن جزيرة قبرص ثمناً لمعاهدة دفاع مشترك فلم تكن الدولة العثمانية تدرك أن هذه الجزيرة سوف تكون قاعدة هجوم على أهم ولاياتها وهى مصر ، كما أن الاستراتيجية الانجليزية بدأت

١ - عبد الرحمن الرافعى ، عصر اسماعيل ، ج ١ ، ص ٩٢ ، ٩٣ ٠
٢ - محمد مصطفى صفوت ، انجلترا وقناة السويس ، ص ٦٠ ، ٦١ ٠
٣ - د ٠ مصطفى الحفناوى ، قناة السويس ومشكلاتها المعاصرة ، ج ٢ ، ٢٧ ٠

تفكر في احتلال قناة السويس احتلالاً عسكرياً ، بعد أن تمكنت من احتلال جزيرة قبرص (١) ، وكانت انجلترا تسير بموجب خطة لتأمين الطرق المؤدية الى الهند ، فباحتلال رأس الرجاء الصالح في طرف أفريقيا الجنوبى أصبحت آمنة على هذا الطريق ، لكن لما كانت مصر والسويس أقصر الطرق الموصلة الى الهند ، استطاعت انجلترا أن تحتل النقاط الاستراتيجية الموجودة على هذا الطريق ، فاحتلت قبرص ، وبوغاز جبل طارق ، وجزيرة مالطة .. وباحتلالها هذه النقط في البحر المتوسط أصبح ذلك البحر انجليزياً اذ أضحت لها سيادة عليه في جميع أطرافه . (٢)

ونعود مرة أخرى الى مصر ، فقد تعقدت المسألة المصرية في أواخر عهد الخديوى اسماعيل ، حيث بدأت قوى المعارضة المصرية تظهر ، وذلك نتيجة للتدخل المالي والسياسى الأوروبى في شؤون مصر ، مما أثار مخاوف انجلترا وفرنسا فرتبتا مع الباب العالي عزل الخديوى اسماعيل (٣) .. ففى ٢٦ يونيو سنة ١٨٧٩ م تولى توفيق باشا حكم مصر التي كان مركزها الدولى حينذاك غير محدود ، فلا هى دولة مستقلة ولا هى ولاية تابعة للدولة العثمانية ، وإنما تبعاً لمعاهدة لندن سنة ١٨٩٠ م تعتبر جزءاً من أملاك الدولة العثمانية ، وقد اعترفت بهذه التبعية دول أوربا الكبرى انجلترا وروسيا وبروسيا والنمسا والمجر ، والخديوى في مصر ، وان كان يتولى الحكم بطريق الارث لأنه من سلالة محمد على فإنه لم تكن له الحرية التامة في التصرف في شؤون مصر الداخلية والخارجية (٤) ، وظلت فرنسا وانجلترا في تعاون متواصل لاقتسام مصر بينهما،وقد استهل حكمه بصدور فرمان ٧ أغسطس سنة ١٨٧٩ م مقيداً سلطة الخديوية ، ومن ثم أخذ سند الخديوية يتجه نحو النصف وبدت كفة النفوذ الأوربى راجحة . (٥)

أما عن موقف الدولة العثمانية تجاه عزل الخديوي اسماعيل ، فقد رحب السلطان عبد الحميد ـ الذى تولى العرش العثمانى منذ سنة ١٨٧٣ م ـ بعزل اسماعيل آملاً في

---

١ ـ عبد الرؤوف أحمد عمرو ، قناة السويس في العلاقات الدولية ، ص ٥٨ .
٢ ـ محمد فريد بك المحامى ، تاريخ الدولة العلية العثمانية ، ص ٣٨٤ ـ ٣٨٥ .
٣ ـ محمد مصطفى صفوت ، انجلترا وقناة السويس ، ص ٦٢ .
٤ ـ جمال الدين الشيال ، قصة الاحتلال ، ص ١١ .
٥ ـ عبد العزيز الرفاعي ، قضية الجلاء عن مصر ، ص ١١ .

أن يتخذ من هذا العزل ذريعة للتدخل في شؤون مصر واسترداد الامتيازات التى نالتها هذه البلاد في فرمانات ١٨٤١ ـ ١٨٧٣ م ـ اذ كانت قد أعطيت تلك الامتيازات ارضاء للخديوى حتى لا ينسلخ عن جسم الدولة العثمانية ، وشعوره الدائم بالولاء للباب العالي ، بعد أن رأت الدولة العثمانية أهمية مصر التى زادت بعد افتتاح قناة السويس لأنها ربطت أجزاء الدولة بالعاصمة استانبول ، ولكن السلطان عبد الحميد عجز عن نيل مراده أمام اصرار انجلترا وفرنسا على أن تحتفظ الخديوية بكافة الحقوق التى اكتسبتها في عصر اسماعيل ، وكان من نتيجة ذلك أن تدعم النفوذ الأوروبى في مصر في عصر توفيق ، ولا غرو فقد شعر الخديوى الجديد بنفوذ الدول الأوروبية ممثلاً في عزل والده عن العرش ، ثم رأى أن الفضل في ا بعاد النفوذ والتدخل العثمانى في شؤون مصر ، يرجع الى فرنسا وانجلترا اللتين وقفتا أمام محاولة عبد الحميد سحب فرمان ٩ يونيو سنة ١٨٧٣ الذى منح مصر استقلالها الداخلى ، وأكد نظام الوراثة ، (١) وتوالت أحداث القرن التاسع عشر ، فزادت مصر انسلاخاً عن الدولة العثمانية ، وتكونت لها شخصيتها كأمة عربية وذلك بانتعاش الثقافة العربية في المدارس والمعاهد والصحف (٢) ، مما أثار الوطنية المصرية وأبرز معالمها ، وحينما أدرك المصريون المدى الذى بلغه الأجانب في ادارة بلادهم ، وتسيير شؤونها عندها ثارت العاطفة الوطنية وظهر السخط واضحاً (٣) ، وأخذ المصريون يتطلعون الى قيادة منهم تحقق آمالهم في الحرية والاستقلال ، وسار المصريون بخطى سريعة في طريق الثورة ضد حكومة الخديوى الضعيفة والمستسلمة للنفوذ الأجنبى ، وبدأ دور الجيش في الحركة الوطنية بما يعرف بالثورة العرابية ، نسبة الى أحمد عرابى الذى اختير لتزعم الأمة في ثورتها على السلطة الخديوية المتهمة بالاستسلام (٤) ، رأى الباب العالي في ضياع سلطة الخديوى بعد حوادث سبتمبر سنة ١٨٨١ م (حوادث قصر عابدين) فرصة مواتية لتدبير احتلال مصر

---

١ ـ حسن أحمد محمود ، محمد أنيس ، رجب حراز ، مصر في العصور الوسطى والحديثة ص ٢٢٤ ، ٢٢٥ ٠

٢ ـ شونفليد ، هيو ٠ ج ، قناة السويس ، ص ٥٦ ٠

٣ ـ محمد بديع شريف الدين وآخرون ، النهضة العربية الحديثة ، ص ٥٤٧ ٠

٤ ـ سيد رجب حراز ، المدخل الى تاريخ مصر الحديث ، ص ٣٨١ ٠

بجيش عثمانى ، لاسترداد النفوذ في مصر ضماناً للقناة التى تسهل الامدادات للحجاز ضماناً للسيطرة عليها ، وابعاد الخطر الأجنبى عنها ، لكن فرنسا وانجلترا وقفتا موقف المعارضة من أى تدخل حربى يقوم به السلطان العثمانى في مصر ، فاكتفى عبد الحميد بايفاد بعثة الى مصر لتحقيق أسباب العصيان العسكرى ، وعندئذ أرسلت الدولتان سفنهما الحربية الى مياه الاسكندرية للقيام بمظاهرة بحرية ، الأمر الذى أرغم البعثة العثمانية على مغادرة مصر في ٨ أكتوبر سنة ١٨٨١ م (١) ٠

وتطورت الأمور في مصر اذ سرعان ما انقلبت الحركة الوطنية السابقة الى ثورة ضد سلطة الخديوى ، وأصبح من اللازم أن تقوم انجلترا وفرنسا بتدخل مشترك لحماية مصالحهما ، ونشبت فتنة الاسكندرية في ١١ يونيو سنة ١٨٨٢ م قتل فيها خمسون أوروبياً ، (٢) الأمر الذى من أجله انعقد مؤتمر القسطنطينية في ٢٣ يونيو سنة ١٨٨٢ م ليبحث في المسألة المصرية ، وانتهى المؤتمر في ٦ يولية سنة ١٨٨٢ م ، وتقرر تسوية المسألة المصرية عن طريق التدخل العثمانى ، ويتضمن دعوة الباب العالي الى ارسال قوة الى مصر لاقرار النظام وفق (شروط محددة) ، غير أن السلطان رفض استجابة هذه الدعوة الى وقت متأخر لمعارضة فكرة التدخل العثمانى لتقيده بشروط اعتبرها مهينة له ، لا تتفق وحقوق سيادته على هذه البلاد ، ولأنه لم يكن يريد أن يظهر بمظهر من يخضع لسلطة الدول الأجنبية في مسألة داخلية كما أنه لا يريد اثارة الشعور الاسلامي ضده بهذا العمل .. وقد انتهزت انجلترا هذه الفرصة وعزمت على التدخل في مصر قبل أن تعتمد الدول المشاركة في المؤتمر .. وتقدمها للباب العالي بعد أن توفرت العوامل لانفرادها بالتدخل المسلح وايقاف المؤتمر أمام الأمر الواقع ، (٣) وكانت الشروط التى فرضها المؤتمر على الدولة العثمانية للتدخل المسلح في مصر واعتبرها السلطان مهينة ، كان قد حددها جرانفيل (Granville) وزير خارجية انجلترا ، وهى أن تكون القوات العثمانية تحت قيادة الخديوى والاّ تبقى بمصـــر أكثر من ثلاثة شهور ،

- حسين أحمد محمود ، محمد أنيس ، رجب حراز ، مصر في العصور الوسطى والحديثة ص ٢٣٥ ٠

٢ ـ شونفليد ، هيو ج ، قناة السويس ص ٥٦ ٠

٣ ـ عبد العزيز رفاعى ، قضية الجلاء عن مصر ، ص ٣٢ ٠

وأن يتمهد السلطان بعدم المساس بامتيازات الخديوية وتعهداتها الدولية ، ومن ناحية أخرى كان تردد فرنسا من العوامل التى أدت الى انفراد انجلترا بالتدخل ، فقد اعتبر فريستيه (M . de . Frey Cinet) رئيس وزراء فرنسا أن الاستنجاد بالجنود العثمانيين ليس له مبرر بعد استقالة وزارة البارودى وفضل انتظار ما قد تتمخض عنه الحوادث في مصر (١) ، وحينما وجد عرابى أنه مهدد بالغزو بدأ تقوية حصون الاسكندرية ، وأرسل اليه أمير الاسطولين الانجليزى والفرنسى أن يوقف هذه التحصينات ، ولكن من غير جدوى .. ثم فضلت فرنسا ألا تمضى الى مدى أبعد من هذا الاحتجاج الرسمى ، وتلاشت بذلك سياسياً واختفت من المسرح المصرى (٢) ، وفي الساعة السابعة من صباح ١١ يولية سنة ١٨٨٢ م أمر القائد الأميرال سيمور (Seymour) بضرب الاسكندرية ، وأرسلت السفينة الكسندر أول قذيفة ، ثم تبعتها بقية البوارج والسفن ، ولكن الطوابى المصرية لم تجاوب الضرب الا بعد الطلقة العاشرة .. ثم بدأت المعركة .. ولم تكن بشهادة كل من كتب عنها معركة متكافئة ، فقد كانت مدافع الاسطول البريطانى أحدث وأقوى ، وكانت قنائفها أثقل وزناً وأبعد مرمى (٣) ودافع المصريون عن الاسكندرية دفاعاً مشهوداً ، حتى اضطروا الى اتخاذ قاعدة جديدة في كفر الدوار ، حيث صمدوا هناك صموداً امتنع به تقدم الانجليز الى القاهرة ، فتحولوا الى الميدان الشرقى تجاه القناة ، (٤) وكانت انجلترا قد سعت بالطرق الدبلوماسية في وضع خطة غزو قناة السويس ، اذ بعثت في ٣٠ يونيو سنة ١٨٨٢ م انذاراً الى الباب العالي ذكرت فيه أنها ـ أى انجلترا ـ تعتبر نفسها مكلفة باقرار النظام في مصر ، وأنها ستمنع القوات العثمانية من النزول الى مصر ، إلا اذا أعلنت الدولة العثمانية اعتبار عرابى ثائراً ، فأصدر الباب العالى ذلك الاعلان في ٥ سبتمبر سنة ١٨٨٢ م واستغلت انجلترا ذلك المنشور ضد العرابيين أسوأ استغلال ، كما حاولت انجلترا أن تعطى نفسها صفة قانونية في احتلال القناة والحصول على تفويض من الخديوى يجيز لها

---

١ ـ حسين أحمد محمود ، ومحمد أنيس ، ورجب حراز ، مصر في العصور الوسطى والحديثة ص ٢٤٠ .

٢ ـ شونفليد هيو ، ج ، قناة السويس ، ص ٥٦ .

٣ ـ جمال الدين الشيال ، قصة الاحتلال ، ص ٣٠ ، ٣١ .

٤ ـ محمد مصطفى صفوت ، انجلترا وقناة السويس ، ص ٦٥ .

هذا الاحتلال ، فأبرق اللورد جرانفيل (Granvill) الى الأميرال سيمور (Seymour) في ٢٤ يولية طالباً منه أن يحصل من الخديوى على السلطات التى تخوله حق احتلال قناة السويس ، وقد كتب الخديوى التصريح المطلوب في ٣١ يولية ، وهذا نصه : « منحناكم التصريح باحتلال جميع النقط التى ترونها في برزخ السويس ، لضمان حرية الملاحة في القناة ، ولحماية المدن المجاورة لها ، ومن فيها من الأهالى ، وللقضاء على كل قوة لا تعترف بسلطاني » (١) .
وكانت الخطة الانجليزية لاحتلال مصر قامت على أساس اتمام احتلال منطقة القناة قبل التفرغ لمقاتلة الجيش المصرى (٢) .. فصرحت انجلترا لقائدها البحرى في بور سعيد أن يحتل من أجزاء القناة ما يراه ضرورياً لاتخاذ القناة قاعدة حربية ، واذا ما احتلت انجلترا قناة السويس فإنه من السهولة عليها السيطرة على بقية الأقاليم ، كما أن احتلال القناة هو كل ماترغب فيه انجلترا ، إذ أن القناة هى الشريان الحيوى لانجلترا وأنه في الوقت الذى أرسلت فيه انجلترا الحملة على الاسكندرية أرسلت حملة أخرى لتسير بطريق القناة ، وتنضم اليها قوة قادمة من الهند ، كما تنضم اليها الحامية الموجودة في الاسكندرية ويقوم بوشمب سيمور (Beauchamp Seymour) قائد القوات البحرية بمعاونة هذه الحملة ، وأرسلت تعليمات الى الاسطول بمقتضاها يقوم بحماية القناة ، وأن تتخذ الحملة الانجليزية القناة قاعدة لها ، وخرجت السفن الانجليزية خلسة من الاسكندرية في ظلام الليل واحتلت بور سعيد في ٢٠ أغسطس سنة ١٨٨٢ م واتخذت من مباني شركة قناة السويس بالمدينة مركزاً لأعمالها الحربية ، (٣) وأوقفت انجلترا مرور السفن عبر القناة واعترضت شركة القناة على هذا التصرف ، وطلبت من الدول أن ترسل كل منها سفينة حربية لمنطقة القناة لحماية حيادها ، وأرسل مجلس ادارة الشركة احتجاجاً الى الدول جاء فيه : « أن الخديوى لا يملك تقييد النصوص الصريحة في صك الامتياز وأن الشركة لا تقبل الاعتداء على حياد القناة ، وتعلن معارضتها للأعمال التى تستند الى ادعاءات سياسية غير مشروعة » (٤)

١ - مصطفى الحفناوى ، قناة السويس ومشكلاتها المعاصرة ، ج ٢ ، ص ١٠٥
٢ - الدراسات الثقافية ، قناة السويس ماضيها وحاضرها ، ص ٢٦ .
٣ - محمد مصطفى صفوت ، انجلترا وقناة السويس ، ص ٨٣ ، ٨٤ .
٤ - د . مصطفى الحفناوى ، قناة السويس ومشكلاتها المعاصرة ، ج ٢ ، ص ١٠٨ .

وكانت الحكومة الانجليزية تخشى من جانبها أن يقوم المصريون بردم القناة أو احتلالها أو اتلافها ، وكانت تقارير ممثلى انجلترا متشائمة ، وتنذر كما يقول الانجليز بالخطر الشديد على هذا الطريق البحرى الهام (١) ، وقد عبر الجنرال ولسلى ((Wolsely)) عن ذلك بقوله ، « لو أن عرابى قد أفلح في سد القناة كما أراد ، لكننا مازلنا الى الآن في البحار البعيدة نحاول محاصرة مصر، إن تأخره أربعاً وعشرين ساعة قد أنقذنا (٢) ..

وبعد احتلال الانجليز قناة السويس ، كان على قادة الثورة العرابية أن ينشئوا على عجل الاستحكامات في التل الكبير ، وقرر عرابى أن ينقل مركز قيادته من الجهة الغربية الى الجهة الشرقية فكان أول التحام بين المصريين والانجليز في نفيشة وفي ١٤ ستمبر اشتبك الفريقان في موقعة التل الكبير وكانت موقعة فاصلة ، انهزم فيها المسريون ، وفي ١٥ سبتمبر احتل الانجليز القاهرة ، (٣) ، .. وهكذا استطاعت انجلترا احتلال مصر وقناة السويس بمفردها ، لأن سياستها كانت سائرة بخطة محكمة ، وكانت قناة السويس هى عماد انجلترا في احتلالها مصر .. فلو لا القناة ، ولو لا تخاذل الدولة العثمانية ، وتردد فرنسا لما استطاع الانجليز أن يحققوا حلمهم في مصر ، وتعتبر سيطرة انجلترا على قناة السويس تحكماً في حوض النيل كله ، بل في آسيا وأفريقيا حيث أمكنها أن تتوسع فيهما استعمارياً الى غير حد ، كما أن احتلال انجلترا مصر معناه انتهاء السيادة الفعلية عليها ، مما يترتب عليه عدم تحكم الدولة العثمانية في القناة والتى كانت قد سهلت لها السيطرة الفعلية على غرب الجزيرة العربية وعلى الأخص اقليم الحجاز ، وأصبح لازماً على الدولة العثمانية أن تجد طريقاً آخر غير القناة لتحافظ على سيادتها لغرب الجزيرة ٠ وهكذا نشأت فكرة بناء سكة حديد الحجاز ، والذى سوف أتحدث عنه في الفصل التالى ، بعد أن أخذت انجلترا على نفسها توطيد سيادتها على مصر على النحو التالى

كانت انجلترا تخشى أن يقوى الشعور الاسلامى ضدها بعد احتلالها مصر ،

---

١ ـ محمد مصطفى صفوت ، انجلترا وقناة السويس ، ص ٦٩ ٠

٢ ـ شونفليد ٠ هيو ، ج قناة السويس ، ص ٥٧ ٠

٣ ـ ساطع الحصرى ، البلاد العربية والدولة العثمانية ، ص ١٦٥ ٠

فحصلت من الخديوى على رسالة شكر يعرب فيها عن امتنانه للمساعدة الثمينة التى قام بها الجنود الانجليز لاعادة الأمن الى بلاده ، بذلك أظهرت انجلترا أعمالها على شكل تنفيذ ارادة السلطان العثمانى كما ذكرت سابقاً ، وتلبية لرغبة الخديوى المصرى ، (١) كما سعت انجلترا في دعم سلطة الخديوى ، واعادة العلاقات بين مصر والدولة العثمانية في حدود الفرمانات،وسعت أيضاً لا يجاد رجل يقوم محل المعتمد البريطاني ، فوقع اختيارها على كرومر ((Croomer)) الذى ظهرت خبراته في الادارة ولحرصه على المصالح الاستعمارية للامبراطورية ، ليكون قنصلاً عاماً لها ، وفهم كرومر الاحتلال ومشاكله ، ووجهه توجيهاً لتوطيد أركانه ، وسعى في القضاء على فكرة الجلاء بين الساسة الانجليز ، وكذلك في داخل مصر ، ووجه الاحتلال الذى قام على أساس الايهام الذى أحاط به حتى بقى الأمر في يديه زهاء ربع قرن انتصر فيه في الميدان المصرى ، وكان كما قيل عنه « انه يوفق بين آراء الاستعماريين في البقاء ، وآراء جلادستون ((Gladston)) في الجلاء ، فكان عليه أن يقنع بلاده بمبادئه وأن يسير الاحتلال وفق خطة معينة (٢) » وكانت انجلترا قد أرسلت الى دول العالم في ٣ يناير سنة ١٨٨٣ م مذكرة توضح فيها خطتها السياسية وتبرر احتلالها فتقول ، « إن حكومة جلالة الملكة بالرغم من وجود قوات بريطانية في مصر مؤقتاً ، لترغب في سحب هذه القوات بمجرد ما تسمح بذلك حالة البلاد وما تتطلبه من الوسائل التى تكفل سلطة الخديوى .. وترى الحكومة أن واجبها الآن ازاء الخديوى يقضى عليها بوجوب اسداء النصيحة حتى تضمن بقاء الاصلاحات التى يراد وضعها وتطبيقها » (٣) .. وكانت هذه النصيحة كما تعنيها بالنسبة لمصر لا تخرج عن المعنى الذى أرادته في مذكرتها الى معتمدها الجديد السير آفلين بارنج بتاريخ ٤ يناير سنة ١٨٨٤ م وهو « يجب عند البحث في المسائل المهمة الخاصة بسلامة مصر أو ارادتها أن تتبع نصائح حكومة جلالة الملكة مادام الاحتلال المؤقت مستمراً ، وعلى الوزراء والمديرين تنفيذ هذه النصائح ، وإلا أقيلوا من وظائفهم » (٤)

١ ـ ساطع الحصرى ، البلاد الربية والدولة العثمانية ، ص ١٦٥ .

٢ ـ عبد العزيز رفاعى ، قضية الجلاء عن مصر ، ص ٥٠ ، ٥١ .

٣ ـ حسين فوزى النجار ، السياسة والاستراتيجية في الشرق الأوسط ، ج ١ ، ٢١٤ .

٤ ـ جالينا نيكتينا ، قناة السويس ، ص ٢٧ .

وكانت انجلترا بعد احتلالها لمصر قد أخذت تستخدم المناورات وبذل الوعود ، واستطاعت أن تؤجل النظر في مسألة القناة مدة سنتين كاملتين ، وفي سنة ١٨٨٥ م سعت الى فكرة عقد مؤتمر دولى ، وبدأ انعقاد ذلك المؤتمر في شهر مارس سنة ١٨٨٥ م بباريس واشتركت فيه الدول الكبرى والدولة العثمانية واسبانيا وهولندا ، ودعيت اليه مصر بصفة استشارية ، وخلال المؤتمر بذلت انجلترا جهوداً عظيمة للابقاء على سيطرتها على قناة السويس بينما حاولت الدول المنافسة لها اضعاف ذلك النفوذ .. وضمان مصالحها الذاتية وكان من نتيجة الخلافات التى ثارت بين أعضاء البلدان المشاركة في المؤتمر ، أن عجزت عن الوصول الى نتيجة ، على الرغم من أنه استغرق شهرين ونصف الشهر (١) ، إلا أن انجلترا استطاعت أن تؤكد حقوق الحكومة المصرية عندما وجدت محاولات مندوب الدولة العثمانية تسجيل حقوق العثمانيين ونفوذ السلطان العثمانى على مصر ، وليس غريباً على مندوب الدولة أن يبذل تلك المحاولات ، ليضمن السيطرة على ذلك الاقليم الحيوى ، والذى يساعد في ربط غرب الجزيرة بالعاصمة استانبول ، وبالرغم من أن هذه الاتفاقية قد قررت مبدأ المساواة بين الدول وأكدته كما أقرت عدم انفراد أية دولة بنفوذ متفوق في منطقة القناة ، إلا أن الانجليز بحكم احتلالهم العسكرى للبلاد ومركزهم الممتاز فيها قد أصبح لهم بالفعل من الناحية العملية نفوذ متفوق في القناة .. وكانت انجلترا قد اتبعت أثناء انعقاد المؤتمر السابق سياسة التحدث عن الحق لصد أطماع الدول الأخرى عن مصر ، والانفراد بمركز ممتاز فيها ، كما استفادت من النصوص الناقصة والخاصة باستخدام القناة لأغراض عسكرية في الاتفاقية ، مما قلل فعلاً من قيمة مبادىء الحياد والتجريد من السلاح ، إن الاتفاقية تقضى بمنع انزال القوات العسكرية والأسلحة والمواد والمعدات الحربية في منطقة القناة أو عند مدخليها ، ولكنها قصرت هذا المنع على زمن الحرب فقط ، فتمكنت انجلترا من استكمال واعداد قواتها العسكرية وقواعدها الاستراتيجية ومخازن تموينها في منطقة القناة ، مما كان له أهمية كبيرة للانجليز ، وإن حشد قوات عسكرية كبيرة واقامة قواعد قوية في وقت السلم أتاح لانجلترا أن تحافظ على سيطرتها في منطقة القناة ، وأعطاها مزايا على العدو في حالة الحرب ، كما أتاح لها أن تستخدم القناة لأغراض

---

١ ـ محمد مصطفى صفوت ، انجلترا وقناة السويس ، ص ١٠٠ ـ ١٠١ .

عدوانية حتى في الحالات التى لم تشترك أثناءها رسمياً في نزاع مسلح (١) . إلا أن الباب العالي عندما رأى التوسع الانجليزى طالب بالجلاء ، لأن ذلك يخالف تصريحات الحكومة الانجليزية ، وتخشى الدولة العثمانية في حالة التوسع الانجليزى من أن تفقد مركزها في مصر ، وإن كان اسمياً ، وبالتالى تفقد مركزها في القناة ، مما ينتج عنه صعوبة الاتصال والحركة بالنسبة لغرب الجزيرة العربية وعلى الأخص الحجاز فعرضت انجلترا على الباب العالي سنة ١٨٨٧ م الدخول في مفاوضات لتحديد تاريخ الجلاء عن مصر ، وشروطه ، وكانت حكومة المحافظين برئاسة سولسبرى التى خلفت حكومة الأحرار في الحكم راغبة في ازالة ماتركه الاحتلال الانجليزى من توتر علاقات انجلترا بالدولة العثمانية وبفرنسا ، ولعلها كانت ترجو أن تصحح مركزها في مصر ، وتضفى عليه صفة شرعية ولو ضحت باحتلالها للبلاد ، فأرسلت بعثة درومندولف لمفاوضة الباب العالي في هذا الشأن ، وقد اتفق المفاوضون على توقيع اتفاقية ، عرفت باتفاقية الآستانة وتضمنت النص على جلاء القوات الانجليزية عن مصر في مدى ثلاث سنوات من ابرام الاتفاق أى في سنة ١٨٩٠ م ، إلا اذا قام خطر داخلى أو خارجى يقتضى تأجيل موعد الجلاء حتى يزول هذا الخطر (٢) ، إلا أن السلطان العثمانى رفض ذلك الاتفاق من أساسه ، على اعتبار أنه يتعارض مع حقوق السيادة العثمانية على مصر ، كذلك أدرك الباب العالي أن انجلترا تماطل في موضوع الجلاء ، ولا تريد فعلاً الانسحاب . وأحست انجلترا بموقف الدول من احتلالها لمصر وسياستها في وادى النيل ، فرأت اهمال موضوع الجلاء ، واستمرت تسير في سياستها التى تمليها عليها مصالحها الاستعمارية ، وخاصة بعد أن تولى روزبرى (Rosbury) وزارة الخارجية البريطانية ، الذى كان من عتاة الاستعماريين الانجليز وهو الذى ثنى جلادستون (Gladston) عن فكرته في الجلاء عن مصر (٣) وكانت انجلترا في هذه الفترة تسلك سياسة استعمارية توسعية ، وتعترف بها علناً ، وذلك لأسباب اقتصادية ، لأن انجلترا تخشى أن تغلق البلاد المستعمرة أبوابها في وجه التجارة

---

١ - جالينا نيكتينا ، قناة السويس ، ص ٣٠ .

٢ - مصطفى الحفناوى ، قناة السويس ومشكلاتها المعاصرة ، ص ١٥٩ .

٣ - حسين فوزى النجار ، السياسة والاستراتيجية في الشرق الأوسط ، ج ١ ، ص ٢١٧ ، ٢١٩ .

الانجليزية في حالة تركها للمستعمرات (١) ، وهكذا يتم بالاحتلال الانجليزى لمصر السيطرة الكاملة على الأحوال الداخلية وضياع مركز الدولة العثمانية وتصبح مصر تحت الحماية الانجليزية في كل شىء الا في الناحية الشكلية ، ونتجت من كل هذه الحوادث ثلاث نتائج تتصل بالقناة ، أولها أن انجلترا نالت قسطاً كبيراً في ادارة القناة ، فقد كان لها ثلاثة مقاعد من بين أربعة وعشرين مقعداً في مجلس ادارة الشركة ، وذلك بعد أن اشترت أسهم الخديوى سنة ١٨٧٥ م ولكن زادت تلك المقاعد الى سبعة منذ الاحتلال الانجليزى ، ومنحت هذه المقاعد الزائدة لمندوبي المصالح التجارية الانجليزية ، وزاد مجموع المقاعد في الوقت نفسه الى اثنين وثلاثين ، وهو العدد الذى قدر لمجلس الادارة في الأصل ٠

الثانية ، أن الدول قد اعترفت بأن انجلترا قد أصبحت حارسة للقناة ، وأنها تقوم في مصر برعاية البرزخ ٠

الثالثة ، أن انجلترا كانت حريصة على أن تتفق مع الدول الأخرى بما يحفظ للدول حرية مرور سفنها في كل الظروف والأحوال ، لكنها أرادت أن تحتفظ لنفسها بحق الدفاع عن القناة اذا أريد الاعتداء على مصر (٢) ، هذا وخلال سنوات السيطرة الانجليزية تحولت قناة السويس الى قاعدة عسكرية انجليزية ذات أهمية في الشرق الأدنى والأوسط ، وأصبحت القناة حلقة في سلسلة القواعد العسكرية البحرية التى أقامتها انجلترا من الجزر البريطانية الى الهند واستراليا مارة بجبل طارق وفاماجوستا بقبرص وبورسعيد والسويس وعدن وجزر موريس في المحيط الهندى وسنغافورة ، وقد أقام الانجليز سلسلة من الاستحكامات الاستراتيجية والمطارات والمنشآت العسكرية الأخرى على طول القناة ، وخاصة حول البحيرات المرة ، وخرقوا بذلك الوضع الدولى للقناة والذى نصت عليه اتفاقية القسطنطينية سنة ١٨٨٨ م بشأن قناة السويس ، وهى الاتفاقية التى تحظر اقامة أى منشآت عسكرية على طول القناة ، واتخذت القوات الانجليزية مقراً رئيسياً لقيادتها في فايد بمنطقة القناة ، كما اتخذت من ابى سلطان قاعدة خزنت فيه أضخم كمية من الذخائر في الشرق الأدنى وأقامت في أبى صير مطاراً عسكرياً على مساحة من

---

١ ـ بيير رونوفن ، تاريخ القرن العشرين ، ص ٢٧ ٠

٢ ـ شونفليد هيو ج ، قناة السويس ، ص ٥٧ ، ٥٨ ٠

الأرض تبلغ عشرة كيلو مترات ، وأنشأت القواعد العسكرية ، (١) ونتيجة لكل الأعمال الانجليزية في المنطقة فإن الدولة العثمانية فقدت جزءاً هاماً من أقاليمها المترامية الأطراف ، ولكن اسمياً كانت مصر تابعة للدولة العثمانية ، لذلك استطاع الباب العالي أن يثير موضوع المسألة المصرية عندما عين الخديوى عباس الثانى سنة ١٨٩٢ م ، فوجد الباب العالي فرصة لاقتطاع شبه جزيرة سيناء من مصر ، وضمها الى مناطق السيادة العثمانية في سوريا والحجاز ، وساعد في ذلك ميول الخديوى الجديد نحو الدولة العثمانية ، وكان هذا تشجيعا للباب العالى لتحقيق خطته في اعادة السيطرة على الضفة الشرقية للقناة ولم يلق هذا الاتجاه معارضة من الخديوى الجديد ، وكانت حجة الدولة العثمانية في ذلك تقوم على أن هذه المنطقة في الأصل تابعة لولاية الحجاز ، فأعادتها الدولة للخديوى اسماعيل بقصد وضع حاميات من الجند في الوجه ، والمويلح وضباء ، وسيناء لتأمين قوافل الحج التى تسلك الطريق البرى الى الحجاز ، ثم استعادت الدولة الوجه وضباء والمويلح وتريد أن تستعيد ما بقى من الأقاليم لولاية الحجاز ، وثارت انجلترا ، وتراجع الباب العالي ، وصدر فرمان بأن تكون سيناء داخل الحدود المصرية ، وتضم العقبة لولاية الحجاز ، (٢) وبذلك تكون الدولة العثمانية فقدت مصر ، هذا الاقليم الحيوى الذى كان يمد خزانة الدولة بالجزية السنوية على ذلك الاقليم .. ، بالاضافة الى أن الخديوى كان يمد الجنود العثمانيين بالمؤن اللازمة للحملات المرسلة للحجاز أو لليمن كما أن السلطان العثمانى كان يعتمد قبل فتح القناة على الخديوى في ارسال الحملات لاخضاع المناطق الثائرة في غرب الجزيرة العربية ، والدولة العثمانية لم تفقد مصر فقط بل ومعها الامتيازات السابقة ، فضلًا على ذلك الشريان الحيوى الذى يربط غرب الجزيرة بعاصمة الدولة الاستانة مما سهل على الدولة أن ترسل حملاتها التأديبية رأساً من العاصمة الى الحجاز ومنها لمناطق اليمن كذلك فقدت الدولة سيادتها على القناة تلك السيادة التى تخول لها فرض ما تشاء من رسوم المرور بالاضافة الى فقدانها تلك الرسوم ، وأصبحت انجلترا هى المسيطرة على مصر ، وبذلك يكون فقدانها عائقاً لاستكمال نفوذ الدولة العثمانية في غربي الجزيرة العربية وعليها أن تبحث عن بديل لذلك الطريق لتيسير الاتصال بين

---

١ ـ جالينا نيكتينا ، قناة السويس ، ١٠ ـ ١١ .

٢ ـ حسين فوزى النجار ، السياسة والاستراتيجية في الشرق الأوسط ، ج ١ ص ٢٦٨ ، ٢٢٠ .

العاصمة الآستانة والحجاز . فكان ذلك الطريق هو سكة حديد الحجاز الذى سأتحدث عنه في الفصل الخامس .



النفوذ البريطاني في عدن

أدى افتتاح قناة السويس للملاحة البحرية في ١٧ نوفمبر سنة ١٨٦٩ م الى زيادة اهتمام الدولة العثمانية بالبحر الأحمر الذى أصبح أهم طريق للمواصلات الدولية بين الشرق والغرب ، ولسواحل الجزيرة العربية المطلة على هذا البحر ، وخاصة الساحل اليمني الذى أصبح الانجليز يسيطرون على جانبه الجنوبى المتحكم في باب المندب ، وذلك بسيطرتهم الفعلية على عدن وماجاورها ، بعد أن تضاعفت أهمية موقعها وخطورته بتحول التجارة العالمية الى طريق البحر الأحمر ، وقد أشرت الى ذلك بالتفصيل في الفصل الثالث ، والذى انتقلت فيه بعد ذلك الى الاتصالات التى قامت بين المسؤولين في جهاز الحكومة الانجليزية من جهة ، وبين المسؤولين في حكومة الدولة العثمانية من جهة أخرى ، الأمر الذى انتهى بانسحاب الدولة العثمانية من المناطق المجاورة لعدن ، إلا أنه منذ بداية التدخل العثمانى في منطقة جنوبى الجزيرة العربية ـ كما سبق ذكره ـ صار النفوذ الانجليزى مهدداً تهديداً خطيراً ، وبدا واضحاً أهمية الانتقال من دور الولاء والعطاء المتمثلين في المعاهدات التى عقدتها مع شيوخ المناطق الى دور جديد يؤمن النفوذ الانجليزى ، ويدعم بقاءه ، ولم يكن هذا الدور الجديد سوى الحماية التى تمت مع الرؤساء العرب بموجب معاهدات عقدت بينهم وبين الحكومة الانجليزية، وسأذكر ذلك في الصفحات التالية . ففتح القناة قد سهل للدولة العثمانية نقل القوات من العاصمة الآستانة الى اليمن ، أو الى الحجاز ومنها لليمن ، واختلفت الحالة عما كانت عليه قبل فتح القناة .

ويجدر بنا أن نتبين معالم السياسة التى اتبعها البريطانيون لمواجهة خطر التوسع العثمانى في المنطقة المحيطة بعدن ، والذى هدد الوجود البريطانى ، وذلك من خلال ما أبداه الماجور هنتر ((Hunter)) مساعد المقيم السامى في ٢٨ سبتمبر سنة ١٨٧٥ م فقد قال : (إن التفاهم الحالى مع الباب العالى بخصوص القبائل المجاورة لعدن كان على أساس احترام استقلالها ، لأنها متحالفة وتتقاضى اعانات مالية من جلالة الملكة .. وعلاقتنا مع القبائل لا تتضمن بطبيعة المعاهدات المبرمة معها استقلالها ، إلا أن الاتفاقيات تنص على أنه بموجب دفع مبالغ معينة

يتعهد الرؤساء بالمحافظة على فتح الطرق ، وعلى صداقة الحكومة البريطانية ، فإذا ماحاول الباب العالى أن يغرى أحداً من الذين يتقاضون رواتب شهرية منا بتحويل اتجاهه عنا فليس لدينا أسانيد دبلوماسية قوية ترتكن على حقوقنا تكفلها معاهدات ، يمكننا أن نعتمد عليها ، وحلفاؤنا قد يتخلون عنا مادمنا على غير اتصال بالمناطق الداخلية وهم يملكون القوة التى تمكنهم من قبول سلطة الباب العالي ، واذا ما عقدت معاهدات مع قبائل العبدلى والفضلى والعقربى يتم بمقتضاها وضع تلك القبائل تحت الحماية البريطانية ، فإنه من الصعب على العثمانيين التدخل في شؤون هؤلاء الرؤساء » . واسترسل هنتر يوضح خطورة امتداد النفوذ العثمانى بالنسبة للمصالح البريطانية .. «وإن غالبية ـ ان لم تكن ـ كل القبائل التى انضوت تحت الحكم العثمانى خلال السنوات القليلة الماضية ـ تفضل أن تظل عثمانية .. » وكان رأى هنتر توثيقاً وضماناً لربط القبائل المذكورة عقد معاهدات جديدة أقوى وأشمل مع العقربى والعبدلى والفضلى تضع أراضى تلك القبائل تحت الحماية البريطانية وأن مثل هذه المعاهدات يمكن عقدها بسهولة وذلك استبقاء لولائهم وربطهم بالحكومة البريطانية ، وتبقى حجة قوية يصعب من خلالها اتصال العثمانيين بهم ، كما كان يرى أيضاً عقد اتفاقات أخرى مع قبيلة الحوشبى والعلوى ويافع السفلى تتعهد بمقتضاها هذه القبائل بعدم التنازل أو السماح باحتلال أو قبول أى سلطة أخرى عدا بريطانيا ، واقترح هنتر أيضاً تفويض المقيم السامى في عدن في اتخاذ أفضل سياسة تجاه القمطبى والقبائل الأخرى الواقعة شرقى الطريق التجارى الممتد من عدن الى المناطق الداخلية وأنه بتنفيذ تلك المقترحات يمكن للاقامة في عدن الوقوف في وجه التقدم العثمانى في الاتجاه الشرقى ، كما أيد الجنرال شنيدر (Schneider) والذى يشغل منصب مقيم سياسى في عدن (١٨٧٢ ـ ١٨٧٨ م) وجهة نظر هنتر التى تقول ان فرض الحماية سوف يوقف التدخل العثمانى في شؤونها (١) .. ووافقت حكومة الهند البريطانية على توصيات هنتر ومقترحاته ، وذهبت الى أبعد من ذلك ، وأوصت بمد رقعة الحماية لتضم قبائل العوالق السفلى ، ودثينة والمهرة ، والقميطى ، ولم

---

١ ـ جاد طه سياسة بريطانيا في جنوب اليمن ، ١٧٩ ـ ١٨٠ .

تقتصر حكومة الهند على ذلك ، بل انها أرادت أن تمتد حماية البريطانيين على أجزاء من ساحل حضرموت في الاتجاه الشمالى الشرقى بين أراضى عدن ومسقط حتى لو تطلب ذلك بذل بعض الأموال لترغيب شيوخ المناطق ، للدخول تحت الحماية البريطانية ، لتتجنب أى تدخل أجنبى آخر ، ولانهاء الخلاف مع العثمانيين أراد الانجليز الاتفاق معهم على تحديد الحدود بين الأراضى الخاضعة للحماية البريطانية وبين تلك التابعة للحكم العثمانى ، وذلك لكى لا تثار بين الجانبين مشاكل جديدة تتعلق بمناطق النفوذ (١) ، إلا أن الدولة العثمانية لم تعر ذلك اهتماماً لأنها تعتبر المناطق المجاورة لعدن هى في الأساس تابعة للحكومة العثمانية ، والتدخل البريطانى جاء اعتباطاً ، فاقترح اللورد دافرين (DuFFerun) نتيجة لذلك في أغسطس سنة ١٨٨٦ م أنه .. « اذا لم يوافق العثمانيون على تحديد الحدود ، فإنه يمكن تحديدها دون موافقتهم واجبارهم على احترامها » على أى حال ، لم يستمر النزاع طويلاً بين البريطانيين والدولة العثمانية بالنسبة لعملية تحديد الحدود بين منطقة نفوذ كل منهما ، ولم يكن ذلك بسبب تحقيق نصر عسكرى ، أو لنجاح دبلوماسى لاحدى الدولتين ، بل إن المسألة قضى فيها على صعيد اليمن نفسه ، وبعيداً عن خطوط الحدود المقترحة ، فإن العثمانيين الذين اتخذوا من اليمن كله ، بل من الجزيرة العربية عمقاً لهم وظهيراً أثناء مواجهتهم للانجليز في الجنوب .. واجهوا في اليمن ثورات كبيرة مسلحة سأتحدث عنها فيما بعد ـ أدت الى تأرجح موقف العثمانيين في اليمن ، وبالتالى الى انحسار المد العثمانى (٢) الذى كان يسعى لاستعادة النفوذ الفعلى والسيطرة على تلك الأقاليم المجاورة لاقليم عدن التى أصبحت تحت دائرة النفوذ البريطانى وكان الذى أثار قلق الانجليز ودفعهم لعقد معاهدات الحماية مع رؤساء القبائل المجاورة لعدن هو قيام الدولة العثمانية سنة ١٨٧٥ م بتنفيذ مشروع مد خط برقى عثمانى من تعز وحتى عدن ، وبطبيعة الحال سوف تمر بأراضى تلك القبائل التى ترتبط مع بريطانيا بمعاهدات صداقة ، وكانت الدولة العثمانية في هذه الفترة متمسكة باستعادة نفوذها الفعلى على شبه الجزيرة العربية بأكملها ، وقد قام

١ ـ فاروق أباظه ، عدن والسياسة البريطانية في البحر الأحمر ، ص ٤٢٠ .

٢ ـ جاد طه ، سياسة بريطانيا في جنوب اليمن ، ص ٣٠٣ ـ ٣٢٩ .

الوكيل العثمانى في عدن باخطار السلطات البريطانية بأن عشائر لحج تحول دون مد الخط البرقى من تعز الى عدن وأن الباب العالي سوف يضطر الى استخدام القوة ضد هذه القبائل . وقد عارضت بريطانيا هذا الاتجاه الخاص باستخدام القوة ضد هذه القبائل ، خشية أن يحقق ذلك كسباً جديداً للنفوذ العثمانى ، وأصرت السلطات البريطانية على أنه اذا أراد السلطان العثماني مد خط برقى الى عدن فيمكن أن يتم ذلك عن طريق تقديم طلب الى الحكومة البريطانية للوصول الى اتفاق معها ، على ألا يصحب ذلك وجود قوة عثمانية في تلك المناطق ٠ (١)

والجدير بالذكر أنه منذ أن استولت بريطانيا على قبرص سنة ١٨٧٨ م وكذلك بعد الاحتلال البريطانى لمصر ١٨٨٢ م ساءت العلاقات بين بريطانيا والدولة العثمانية وازدادت توتراً ، لذلك وجدت السلطات البريطانية في الهند أنه من المرغوب فيه وضماناً لبقاء ولاء تلك المناطق لهم عقد معاهدات حماية مع رؤساء القبائل العربية المجاورة لعدن تحسباً لأى مفاجأة ٠ وقد شجع التدخل العثمانى في شؤون بعض هذه القبائل سنة ١٨٨٠ م وضع الترتيبات الفعلية لعقد هذه المعاهدات ، (٢) التى كانت على التوالى ، في ٢ اكتوبر سنة ١٨٨٠ م عقدت بريطانيا معاهدة حماية مع أمير الضالع ، وفي ٣ مارس سنة ١٨٨١ م عقدت معاهدة بين الفضلى وبعض القبائل المجاورة بشأن أراض متنازع عليها ، وقد لعبت بريطانيا دور الوسيط في هذه المعاهدة ، وفي أول مايو سنة ١٨٨١ م عقدت معاهدة حماية مع سلطنة القعيطى (٣) ، كما أصبحت سلطنة لحج محمية بريطانية ، وذلك بموجب معاهدة عقدت في ٥ مايو سنة ١٨٨١ م تعهد فيها السلطان فضل ابن على بن محسن بأن يكون مسؤولاً عن كل تعهد يحدث من رجال القبائل ، وألا يعقد أى معاهدة مع دولة أخرى ولا تشيد قلاع ولا عمارات على ساحل البحر إلا باذن حاكم عدن ، ولا يجوز للسلطان أن يستورد أو يصدر سلاحاً أو ذخائر أو عبيداً أرقاء أو أى نوع من التجارة أو المكيفات من أى جهة من الساحل الى داخل البلاد الا بعد التصريح له من حاكم عدن ، وفي مقابل ذلك تعهد الانجليز بدفع

---

١ ـ فاروق أباظه ، عدن والسياسة البريطانية في البحر الأحمر ، ص ٤٢٠ ٠

٢ ـ جاد طه ، سياسة بريطانيا في جنوب اليمن ، ص ١٨١ ٠

٣ ـ محمود كامل اليمن شماله وجنوبه ، س ٢٤٢ ٠

راتب شهرى للسلطان ، وفي حالة قدومه لعدن تضرب له مدفعية حامية عدن احدى وعشرين طلقة (١) ، وفي ٧ فبراير سنة ١٨٨٢ م عقدت بريطانيا معاهدة مع سلطنة لحج ، اشترت بمقتضاها قطعة أرض في منطقة الشيخ عثمان مساحتها خمسة وثلاثون ميلًا كانت تابعة لسلطان لحج ، وانتقلت ملكية قناة المياه بين تلك المنطقة وعدن الى بريطانيا في مقابل خمسة وعشرين ألف ريال وزيادة الإتاوة الشهرية التى تدفع للسلطان الى ألف ريال ، وفي ٢ يونيو سنة ١٨٨٢ م عقدت معاهدة حماية مع سلطان العوالق السفلى ، وفي ٢٦ يوليو سنة ١٨٨٣ م عقدت بريطانيا معاهدة مماثلة مع الشحر والمكلا (سلطنة القميطى) ، وفي ٢٣ أبريل سنة ١٨٨٦ م عقدت معاهدة حماية بين بريطانيا وسلطنة المهرة (قشن وسقطرة) وفي أول مارس سنة ١٨٨٨ م عقدت معاهدة مماثلة مع سلطنة القميطى ، وفي ٢٧ أبريل من نفس العام عقدت معاهدة مماثلة مع شيخ عرقة وفي اليوم التالى عقدت معاهدة مماثلة مع شيخ حورة ، ولم يكن لتلك المشيختين كيان سياسى ، وانما هما مدينتان صغيرتان على شاطىء المحيط الهندى تقعان في سلطنة الواحدى، وفي أول يونيو سنة ١٨٨٨ م عقدت معاهدة مماثلة مع العوالق السفلى ، وفي ١٥ يوليو عقدت معاهدة مع شيوخ العقربى ، اذ باع بمقتضاها قطعة من أرض الشاطىء لتكملة انشاء مستعمرة عدن مقابل ألفى روبية ، ووضعت العقربى تحت الحماية البريطانية ، وفي ٤ أغسطس عقد اتفاق بين الفضلى والعبدلى « لحج » لتعيين الحدود فلعبت انجلترا فيه دور الوسيط ، ووضعت الفضلى تحت الحماية البريطانية . وخطت السياسة الاستعمارية خطوة تالية في صلاتها بجنوب شبه الجزيرة العربية ، إذ مدت سلسلة معاهدات الحماية ، ففى ١٧ سبتمبر سنة ١٨٨٩ م عقدت معاهدة مع الصبيحة ، وفي ٢٥ مارس سنة ١٨٩٥ م عقدت بريطانيا معاهدة حماية مع سلطنة الواحدى ، وفي ١٦ يوليو من نفس العام عقدت معاهدة حماية مع يافع السفلى ، وفي ١٦ أغسطس سنة ١٨٩٦ م عقدت بريطانيا معاهدة حماية مع الحوشبى ، وفي ٧ يناير سنة ١٩٠٢ عقدت بريطانيا معاهدة حماية مع عرقة في جنوبي شبه الجزيرة أيدت ما جاء في معاهدة ٢٧ أبريل سنة ١٨٨٨ م وفي ٧ أبريل سنة ١٩٠٢ م

١ ـ أحمد فخرى ، اليمن ماضيها وحاضرها ، ص ١٦٣ .

عقدت معاهدة مماثلة مع شيخ حورة أيدت ماجاء في معاهدة ٢٧ أبريل سنة ١٨٨٨ م ، وفي ١١ مارس و ٣ يوليو ، و٢٦ سبتمبر سنة ١٩٠٣م عقدت معاهدات صداقة مع قبائل تابعة ليافع العليا ، وفي ٢١ اكتوبر من العام نفسه عقدت معاهدة مماثلة مع سلطان يافع العليا ، وفي ٢٩ ديسمبر من العام نفسه عقدت معاهدة مماثلة مع أحمد محسن العقبى شريف بيحان (١) .. وهكذا استطاعت بريطانيا بتلك المعاهدات التى عقدتها مع شيوخ القبائل المجاورة لعدن أن تتحكم في المنطقة بأكملها لتتجنب الصدام مع الدولة العثمانية ، ولتكون عائقاً أمام الدولة لتكملة نفوذها على شبه الجزيرة ، وكانت بريطانيا في أثناء تلك المدة حريصة كل الحرص على المنطقة ادراكاً منها بأهميتها الحيوية ، وتحفظاً مع طمع الدولة العثمانية ، ومن الملاحظ أن المعاهدات السابقة التى فرضتها بريطانيا على زعماء القبائل اليمنية في جنوب اليمن تميزت بتشابهها ، بل إنها تكون صورة مكررة لبنود محددة ، كان أهمها تعهد السلاطين والأمراء اليمنيين في مقابل تمتعهم بالحماية البريطانية بعدم الاتصال أو الاتفاق أو التعاقد مع أية قوى أو دول أجنبية الا بعد موافقة الحكومة البريطانية ، كما أنهم تعهدوا أيضاً بعدم التنازل أو بيع أو رهن أو تأجير أية أرض من أراضيهم لأية دولة أجنبية فيما عدا الحكومة البريطانية على أنه لم تمض سنة ١٨٩٦ م الا وكانت هذه المعاهدات قد تم عقدها بين الحكومة البريطانية وسبعة عشر حاكماً من الحكام العشرين في المنطقة المحيطة بعدن . (٢)

وهكذا انتقلت السياسة البريطانية في عدن من طور المعاهدات الولائية والتى ذكرناها في الفصل الأول الى طور المعاهدات الخاصة بالحماية مع القبائل المحيطة بعدن ، وذلك بمرونة ودهاء تميزت بهما السياسة البريطانية على وجه الخصوص والتى عبر عنها أحد أعمدة السياسة في بريطانيا اذ قال: «إن المبدأ المرن في السياسة هو أصلح المبادىء لحل المشاكل الخارجية أو الاستعمارية » (٣) . وكانت أبعاد السياسة البريطانية التى اتبعت مع سلطنات ومشيخات المنطقة المجاورة لعدن بجنوبى اليمن ، كانت تتغير من حين لآخر تبعاً لتغير المقيمين السياسيين

---

١ ـ محمود كامل ، اليمن شماله وجنوبه ، ص ٢٤٢ ـ ٢٤٥ .

٢ ـ فاروق أباظه ، عدن والسياسة البريطانية في البحر الأحمر ، ص ٤٢٢ .

٣ ـ أمين الريحاني ، ملوك العرب ، ص ٣٧٢ .

البريطانيين المسؤولين عن السلطنة في عدن (١) ، وعلى هذا النحو أخضعت بريطانيا صغار الأمراء المحليين لسلطتها ، وقد ضمنت لهم المحافظة على الاستقلال الذاتى ضمن حقوق السيادة لسلطات المحمية، وقد ترك لحكومة الهند أمر ادارة المنطقة حيث الرقابة غير المباشرة ، والتى كانت تتم عن طريق سلطات عدن وهذه السلطات الأخيرة لم تسمح ولم تعمل على السيطرة على النزاعات القبلية ، بل ذهبت الى حد اعطاء زعماء القبائل صفة الامارة والسلطنة والمشيخة ، ووضعهم على رأس دويلات مصطنعة ، لذلك قامت في ظل السيطرة البريطانية مجموعة من المحميات تتكاثر كلما عقدت معاهدات جديدة للحماية مع زعماء آخرين (٢) ، على أن الانجليز هم المستفيدون من نظام الحماية ، وهم أيضاً قد زادوا من استعمال المنافسات المحلية ، بارسال كمية من الأسلحة من جيبوتى (Djibouti) الى شبه الجزيرة العربية وكان هذا السلاح من نوع البنادق التى يحملها الفرسان ، وهى تشبه البارودة أو بندقية الشُشمان الصغيرة .. والعرب قادرون على تعبئة الخراطيش ، وفشكات الذخيرة في البيوت ، وقد اعتاد رجال قبيلة الصبيحية انزال الأسلحة والذخيرة الحربية في منطقة رأى العرى التى تقع غرب عدن .. واستمر ذلك حتى وضع السلطان حراساً في ذلك الخليج ، وفي سنة ١٨٨٣ م أمرت الحكومة الهندية بوجوب منع الأسلحة الفتاكة من دخول المحميات ، ولكن العربى يتوق الى البندقية ، ويجد الطريق للحصول عليها ، وأخيراً منع استعمال البنادق الفرنسية واستبدلت ببنادق انجليزية من نوع (Martini Henny RiFFe)(١)

وكنتيجة حتمية لفرض الحماية على النواحى التسع والتى عرفت فيما بعد باسم محمية عدن الغربية ، فقد سعى السياسيون البريطانيون لفرض الحماية على حضر موت والمهرة ، تحسباً من تدخل نفوذ آخر ، وعلى الأخص الدولة العثمانية ، بسبب ادعائها الأحقية في الجزيرة العربية بأكملها ، وقد استعمل البريطانيون الطرق الملتوية ، والقائمة على أساس الخداع واستغلال الخلافات وتطبيق الانتهازية السياسية ، والطرق اللا أخلاقية في استمالة رجال القبائل وزعماء العشائر وذلك

---

١ ـ فاروق أباظه ، عدن والسياسة البريطانية في البحر الأحمر ، ص ٤٢٢ ، ٤٢٣ .

٢ ـ محمد عمر الحبشي ، اليمن الجنوبى ، ص ١٧ .

٣ ـ هارولد ٠ ف ، عدن وجنوب اليمن في ملوك العرب ، ص ١٠٧ .

بدفع الأموال لهم ، وبذلك تم للبريطانيين اخضاع النواحى التسع بالاضافة الى السلطنة القميطية والسلطنة الكثيرية وسلطنة المهرة وقشن ، وحضر موت الى محمية بريطانية عرفت باسم محمية عدن الشرقية (١) ، وخلال هذه المرحلة كانت الادارة تابعة لحكومة بومبى التى كانت ممثلة في بعض المشاهرات البسيطة للأمراء والشيوخ الذين استطاعوا المحافظة على وجودهم في عدن وجنوب اليمن ، فلو لا نظام الحماية لكانوا قد احتاجوا الى صرف مبالغ طائلة لتوفير القوات اللازمة التى يمكنها أن تحافظ على وجودهم هناك وتدرأ عنهم خطر هجوم القبائل اليمنية على قواتهم من الداخل .

ويشير أمين الريحانى الى أن البريطانيين .. « تجار لا يبارون ، كما أنهم ساسة محنكون ، فإذا خيروا بين نفقات الجيش والمشاهرات يختارون الثانية ولا غرو ، واذا اعتبرنا مصالحة انجلترا أولاً ثم العالم الذى تهمه محطة المواصلات البرقية والبخارية لصفقة غانمة ، أما اذا اعتبرنا مصلحة العرب فيمترينا الأسف والغم لأنهم الخاسرون في كل حال ، الخاسرون وإن تضاعفت الأموال » (٢) ومن المؤكد أن نظام الحماية السابق الذكر لم يكن مجدياً لليمنيين على الاطلاق لأنه لم يوفر لقبائل المنطقة الحماية من الغزو الخارجى ومن اشتمال نيران الحرب داخلياً فيما بينهم ، ولا أدل على ذلك مما أوضحه اللورد بلهافن (Lord Belhaven) الذى عمل مساعداً للمقيم السامي البريطانى في عدن ، عندما أكد أن نظام الحماية وما استتبعه من اهداء البنادق والأسلحة المختلفة لشيوخ القبائل اليمنية قد عمق الخلافات بين أبناء الوطن الواحد ، وزاد من حدة الحرب الأهلية وتفاقمها ، وأشعل لهيب القتال بين القبائل (٣) ، ومن ذلك أن سلطان لحج تعود على مهاجمة قبائل الصبيحى الذين وصفهم أحد الكتاب بأنهم (فرسان قطاع طرق) ، وكان سلطان لحج شخصاً غير موثوق به من قبل العثمانيين الذين ارتابوا في أنه يستورد الأسلحة التى كانت ترسل الى الامام ، وكان المقيم البريطانى في عدن يتمتع بامتيازات واسعة ، فقد كان في الوقت نفسه حاكماً مدنياً وقائداً أعلى للقطاعات المتمركزة ، وكان يساعده ثلاثة أو أربعة من كبار

---

١ ـ محمد حسن العويلى ، اغتيال بريطانيا لعدن والجنوب العربى ، ص ١٦ .

٢ ـ أمين الريحاني ، ملوك العرب ، ص ٣٨٥ .

٣ ـ فاروق أباظه ، عدن والسياسة البريطانية في ملوك العرب ، ص ١٠٧ .

موظفى مصلحة الادارة السياسية للهند ، ومصلحة المستعمرات وكان يضاف الى هذا العدد المحدود قاض وقائد للشرطة ورئيس لادارة المرفأ ، واستمرت الادارة على ذلك مايقارب نصف قرن ، لم تتغير الا بعد أن طرأت تحولات سياسية على الهند بعد الحرب العالمية الأولى ٠ (١) ٠

وهكذا نلاحظ مما سبق ذكره ، أنه نتج عن افتتاح قناة السويس سنة ١٨٦٩ م عودة الدولة العثمانية لفرض سيطرتها على اليمن ، ومن هناك رأت الدولة أن تمد سيطرتها على المناطق المجاورة لعدن ، لأنها رأت في نفسها صاحبة الحق على تلك المناطق ، ولها سيادتها على كل أنحاء الجزيرة العربية ولكن بريطانيا كما رأينا عقدت معاهدات الصداقة مع شيوخ القبائل المجاورة لعدن ، وكلما رأت بريطانيا خطة الدولة العثمانية في محاولات لاعادة السيطرة العثمانية على تلك المناطق قام البريطانيون بتطوير سياستهم مع القبائل المحيطة بعدن ، فعقدت مع شيوخ القبائل معاهدات حماية حتى تقطع كل أمل في اتصال الدولة العثمانية بهؤلاء الشيوخ ، وذهبت بريطانيا الى أبعد من ذلك اذ استطاعت أن تعقد معاهداتها مع سبع عشرة مشيخة من بين عشرين ، كما مدت معاهداتها مع القبائل الموجودة في حضر موت وعلى الأخص تلك المحيطة بالساحل المطل على المحيط الهندى ، على أن هذه السياسة البريطانية كانت تهدف الى المحافظة على انفراد بريطانيا بالنفوذ المطلق في عدن ، وفي المنطقة المحيطة بها وابعاد أى نفوذ آخر يهدد مصالحها ، وبالفعل نجحت تلك السياسة وكانت بمثابة حجر عثرة أمام الدولة العثمانية في محاولاتها لاستكمال نفوذها على شبه الجزيرة العربية بوجه عام ، وعلى منطقة اليمن بوجه خاص ، وخصوصاً وقد فقدت السيطرة على قناة السويس التى شجعتها في محاولاتها لاستعادة هذه السيطرة اذ كانت الطريق الذى تعبر منه القوات العثمانية ، كما سهل عملية الامدادات ، أما الآن وقد فقدت القناة ، فعليها أن تبحث عن البديل فكان ذلك هو سكة حديد الحجاز ، الذى سأتحدث عنه في الفصل اللاحق ٠

---

١ ـ محمد عمر الحبشى ، اليمن الجنوبى ، ص ١٨ ٠

ثورة اليمن

عندما خضع اليمن لسلطة الدولة العثمانية ترك العثمانيون بصورة اجمالية للعرب ادارة شؤونهم بأنفسهم مع وجود حد أدنى من التدخل طالما كانوا يدفعون خراجاً سنوياً ، والذى كان عبارة عن الجباية التى كان يلتزم بها بعض الأشخاص وتدفع من دخل الفلاحين (١) ، وذلك حتى يتمكن المسؤولون العثمانيون من تغطية نفقات الحامية العثمانية الموجودة في اليمن وأن ينفذوا بعض المشروعات هناك ، إلا أن غالبية الولاة والمتصرفين العثمانيين استغلوا جمع الضرائب لمصلحتهم الشخصية واستبدوا في تحصيلها ، واستعملوا شتى الطرق وأعنف الوسائل لجمعها ، مما أثار حقد اليمنيين ، وأشعل نار الثورة ضد الحكم العثمانى ، (٢) وقد ذكر الواسعى ذلك « .. كان القائمقام أو غيره من المأمورين اذا خرج لأى قضاء أو ناحية لأخذ الأعشار أخذ ماقدر على تحصيله لنفسه ولم يساعد على كتب سند ما أخذ منهم ، ثم يرجع للحكومة ويقول لم يدفعوا شيئاً ، ثم تأمر الحكومة بنهبهم وخراب بيوتهم واحراقها ويتظاهر المأمورون بأن أهل اليمن أشقياء ومذهبهم زيدية » (٣) لذلك ازدادت الكراهية بين العرب عامة والترك في غضون القرن التاسع عشر نتيجة لانتشار الفوضى في الأطراف النائية من الدولة ، وقد حاولت الدولة علاج ذلك عن طريق التنظيمات التى شرعت الدولة في تنفيذها منذ منتصف القرن التاسع عشر والتى اتصفت بالصفة المركزية ، فقد حاولت الدولة أن تتخلص من نظام الالتزام في جمع الضرائب ، وأن تستعيض عنه بنظام آخر للجباية أكثر ملاءمة لمصالح السكان ، وبنظام آخر لادارة الولايات بتقسيم الدولة الى وحدات ادارية مرتبطة بالحكومة المركزية المباشرة ، (٤) وقد أشرنا من قبل الى قانون الولايات الذى أصدرته الدولة سنة ١٨٦٤ م .

---

١ - هارولد . ف ، عدن وجنوب اليمن في ملوك العرب ، ص ٧٩ .

٢ - جاد طه ، سياسة بريطانيا في جنوب اليمن ، ص ٣٠٧ .

٣ - الواسعى ، تاريخ اليمن ، ص ١٤٠ .

٤ - توفيق على برو ، العرب والترك ، ص ٥ .

على أن الحكم العثماني لم يكن ثابتاً في اليمن ، وذلك بسبب استمرار الثورات ، اذ لم تكن للعثمانيين شعبية في تلك المناطق ، كما أن الحروب التى شنها اليمنيون من المرتفعات منذ سنة ١٨٩٢ م وتكبدت الدولة نتيجة لذلك خسائر فادحة حتى سمى اليمن بمقبرة الأتراك ، وقد ذكر أحد الأئمة القدامى في صنعاء ، أنه اذا أراد العثمانيون البقاء لسلطتهم في بلاد اليمن أن يتخلوا للعرب عن الأماكن التى يكون الحرف الأول من اسمها مكتوباً بالصاد ، وذلك مثل صنعاء ، وصبر ، وصعدة وصبيا وكانت الفكرة تقوم على أساس أن للعثمانيين أن يحتفظوا بالمدن الساحلية ، وأن يتركوا داخل البلاد للأئمة الذين كانوا شيئاً مزعجاً للعثمانيين ، خاصة رجال قبائل حاشد وبكيل الذين يعدون من أحسن البطون والعشائر المحاربة في اليمن ، وعلى الأخص على الذين يقال لهم « ذو محمد ذو حسين » الذين كانوا متطرفين بتعصب ضد التسلط العثماني (١) .. كما أشرت في البداية كان بعض الولاة العثمانيين هم السبب المباشر في ثورة الأهالى لأنهم انتهجوا في اليمن منهج العسف كوسيلة لتوطيد الحكم العثماني في اليمن، وكثيراً ماكانوا يعتقلون العلماء والتجار ولا سيما في صنعاء ، وذلك بتهمة ولائهم للأئمة الزيديين وكان من هؤلاء عثمان باشا ـ ١٣٠٥ ـ ١٣٠٧ هـ (١٨٨٨ ـ ١٨٩٠ م) الذى انتهج سياسة الارهاب في اليمن ، وأشاع أخذ الرشوة كما قام باعتقال العلماء ومنهم عبد الله الضلعى ويحيى بن أحمد المجاهد صاحب تعز ، ثم أتى من بعده عثمان نوري باشا ، وكان مستقيماً متواضعاً ، إلا أن كبار موظفى العثمانيين عملوا على عزله من منصبه ، وعاد الى تركيا ، ثم تولى بعده الولاية اسماعيل حقى باشا ١٣٠٧ ـ ١٣٠٨ هـ (١٨٩٠ ـ ١٨٩١ م) (٢) وفي سنة توليته سنة ١٨٩٠ م توفي الهادى الامام شرف الدين بن محمد ، وأجمع أهل الأهنوم على مبايعة محمد بن يحيى حميد الدين الذى كان قد سجن في الحديدة ، واستطاع الفرار الى الأهنوم ، (٣) وتلقب بالمنصور ، ومن الأهنوم أخذ يرسل الى أتباعه ورجاله في جميع اليمن لاستثارة القبائل والعمل ضد العثمانيين (٤) وقد أيدته جميع القبائل واستجابت لنداء الحرب ، وكان من الطبيعي أن يقع خروج الامام المنصور من صنعاء ،

١ ـ هارولد ، ف ، عدن وجنوب اليمن في ملوك العرب ، ص ٧٥ .

٢ ـ محمد يحيى الحداد ، تاريخ اليمن السياسى ، ص ٣٥٢ .

٣ ـ أحمد حسين شرف الدين ، اليمن عبر التاريخ ، ص ٢٦٥ .

٤ ـ سيد رجب حراز ، الدولة العثمانية وشبه جزيرة العرب ، ص ٨٦.

وتحريض القبائل اليمنية على محاربة العثمانيين وقعاً كبيراً على رجال الدولة العثمانية ، وذلك لما للمنصور من المحبة والنفوذ بين رجال القبائل الذين يخشون بأسهم ، وكانت قبائل اليمن قد سئمت ضغط العثمانيين ، لذلك سرعان ما التفت حول الامام ، مما أدى الى اتجاه القبائل الى محاصرة صنعاء سنة ١٨٩١ م بعد أن سيطروا على حصن « ظفير حجة » وسور ، والشرف ، ويريم ، وذمار ، وحفاش ، وملحان ، والروضة وغيرها من جهات صنعاء،وقبل أن يحاصر الامام المنصور مدينة صنعاء ، قام بمحاربة العثمانيين في بلاد الشرف سنة ١٨٩٠ م حيث تمكن من هزيمتهم ، وقتل قائد الحامية العثمانية هناك وكان يدعى محمد عارف ، وكان لهذه المعركة أسوأ الأثر لدى الأتراك العثمانيين في اليمن في ذلك الوقت (١) ، كما أن قبائل همدان ثارت سنة ١٨٩١ م (١٣٠٨ هـ) بزعامة شيخها يحيى بن يحيى دوزه ، فخرج علي باشا من صنعاء يرافقه السيد محمد بن على الشريع شيخ ضلاع ، وعندما وصلوا الى قاع المنقب ، تقابلوا مع أحمد بن محمد الشرعى الحسنى ومعه جموع كثيرة من القبائل اليمنية،وقد نشب بين الفريقين قتال عنيف ، وكان ذلك في عهد الوالي العثمانى اسماعيل حقى باشا ، الذى منع المأمورين من الارتشاء ، وكانت اليمن خلال ولايته أحسن مما كان قبله ، ثم توفي سنة ١٨٩١ (١٣٠٨ هـ) بعد ذلك ثارت القبائل اليمنية ضد العثمانيين في معظم أرجاء اليمن وخاصة في بلاد البستان ، وهى مخلاف كبير يقع غربى صنعاء ويجاور آنسى والخيمة وهمدان وسنحان ، وقام اليمنيون هناك بانتزاع أسلاك البرق ونهبوا البريد الوارد من الاستانة الى صنعاء عاصمة الولاية (٢) ، وقد سبقت هذه المناوشات عملية حصار صنعاء التى تمت بعد أن انهزم العثمانيون ، وتراجعوا أمام هجمات القبائل اليمنية في المواقع السابقة ، وقد اشتدت وطأة الحصار حول صنعاء وتعز واستمر شهرين ، ويصف الواسعى الحالة السيئة في اليمن وقتئذ وخاصة صنعاء فيقول : « وحصل للناس ضيق شديد بالحصار لعدم الطعام فمن كان به طاقة وقدر على الصبر ومعه ما يقوم بقوته هو وأهله قعد في صنعاء مع الخوف،وقد باع الناس

١ ـ فاروق اباظة ، الحكم العثمانى في اليمن ، ص ١٢٩ ، ١٣٠ .

٢ ـ الواسعى ، تاريخ اليمن ، ص ١٢٩ ، ١٣٠ .

أموالهم وأمتعتهم بثمن رخيص في مقابل قوت لهم ، ومن لم يقدر على الجلوس في صنعاء خرج هو وأهله وظن أنه يخرج من الظلمات الى النور فإذا خرجوا لقيتهم القبائل الذين عاثوا في الأرض فساداً وبغوا على امام الحق بغياً وعناداً » (١)
وعندما اشتدت المقاومة على العثمانيين في اليمن انهالت البرقيات من الحديدة على الآستانة لطلب الامدادات العسكرية اللازمة لاخماد الثورة ، ومن ثم أرسل السلطان العثمانى القائد أحمد فيضى باشا الى الحديدة لقمع الثورة وعينه والياً لليمن ، وتقدم فيضى باشا على رأس قواته وقضى على الحصار وتمكن من دخول صنعاء (٢) ، وذلك بعد حروب قاسية بين الطرفين ، وعندما دخل صنعاء أعلن عفوا عاماً عن القبائل التى حاربت العثمانيين ، وطلب منها التفرق والعودة الى مناطقها ليتمكن من التفاهم مع الامام المنصور لبحث امكانية التشاور والصلح ، ولكن الامام المنصور وضع شروطاً للصلح لم يقبل بها الجانب العثمانى ، ثم قدم السيد محمد الرفاعى من تركيا الى اليمن لاستئناف مباحثات الصلح مع الامام المنصور ، وذلك سنة ١٣١٤ هـ (١٨٩٧ م) وجرت بينهما مراسلات لم تفلح في تحقيق اتفاق بين الجانبين ، وعاد الرفاعى الى تركيا (٣) وكان السلطان العثمانى قد حاول استقصاء أسباب تذمر اليمنيين من الحكم العثماني لحل المشكلة ، فأرسل لهذا الفرض نامق بك الذى وصل اليمن ، عندها تقدم اليمنيون اليه بشكاوى عديدة من سوء ادارة أحمد فيضى باشا ، فاضطر السلطان أن يعزل هذا الوالى ويعين مكانه حسين حلمى باشا ١٣١٥ ـ ١٣١٨ هـ (١٨٩٨ ـ ١٩٠١) (٤) ، والذى وصف بالاستقامة وحب العلماء ومحاربة الظلم والرشوة ، وكما ذكر أنه أنشأ داراً للمعارف ودوراً للمعلمين ومكتباً للصنائع .. كما أنشأ لأول مرة المدارس الاعدادية في صنعاء وسن التعليم الاجبارى ، وكان التعليم قاصراً على علوم الشريعة والعربية في المساجد ، كما كون حسين حلمى هيئة استشارية من العلماء ورجال السياسة ، وكان لا ينفذ أمراً دونها ولبس العمامة اليمنية وأمر الموظفين بلبسها بدلاً من الطربوش الذى عممه أحمد فيضى باش على جميع الموظفين(٥)، وهكذا عاد الهدوء الى ربوع اليمن في عهد هذا

---

١ ـ الواسعى ، تاريخ اليمن ، ص ١٤٥ .

٢ ـ جاد طه ، سياسة بريطانيا في جنوب اليمن ، ص ٣٠٨ .

٣ ـ محمد يحيي الحداد ، تاريخ اليمن السياسي ، ص ٣٥٣ .

٤ ـ سيد رجب حراز ، الدول العثمانية وشبه الجزيرة العربية ، ص ٨٦ .

٥ ـ محمد يحيي الحداد ، تاريخ اليمن السياسى ، ص ٣٥٣ .

الوالي الذى أراد أن يضع مبادىء الاصلاح فيه ، ويجعل من اليمن ولاية اعتيادية ليدعم النفوذ العثمانى ، لأنه عندما يقوم ببناء المشاريع ، ويشارك الأهالى في حلول المشاكل عندها يشعر اليمني بقوة تلك الدولة التى تهتم بشؤونه ، ويرضى عندها بالولاء ، إلا أنه عزل الوالي حسين حلمى وعين بدلاً منه المشير عبد الله باشا ١٣١٨ ـ ١٣٢٢ هـ (١٩٠١ ـ ١٩٠٥ م) فعاد الظلم الى ماكان عليه ، وكثرت الرشوة ، وانتشر الفساد ووقع الجدب والقحط ، وكان هذا الوالي مغرماً باللهو والغناء والموسيقى رغم كبر سنه ، كما وضع سلك البرق من صنعاء الى تعز من جهة الجنوب من صنعاء ، وتمردت في عهده سنة ١٣١٩ هـ (١٩٠٢ م) قبائل الزرانيق في سوق برعان على مسافة ٦ ساعات من صنعاء الى الغرب ، وعانت الحكومة العثمانية متاعب كبيرة في سبيل اخضاعها لبسالتها وعدم استقرارها (١) ، وكان عزل المشير عبد الله باشا بسبب عدم تمكنه من حماية حدود اليمن من عدوان الانجليز الذين توسعوا في الجنوب ، وسيطروا على الضالع سنة ١٩٠٢ ، كما أن هذا الوالي لم يستنكر عدوانهم على المنطقة ، فأمر الباب العالي بعزله وتعيين توفيق باشا خلفاً له (٢) ٠ وكان الامام المنصور قد توفي سنة ١٣٢٢ هـ (١٩٠٤ م) فاجتمع العلماء على اقامة ا بنه يحيى ا بن الامام المنصور بالله محمد بن يحيى حميد الدين ، ومبايعته بالامامة ولقب بعد ذلك بالمتوكل (٣) ، واتخذ المتوكل قفلة عذر عاصمة له ، وقد بدأ الامام فور توليه الامامة في تنظيم المقاومة ضد العثمانيين (٤) ، فجمع القبائل من جميع البلاد التى أجابته بالطاعة ، فأمرها بحصار المدن التى فيها العثمانيون ، فحاصروا جميع مراكز اليمن ماعدا الحديدة وتعز واستسلم العرب جميعاً لذلك (٥) وكان الامام المتوكل قد أرسل سنة ١٩٠٤ رسائل عديدة الى عدن ، ونشر دعايات للتشهير بما يقوم به العثمانيون من فظائع،وعبر الامام عن غضبه وحقده على الحكم العثمانى ، والذم للعثمانيين ، ومما قاله ، « قد لبسوا أثياب الطغيان وتسربلوا بحلل الغطرسة والعصيان) ، واتهمهم بالفسق وبارتكاب الجرائم (٦)

١ ـ حسين بن أحمد العرشى ، بلوغ المرام في شرح مسك الختام ، ص ٨٣ ٠

٢ ـ جاد طه ، سياسة بريطانيا في جنوب اليمن ، ص ٣٠٩ ٠

٣ ـ الواسعى ، تاريخ اليمن ، ص ١٩٧ ٠

٤ ـ جاد طه سياسة بريطانيا في جنوب اليمن ، ص ٣٣١ ٠

٥ ـ الواسعى ، تاريخ اليمن ، ص ٢٨ ٠

٦ ـ هارولد ٠ ف عدن وجنوب اليمن في ملوك العرب ، ص ١٢٢ ٠

وهكذا شن اليمنيون الحرب على العثمانيين ، وعلى رأسهم المتوكل والذى انتقل من قفلة عذر الى كوكبان ، واضطربت البلاد وزاد الضغط على العثمانيين ، كما تضافرت القوى اليمنية من قبائل همدان وحاشد والأهنوم وغيرها من القبائل التى كانت قد سئمت الوضع القائم الذى لا توجد فيه سلطة وطنية معينة تعنى بالمحافظة على الأمن ، وادارة البلاد ادارة سليمة ، وتمكنت تلك القوى من تعقب الحاميات العثمانية ، وحصرها في صنعاء (١) ، ولما اشتد الحصار على العثمانيين ، انتدب الوالي العثمانى في صنعاء هيئة من الأتراك واليمنيين الى الامام يحيى لبحث موضوع تسليم صنعاء اليه ، والشروط التى يتم الاتفاق عليها ، لذلك تم الاتفاق على حماية الامام للعثمانيين أثناء انسحابهم من صنعاء الى حراز ، على أن تكون بلاد حراز الى جانب المناطق التى هى على ولاء العثمانيين ، وهى ألوية تهامة وتعز واب ، وانتدب الامام يحيى سيف الاسلام أحمد بن قاسم حميد الدين لاستلام صنعاء من العثمانيين نيابة عنه (٢) .. وبعد أن استقرت الأحوال في صنعاء دخلها الامام يحيى مع حاشيته رسمياً كان ذلك في ٢١ أبريل سنة ١٩٠٥ م وسمح للجنود العثمانيين الذين وجدهم داخل المدينة بالخروج منها الى الساحل مع تأمينهم على أرواحهم ، ومع ذلك بعد أن جردهم من أسلحتهم وذخيرتهم ، غير أنه ماكاد الامام ينصرف الى تنظيم الأمور في صنعاء واقامة الأحكام الشرعية حتى أرسل الباب العالي حملة عسكرية كبيرة وعلى رأسها أحمد فيضى باشا (٣) وذلك لتدعيم موقف العثمانيين في اليمن ، وقد تمكن فيضى باشا من التقدم من الحديدة الى صنعاء التى انسحب منها الامام يحيى ، وتمكن العثمانيون بالفعل من استعادة صنعاء في الأيام الأولى من سبتمبر سنة ١٩٠٥ م ، وانسحب الامام الى شهارة (٤) ، وأخذ أحمد فيضى باشا ، وقوته المكونة من عشرة طوابير أن يتوغل في البلاد ، وشجعه على ذلك عدم وجود مقاومة ، ولم يفطن الى أن اخلاء السبيل كان خدعة حربية من اليمنيين ، وما كاد يبلغ شهارة حتى هاجمته القبائل اليمنية بشكل

---

١ ـ احمد حسين شرف الدين ، اليمن عبر التاريخ ، ص ٢٦٧

٢ ـ محمد يحيي الحداد ، تاريخ اليمن السياسى ، ص ٣٥٧ .

٣ ـ سيد رجب حراز ، الدولة العثمانية وشبه جزيرة العرب ، ص ٨٨ .

٤ ـ جاد طه ، سياسة بريطانيا في جنوب اليمن ، ص ٣٣٢ .

مكثف ، وهنا حلت الكارثة على العثمانيين ، وقتل عدد كبير من الجنود وقوادهم ، وفر أحمد فيضى مع من بقى من جنوده ، وكانت معركة شهارة من أعظم المعارك التى دارت بين الشعب اليمني والعثمانيين ، كما كانت نقطة تحول في مجرى التاريخ اليمنى ، ومعركة حاسمة في مراحل الوجود العثمانى ، وسميت اليمن بعد تلك المعركة بمقبرة الأناضول (١) ٠

رأى المشير أحمد فيضى باشا بعد دخوله صنماء وبعد العناء الشديد الذى واجهه ، والأخطار المحدقة به ، أنه من الأفضل عقد صلح مع الامام لينهى الخلاف ويريح الدولة من مشكلة استعصى حلها ، فأوفد وفداً الى صعدة لزيارة الامام ومفاوضته في عقد صلح ، فوضع شروطاً معتدلة سلمها للوفد (٢) وتضمنت هذه الشروط تطبيق أحكام الشريعة الغراء ، وأن يرجع عزل القضاة وحكام الشرع وتعيينهم الى الامام ، وأن تكون معاقبة الخائنين والمرتشين منوطة بالامام ، وأن تجبى الأموال بواسطة مشايخ البلاد تحت نظارة مأمورى الدولة العثمانية ، ولا يكون للامام علاقة بقبض الأموال الأميرية ، على أن تحافظ الدولة العثمانية على أمن الدولة الخارجى فأبت الحكومة العثمانية قبول هذه المقترحات ، فتجدد القتال مرة أخرى ٠ (٣)

من السابق يبدو لنا أن استمرار الثورات اليمنية ضد السلطة العثمانية والذى كان سببها كما رأينا طبيعة المذهب الزيدى بالاضافة الى سوء حكم بعض الولاة العثمانيين الذين بالغوا في اضطهاد وارهاق الأهالى ، كما أن الاختلاف المذهبى بين الأئمة الزيدية والسلطة العثمانية زاد من حدة تلك الثورات ضد الحكومة العثمانية التى أدخلت نظماً لم يألفها الزيديون في اليمن ، وذلك في رأي الأئمة الزيدية ، على أن تلك الثورات قد لاقت اهتماماً كبيراً من قبل جهاز الحكومة العثمانية ، فأرسلت الدولة عدة قواد عثمانيين لاخمادها ، واستطاعوا النجاح في كثير من الأحيان ، لكن انضواء الأهالى تحت راية الثورة التى يقودها الامام الزيدى زاد من خطورة تلك الثورات على الحاميات العثمانية التى ظلت مستمرة ، وكان اهتمام

---

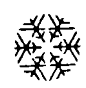
١ ـ أحمد حسين شرف الدين ، اليمن عبر التاريخ ، ص ٢٦٨ ٠

٢ ـ أمين سعيد ، تاريخ اليمن ، ص ٢٨ ٠

٣ ـ محمود كامل ، اليمن شماله وجنوبه ، ص ٢٦٧ ، ٢٦٨ ٠

الدولة العثمانية في اخماد الثورات القائمة في اليمن ، والرغبة في السيطرة الكاملة على ذلك الجزء إنما يرجع الى تأمين الحجاز من ناحية الجنوب وقيام خط دفاعى في تلك الناحية خوفاً من تطلع أية دولة أجنبية للأراضى المقدسة .

وهكذا يتضح مما سبق أن تلك المشاكل التى قامت في وجه الدولة العثمانية والمتمثلة في احتلال انجلترا لمصر ، وسيطرتها على قناة السويس اذ أصبح مرور الجيوش العثمانية في القناة خاضعاً للوضع السياسى بين الدولتين العثمانية والبريطانية ، ولذلك كانت السفن العثمانية تقف في قناة السويس أحياناً لمدة أربعين يوماً بحجة الحجر الصحى وكان الجنود يصابون بالأمراض من جراء هذا التوقف ، وعندما يسمح لهم بالسفر كانوا يصلون الى اليمن منهوكين ، أما عن زيادة النفوذ البريطاني في عدن واستمرار الثورات في اليمن فقد كانا عائقين لاستكمال نفوذ الدولة العثمانية على غربي الجزيرة العربية ، وعلى الأخص المناطق الجنوبية ، اذ كانت الدولة العثمانية قد أخذت تسعى جاهدة لتأمين الأماكن المقدسة ، وأمام تلك العوائق غيرت الدولة من خطتها لتأمين الحجاز وذلك بالاتجاه الى إنشاء سكة حديد الحجاز الذى سأتحدث عنه في الفصل التالى .





الفصل الخامس

سكة حديد الحجاز

أ- افتتاح الخط ١٩٠٨ م .

ب- أهمية الخط في ضوء العوائق السابقة .

افتتاح الخط ١٩٠٨ م

كان لدى الدولة العثمانية اتجاه جديد في الاعتماد على طرق المواصلات ، وكان ذلك مع نهاية القرن التاسع عشر ، وبداية القرن العشرين ، وذلك بغرض ربط أجزاء الدولة المترامية الأطراف ، حتى يسهل لها السيطرة على كل الأقاليم ، ويساعدها أيضاً على الحشد ، والنقل العسكرى السريع حين الاقتضاء ، ومعاونة السلطان في حكم الدولة ، وتدعيم كيانها كان ذلك الاتجاه هو بناء شبكة للسكك الحديدية ·

ففى سنة ١٨٨٨ م أنشأ (فون بريس) مدير بنك (دوتش) الالمانى خط حديد (حيدر باشا ـ ايزميت) ، وذلك لحساب الدولة العثمانية ، ثم حصل (فون بريس) على امتياز خط آخر يربط ايزميت بأنقرة ، وفي نفس الوقت حصل على وعد بامتياز خط ثالث يربط هذا الخط ببغداد عن طريق (سيواس) وديار بكر والموصل ، وفي السنة التالية اتحد بنك دوتش مع بنك (دورتمبر غيس) في (ستوتارد) ، وأسسا شركة الخطوط الحديدية الأناضولية العثمانية ، وكان رأسمال الشركة المانياً ، وعهد بانشاء الخطوط الى شركة المانية أخرى تأسست في (فرانكفورت) اسمها (شركة انشاء خطوط حديد الأناضول) (١) ، وفي سنة ١٨٩٣ م استطاعت هذه الشركة أن تصل الكيلو الثامن والسبعين بعد الخمسمائة من مدينة أنقرة شرقاً ، ولكن احتجاج الروس جعل هذا الخط يتحول عن طريقه المرسوم في التصميم ، فاتجه الخط الى الغرب ناحية اسكى شهر .. وفي نفس السنة

---

١ ـ جان بيشون ، بواعث الحرب العالمية الاولى ، ص ٩٤ ·

(١٨٩٣ م) حصلت الشركة على امتياز خط قونية (١) ، وخط أنقرة - قيصرى ، على أن يمتد الى سيواس وديار بكر فبغداد ، إلا أنه ترك العمل فيه ووصل الخط الأول الى قونية في أواخر سنة ١٨٩٥ م ، وفي ٢٧ تشرين الثانى سنة ١٨٩٩ م أعطت الدولة العثمانية وعداً لشركة خطوط حديد الأناضول باعطاء الشركة امتيازاً بخط حديدى يمتد من قونية الى خليج البصرة عبر بغداد .. وفي سنة ١٩٠٣ م انقلب هذا الوعد الى امتياز واتفق على أن يمر الخط بأركلى وأضنة وبفجة ، وكليس وحران والموصل وبغداد وكربلاء والنجف والبصرة ، غير أن البصرة لم تعين بصورة قاطعة لنهاية الخط وانما عينت الزبير التي هي آخر محطة قبل البصرة كنقطة نهائية ٠ وكان أيضاً من ضمن مخططات الباب العالي عمل شبكة أخرى تمتد الى مرغش وحلب وأرفة وماردين واربل وخانقين (٢) ، وبحصول المانيا على تلك الامتيازات في مد شبكة الخطوط الحديدية ، استطاعت أن تأخذ لنفسها منطقة نفوذ في آسيا الصغرى وخاصة امتياز سنة ١٩٠٣م في تمديد خط بغداد ، كما كان لها منطقة نفوذ في شمال الصين في اقليم شان تونغ ((Chan Toung)) منذ سنة ١٨٩٨ م ، وفوق ذلك كانت التجارة الالمانية تبذل جهوداً قصوى في كسب الأسواق فصادفت نجاحاً كبيراً بفضل تنظيم بيوتها التجارية ، ونشاط عملائها وحسن تنظيم المصارف في الخارج ٠ (٣) ٠

وكان الألمان يحلمون بأن يكون لهم مناطق نفوذ في آسيا الصغرى ، على أن يكون ذلك بالطرق السلمية وعلى الأخص عن طريق الخطوط الحديدية .. ويعبر عن ذلك الباحث السياسى جاك انسيل ((Gack Anseel)) اذ يقول : « إن مشروع الخط الحديدى الذى وضعه الالمان ، لا الخطوط المتقطعة التى وضعت الدول الأوربية الأخرى تصميمها بل الخط العثمانى العظيم الذى يمتد من القسطنطينية الى مكة وبغداد قد أسكر السلطان عبد الحميد واجتذبه(٤) » ٠ ٠

من خلال هذا العرض يتبين مدى رغبة السلطان في محاولته لاستعادة نفوذ

---

١ - باسل دقاق ، تركيا بين جبارين ، ص ٢٨ ٠

٢ - جان بيشون ، بواعث الحرب العالمية الاولى ، ص ٩٥ ٠

٣ - بيير رونوفن ، تاريخ القرن العشرين ، ص ١١ ٠

٤ - باسل دقاق ، تركيا بين جبارين ، ص ٢٧ ٠

الدولة العثمانية على الجزيرة العربية بأكملها ، وذلك عن طريق الخطوط الحديدية ، والتى تؤمن ذلك النفوذ تأميناً مباشراً . على أن الخط الحجازى وهو الأهم سوف يصل الى مكة المكرمة ، وذلك حتى ترتبط ارتباطاً مباشراً بالعاصمة خاصة بعد أن واجهت تلك العوائق السابقة والتى مرت بنا في الفصل الرابع . كما أقامت الدولة العثمانية خطوط حديد بين مدانية وأزمير وبين مرسين وحلب .. وذلك برؤوس أموال فرنسية الا أن المشاريع الالمانية السالفة الذكر أضرت بالمصالح الفرنسية . فامتياز خط اسكى شهر - قونية أعاق تمديد خط حديد بورسة - مدانية الفرنسي ، والذى أنشىء سنة ١٨٩٣ م الى كوناهية وقرة حصار ، وقونية ، لذلك سعت الحكومة الفرنسية لدى السلطان فنالت امتياز خط الشام وحلب ، وكان الوعد يتضمن أيضاً مد الخط الى أبيرة (بيرة جك) ماراً بالفرات ، وعندما اشترى الفرنسيون خط أزمير - قصبة الانكليزى حصلوا على امتياز بمده الى قرة حصار ، كذلك كان خط امتياز بغداد ضربة أخرى للمصالح الفرنسية في كليكية والأقسام الشمالية السورية وفي حوض الفرات أيضاً ، اذ انقطع الأمل في ربط خط مرسين وأضنة ، والذى كانت تملكه شركة فرنسية انجليزية بولايتى قونية وحلب ، وتخلت عنه أخيراً الشركة الفرنسية الانجليزية لالمانيا ، بالاضافة الى هذا فقد نال الالمان وعداً بمد فرع خط حديد بغداد الى حلب ، كذلك منح الالمان حق الأفضلية في انشاء خط يتفرع من أى فرع من فروع الخطوط الالمانية وينتهى بأى نقطة على ساحل البحر الأبيض المتوسط بين مرسين وطرابلس الشام (١) ، من خلال ذلك يتبين اهتمام الدولة العثمانية البالغ في اقامة الخطوط الحديدية ، وذلك من أجل ربط أجزاء الدولة بعضها ببعض حتى يتيسر لها احكام قبضتها على تلك الأجزاء المترامية الأطراف بغض النظر عن التسابق الأوربى في الحصول على تلك الامتيازات فالذى يعنينا أولاً وأخيراً مصالح الدولة العثمانية من خلال اقامة تلك الشبكة والتى تطورت مع مر السنين ، وكان أيضا للحجاز نصيب كبير اذ اهتمت الدولة وعلى رأسها السلطان بمد خط حديد الحجاز ، هذا ان لم يكن الخط الحجازى هو الأساس في اقامة الخطوط الأخرى سواء في آسيا أو البلاد العربية

---

١ - جان بيشون ، بواعث الحرب العالمية الاولى ، ص ٩٧ - ٩٨ .

والذى يجب أن نعرفه أنه لم تكن للدولة أى أطماع اقتصادية في أى بقعة من أقاليمها ، بقدر ما تهتم بالمكانة الروحية . فالحجاز في ذلك الوقت ، بل الجزيرة بأكملها لم يكن يوجد فيها أى شيء يمكن أن تطمع فيه ، بل على العكس فقد كانت الدولة تصرف مبالغ طائلة من خزينتها حتى تتمكن من السيطرة على الجزيرة العربية ، وحتى تظهر أمام المسلمين أن لها من القوة ما يجعلها تسيطر على تلك الأقاليم . أما من ناحية الخط الحجازى فقد أظهر الدولة العثمانية بمظهر الدولة المتطورة مثلها مثل الدول الأجنبية ٠

ولم تكن فكرة بناء سكة حديد الحجاز وليدة وقتها ، وليست من بنات أفكار السلطان عبد الحميد .. ، بل فكر فيها من قبل الدكتور زامبل (Zammbel) الأمريكى الجنسية ، الألمانى الأصل ، اذ اقترح سنة ١٨٦٤ م على الحكومة العثمانية مد خط حديدى بين دمشق وساحل البحر الأحمر ، وفي سنة ١٨٨١ م (١٢٩٨ هـ) وافق وزير الأشغال العامة العثماني على هذا المشروع ، ولكن المهندسين والجغرافيين قالوا بتعذر انشائه وحجتهم أن المنطقة التى يخترقها الخط تنزلها قبائل بدوية لا يؤمن جانبها ، ثم ان المواصلات البحرية أقل كلفة (١) .. وخاصة حين بدت في الأفق فوائد قناة السويس للدولة كما بينا من قبل ـ إلا أن الفكرة تفتقت مرة أخرى في رأس عزت باشا الذى كان العامل الأكبر في تنفيذها واتمامها ، فقد كانت خطته مد سكة حديد من دمشق الى المدينة ومنها الى مكة ، وألف عزت باشا مجلساً برئاسته ، فوجه نداء الى العالم الاسلامى وضح فيه الدافع الديني الذى ألهم الخليفة في مد السكة الحديدية وأهاب بالمسلمين أن يتبرعوا بالمال لجمع نفقات المشروع (٢) ، وأعلن السلطان عبد الحميد في أبريل سنة ١٩٠٠ م عن رغبة الحكومة في انشاء هذا الخط ، وأقام دعاية واسعة حوله في العالم ، من حيث أنه سيسهل سفر الحجاج ويؤمن راحتهم ، وأنه مشروع خيرى يجب على المسلمين أن يعملوا على انشائه (٣) ، وحرص السلطان على أن يكون على رأس قائمة المكتتبين فاكتتب بـ ٣٢٠ ألف ليرة عثمانية ، وتبعه في ذلك الملوك والأمراء

---

١ ـ محمد كرد على ، خطط الشام ، جـ ٥ ، ص ١٧٠ ـ ١٧١ ٠

٢ ـ جورج انطونيوس ، يقظة العرب ، ص ١٤٢ ٠

٣ ـ وجيه الخيمى ، الخط الحديدى الحجازى ، ماضيه وحاضره (مقالة في مجلة الفيصل عدد ٣٢ ص ١٢٦)٠

المسلمون ، فملك فارس تبرع بـ ٥٠ ألف ليرة عثمانية ، كما تعهد خديوى مصر بارسال كمية من مواد البناء والانشاء ، وأنشئت الجمعيات الاسلامية لجمع الأموال وذلك في معظم الممالك الاسلامية ، ولم تنقطع الاعانات مدة انشاء الخط مما يدل على سريان روح التضامن في الشعوب الاسلامية ، فضلاً عن ذلك فقد أمر السلطان بأن يتنازل موظفو الدولة براتب شهر لاعانة الخط ، ثم أمر بعد ذلك بخصم ١٠ ٪ من مرتباتهم وذلك لشهر في كل سنة ، وأحدثت طوابع الخط الحجازى وبعض الضرائب الجمركية (١) ، ويقدر مجموع الأموال التى جمعت للمشروع ٧٦٠ ألف ليرة عثمانية ، أى حوالى خمسة عشر مليون دولار ، ويبدو أن دعوة السلطان العثمانى لاقت قبولاً حسناً من رعاياه ومن الممالك الاسلامية الأخرى ٠ (٢)

وشرع بانشاء الخط الحجازى في شهر سبتمبر سنة ١٩٠٠ م ابتداء من قرية المزيريب في منطقة حوران جنوبي دمشق ، وذلك بسبب وجود سكة حديد للفرنسيين بين دمشق والمزيريب ، كانوا قد نالوا امتيازها كما ذكرت سابقاً سنة ١٨٩٣ م ، وعملوا في استثمارها سنة ١٨٩٤ م في وقت لم يفكر فيه السلطان عبد الحميد في خط الحجاز ، وكان من شروط الامتياز ألاّ يقام خط مواز في درعا لذلك رأى السلطان الاستفادة من هذه السكة لنقل الحجاج من دمشق الى المزيريب ومنها يكملون رحلتهم على الخط الجديد ، غير أن المنافسة سرعان ماقامت بين ادارتى الخطين العثمانى والفرنسى ، فصمم عبد الحميد على وصل المزيريب بدمشق ، فاحتجت الشركة الفرنسية على ذلك لمخالفته شروط امتيازها ، عندئذ تم اتفاق بين الجانبين لقاء منح الشركة الفرنسية امتياز انشاء خط من دمشق الى حلب وذلك في فبراير سنة ١٩٠٥ م (٣) ، وكان السلطان عبد الحميد قد اشترى سنة ١٩٠٢ م حيفا من شركة خط حديد سورية العثمانية والتي تأسست سنة ١٨٩١ م برأس مال انجليزي وأرادت هذه الشركة انشاء خط يربط حيفا بالشام ، إلا أن المهندسين الالمان تمكنوا من انشاء خط حديدى بين حيفا ودرعا مخترقا

---

١ ـ محمد كرد على ، خطط الشام ، ج ٥ ، ص ١٧١ ـ ١٧٢ ٠

٢ ـ جيمس موريس ، الملوك الهاشميون ، ص ١٨ ٠

٣ ـ توفيق على برو ، العرب والترك ، جـ ٥ ص ٣٦ ٠

مرج ابن عامر، اذ يلتقى بالخط الحجازى (١) وكان السبب في انشاء ذلك الخط هو حاجة السلطان ومهندسيه الى مرفأ بحرى يستمد منه الخط الحجازى لوازمه وأدواته ، ويكون منفذاً للأقطار الواسعة التى سيمتد فيها فقرر انشاء ذلك الخط الحديدى الجديد بين حيفا ودرعا، وكان الانجليز أشد الناس رغبة بنيل امتياز هذا الخط خاصة بعد احتلالهم جزيرة قبرص ، (٢) وفي الوقت الذى أنجز فيه خط حيفا ـ درعا تم بناء القسم الثالث من الخط الحجازى الواقع بين عمان ـ معان ، ففى أول سبتمبر ذهب وفد برئاسة طرفان باشا وزير الخارجية العثمانية للاحتفال بافتتاح الخط الحجازى بين دمشق ومعان ، والذي يبلغ طوله ٤٥٩ كيلو متراً ، (٣) وفي سنة ١٩٠٦ م قامت خلافات بين الدولة العثمانية والحكومة الانجليزية ، بسبب الخط الحجازى متمثلة في سلطة المقيم البريطانى في مصر اللورد كرومر حول قضية طابا ، وذلك أن الدولة العثانية عندما اقترب بناء الخط من نقطة توازى خليج العقبة أرادوا انشاء فرع للخط بين مدينة معان والعقبة ، لتقريب المسافة بين البحر الأحمر والديار المصرية من جهة والخط الحجازى من جهة أخرى الذى يستقبل أيضاً حجاج مصر ، وشمال افريقيا والمغرب العربى (٤) وكانت حجة انشاء هذا الفرع من الخط « المدورة ـ العقبة » لتسهيل اسراع القوات الحربية التى ترسل لقمع الثورات في اليمن حيث تركب البحر من ميناء العقبة ، وقد اجتازت القوات العثمانية حدود مصر في ١٥ فبراير سنة ١٩٠٦ م ، واحتلت طابا ٠ (٥) وكان السلطان عبد الحميد يهدف من احتلال طابا ابعاد الخطر الانجليزى عن الخط الحجازى ، وذلك بغرض تعديل الحدود المصرية ـ العثمانية في شبه جزيرة سيناء ، بحيث يكون خط الحدود الجديد يمتد من العريش الى السويس بدلاً من امتداده من رفح الى العقبة ، على أن يترك لمصر القسم الجنوبى

---

١ ـ جان بيشون ، بواعث الحرب العالمية الاولى ، ص ١٠٠ ٠
٢ ـ محمد كرد على ، خطط الشام ، جـ ٥ ، ص ١٧٤ ٠
٣ ـ المصدر السابق ص ١٧٦ ٠
٤ ـ توفيق على برو ، العرب والترك ص ٤٢ ٠
٥ ـ جان بيشون ، بواعث الحرب العالمية الأولى ، ص ١٠١ طابا نقطة بجوار ميناء العقبة ٠

من شبه جزيرة سيناء ، ابتداء من خط يمتد من جنوب طابا الى جنوب السويس وبناء على ذلك نقلت الحكومة العثمانية عمود الحدود من رفح الى العريش نحو الغرب ، بحيث تكون المساحة التى تلحقها الدولة العثمانية من شبه جزيرة سيناء عبارة عن مثلث ضلعاه خط رفح ـ العريش ، العريش ـ السويس ، وقاعدته خط طابا ـ السويس ، وقد ادعت حكومة الآستانة أن شبه جزيرة سيناء برمتها تابعة للأراضى الحجازية مباشرة وأن السلطان العثمانى تركها للحكومة المصرية بغرض حراسة محمل الحج ، الذى كان يذهب من مصر عن طريق البر ماراً بسيناء والعقبة ومدائن صالح ، وعندما أصبح المحمل المصري يسلك الطريق البحري من السويس لم يعد هناك لزوم لطريق البر ، لذلك رأت أن تربط ادارته بولاية الحجاز (١) ، وبالاضافة الى تأمين الحجاز أرادت الدولة العثمانية من استرجاع طابا أن تستولى على بعض النقاط الاستراتيجية في شرقي سيناء لتشرف منها على شبه الجزيرة وتتحكم في طرق الاقتراب الرئيسية الى دلتا النيل حيث تستطيع أن تهدد القوات الانجليزية فيها ، وتؤثر تأثيراً قوياً على سلامة القناة ، (٢) التى أصبحت خارجة عن ارادة الدولة وكانت سكة حديد معان ـ العقبة التى تربط العقبة بسكة حديد الحجاز جزءاً من هذه السياسة الاستراتيجية الجديدة والتى قد شرعت في مدها سنة ١٩٠٦م مما دعا بريطانيا الى الاهتمام بحماية حدود مصر الشرقية

ودراسة مشروع استراتيجى للدفاع عنها يقوم على وضع قوات عسكرية على طول الخط من العريش الى نهاية الحدود المصرية على خليج العقبة ، وسارعت القوات العثمانية باحتلال طابا والتى تقع الى الغرب من العقبة بثمانية أميال على امتداد الخليج ، وقد أثار هذا العمل بريطانيا ، واحتجت على الدولة العثمانية ، ولكن العثمانيين كانوا يهدفون من وراء ذلك العمل فتح المسألة المصرية ، واحراج بريطانيا أمام الرأى العام الدولى ، وحملها على الجلاء لتفى بعهودها والتى سبق أن قطعتها على نفسها ، كما كانت الدولة ترمى الى الاستيلاء على بعض المراكز التى تشرف على خطوط الاقتراب الرئيسية في سيناء احتياطاً للمستقبل ، ولكن تطور الأحوال الدولية لم تكن في صالح الدولة ، فقد ارتبطت فرنسا بالاتفاق الودى

---

١ ـ أحمد شفيق باشا ، مذكراتى في نصف قرن ، جـ ٢ ، قسم ٢ ، ص ٨٠ .

٢ ـ حسين فوزى النجار ، السياسة الاستراتيجية في الشرق الأوسط جـ ١ ص ٢٦٩ .

مع بريطانيا سنة ١٩٠٤م ، اذ ذهب سفيرها في الآستانة ينصح الباب العالى بالاذعان لمطالب بريطانيا ، كما وقفت روسيا نفس الموقف ، ولزمت بريطانيا موقف الحياد (١) ، وعندما تأزمت الحالة وقف الانجليز موقفاً حازماً ، فحشدوا قوى بحرية وبرية كبيرة قدمت من جبل طارق ومالطة ، والهند وجزر بريطانيا ،

وأعلن الباب العالى من جانبه النفير العام وأخذ بالحشد ، إلا أن السلطان لم يلبث أن قبل الانذار الانجليزى وسحب قواته من طابا والعودة الى الحدود القديمة ، (٢) وكانت هذه المشكلة قد ظهرت عند تولية الخديوى عباس الثانى كما ذكرت سابقاً وذلك عندما أرادت الدولة أن تنص في فرمان توليته على مايجعل سيناء خارج الحدود الشرقية المصرية على اعتبار أنها تابعة لولاية الحجاز ، مما يعرض قناة السويس لخطر اقتراب النفوذ العثمانى فضلاً عما تضفيه صحراء سيناء من حماية طبيعية على القناة ، وتضعف تلك الحماية اذا كانت سيناء خارج حدود مصر ، لذلك يرجع اهتمام بريطانيا بالعقبة الى أهميتها الاستراتيجية كمركز يؤثر تأثيراً مباشراً على سلامة الطريق البرى الى الخليج الفارسى ثم الى الهند كما تتحكم العقبة في الطريق البرى الى الحجاز وفلسطين وسوريا ، كما تطل على صحراء سيناء والتى يعتمد عليها في الدفاع عن قناة السويس والذى يمتد من غزة الى بير السبع (٣) . ومن هنا أدركت الدولة العثمانية الأهمية الاستراتيجية لميناء العقبة ورغبت في اعادة السيطرة عليها لتتحكم مرة أخرى في قناة السويس والتى ساعدت في تنفيذ سياستها على غرب الجزيرة ، وحتى تبدو أيضاً دولة ذات نفوذ تتحكم في السيطرة على ممر مائى حيوى يتحكم في التجارة العالمية .

أخذت العقبات تواجه السلطان العثمانى في بناء سكة حديد الحجاز ومن تلك العقبات عرب الجزيرة ، فقد عارضت قبائل الحجاز معارضة عنيفة في اكمال الخط الحديدى الذى يحرم بعض أفرادها كأصحاب الابل ، (٤) الذين يقومون

---

١ ـ حسين فوزى النجار ، السياسة والاستراتيجية في الشرق الأوسط جـ ١ ، ص ٢٧٠

٢ ـ جان بيشون ، بواعث الحرب العالمية الأولى ، ص ١٨ .

٣ ـ حسين فوزى النجار ، السياسة والاستراتيجية في الشرق الأوسط ، جـ ١ ، ص ٢٦٢ .

٤ ـ جيمس موريس ، الملوك الهاشميون ، ص ١٩ .

بنقل الحجاج من موارد يعتمدون عليها في حياتهم ، اذ يحول ذلك الخط من ذلك المورد ، كما يمنع عنهم الاتاوات والهدايا التى يتلقونها سنوياً لقاء ترك قوافل الحجاج تمر بسلام الى الأراضى المقدسة ، وتأمين ذلك الطريق المقدس لذلك ما أن وصلت أعمال بناء الخط مشارف الحجاز حتى بدأ البدو من العرب بأعمال العنف والسطو على معداته ، وقد هاجموا المشير كاظم باشا المدير العام للخط وتغلبوا عليه وقتلوا مائة من رجال حرسه ، واضطرت الحكومة العثمانية نتيجة لذلك من اقامة أكثر من خمسة آلاف جندى نظامى لحراسة منشآت الخط ، حتى نفذ ذلك المشروع (١) ·

ورغم كل الصعوبات السابقة والتى استطاعت فيها الدولة أن تذللها بحكمة بالغة فقد ظلت الدولة العثمانية تدرك مدى أهمية هذا المشروع الحيوى في تنفيذ سياستها نحو الجزيرة ، وتؤمن ايماناً عميقاً بالفائدة التى تعود على المسلمين بصفة عامة والدولة العثمانية بصفة خاصة ، ··

ففى سنة ١٣٢٦ هـ أى في خريف سنة ١٩٠٨ م كان العمل قد تم في انشاء الخط من دمشق الى المدينة المنورة ، (٢) وفي الحقيقة أنه لم يكن أحد يتوقع أن العمل سيتم بهذه السرعة وهذا النظام .. نظراً لطول المسافة ، وقلة المياه ووعورة المناطق ، ولكن اصرار الدولة وثقتها بالفوائد ذللت كل هذه الصعاب ، ونجحت في انجازه ليكون نقطة اتصال بين الأقطار وخير واسطة نقل لتوفير راحة الحجاج وتسهيل مسالك الحج والزيارة (٣) وتأمين تواجد الدولة في غربى الجزيرة العربية · وبلغت المسافة بين المدينة المنورة ودمشق ١٣٠٢ كم والى حيفا ١٣٣٣ كم تقطعها القطارات في أربعة أيام تقريباً ، اذ كان متوسط سيرها ٨٠ كم / ساعة وسير القطارات من الشام الى معان على متوسط ٣٠ كم / ساعة ، ومن معان الى المدينة على متوسط ١٥ كم / ساعة ، وبلغت أجرة القطار في الدرجة الأولى من حيفا الى المدينة ذهاباً واياباً أربعة عشر جنيهاً عثمانياً ، وفي الدرجة الأخرى نصف

---

١ ـ توفيق على ، العرب والترك ، ص ٤٥ ·

٢ ـ فائق صواف ، العلاقات بين الدولة العثمانية واقليم الحجاز ، ص١٣٠ ·

٣ ـ محمد كرد على ، خطط الشام ، جـ ٥ ص ١٧٢ ·

المبلغ (١) ٠

والجدير ذكره أن خطة الدولة كانت في بناء الخط الحجازى ووصله لمكة المكرمة فاليمن (٢) كما كان خط الحجاز وخط بغداد أساساً لعدة خطوط فرعية تخرج منه ، اذ ربطت الأناضول بباقى أقاليم الدولة العثمانية ، فمثلاً كان خط الاسكندرونة قد أوصل ميناءها بخط حديد بغداد ، كذلك خط درعا المزيريب وادى اليرموك ، كان قد تفرع من خط الحجاز (٣) ٠

وبذلك تكون الدولة العثمانية قد استطاعت أن تربط كثيراً من أجزاء الدولة بالعاصمة الآستانة ، بعد أن تم بناء تلك الشبكة الواسعة ، وكان آخر تلك الشبكة وأهمها للدولة هو خط حديد الحجاز ، الذى استطاعت أن تتم بناءه بسرعة فائقة نظراً للأهمية الكبرى التى تتعلق به ٠ فالحجاز يعنى الشىء الكثير للدولة كما أوضحنا من قبل لذلك تغلبت على كل الصعوبات التى وقفت أمامها حتى يكون الخط أداة فعالة تسيطر بها على الحجاز بعد أن فقدت السيطرة على قناة السويس ، وتحقيق ذلك لا يكون الا بالخط الحجازى ، فهى مستعدة لكى تضحى بالكثير لتحقيق الفائدة التى يعود عليها والتى سوف أتحدث عنها في الصفحات التالية ٠



---

١ ـ محمد لبيب البتنونى ، الرحلة الحجازية ، ص ٣٠٣ ٠

٢ ـ على حافظ ، فصول من تاريخ المدينة ، ص ٣٤ ٠

٣ ـ حسين فوزى النجار السياسة والاستراتيجية في الشرق الأوسط جـ ١ ص ٢٦٧ ـ ٢٦٨ ٠

أهمية الخط في ضوء العوائق السابقة

قبل افتتاح سكة حديد الحجاز رسمياً سنة ١٣٢٦ هـ (١٩٠٨ م) تحدث السفير البريطاني في الآستانة عن أهمية الخط للدولة العثمانية في سنة ١٩٠٧م. مانصه ، « .. ومهما يكن ، فليس هناك غير عاملين اثنين يظهران بوضوح من بين عوامل الحالة السياسية العامة خلال السنوات العشر الأخيرة ، أما الأول فهو تلك السياسة

الماهرة التى حدت بالسلطان أن يظهر أمام ثلاثمائة مليون من المسلمين بمظهر الخليفة والزعيم الروحى للاسلام ، وثبت في نفوس رعاياه الحماسة والاستجابة لشعوره الديني حين مد سكة حديد الحجاز التى ستيسر لكل مسلم في المستقبل القريب سبل الحج الى الأماكن المقدسة في مكة والمدينة .. ، وكان من نتيجة ذلك أن أصبح رعاياه يدينون له بالطاعة (١) الى حد لم يسبق له مثيل » .. كان

ذلك هو تقرير السفير البريطاني لحكومته عن أهمية سكة حديد الحجاز للدولة العثمانية قبل افتتاح الخط ، أما بعد افتتاح الخط فيعتبر مسألة الخط الحجازى

حدثاً هاماً بالنسبة للعرب والمسلمين والدولة دلل على مقدرة السلطان عبد الحميد في تنفيذ هذه الفكرة ، اذ رحبت الصحف العربية بالسلطان ، وكتبت المقالات

الطوال في الاشادة بنفع الخط وبيان أهميته ، وبذل السلطان عبد الحميد الثانى كل ما في وسعه لاختلاق وسائل تأمينه وتمويله ، لأن هذا المشروع قام على أكتاف

---

١ - جورج انطونيوس ، يقظة العرب ، ص ١٤٣ - ١٤٤ . سيد رجب حراز ، الدولة العثمانية وشبه جزيرة العرب ، ص ١٢٢ - ١٢٣ .

الأموال العثمانية عن طريق تبرعات وحسم نسب معينة من رواتب الموظفين واحداث طوابع جديدة باسم الخط كما أشرنا في أول هذا الفصل كما رحب العرب والمسلمون بفكرة الخط وتبرعوا له (١) . بذلك يكون السلطان عبد الحميد قد أثار حماس المسلمين في كل مكان ، ولا سيما في الهند . فكثيراً ماقال الحجاج الهنود أو غيرهم ، « خمسة أيام في القطار المريح بدلاً من ستة أسابيع في قوافل الجمال » (٢) فقد كان الحجاج يلاقون صعوبات في ذهابهم وايابهم الى الديار المقدسة ومع أن دمشق لا تبعد عن مكة المكرمة فان الحاج الشامى كان يستغرق أربعين يوماً من دمشق الى المدينة المنورة ، وعشرة أيام الى مكة المكرمة ، أى خمسين يوماً يقضيها في الطريق ثم عشرين يوماً يقضيها في قضاء المناسك والزيارة ، ثم تبدأ رحلة العودة فيقضى خمسين يوماً في عودته ، أى أنه يقضى أربعة أشهر كاملة تبدأ من أول شوال وتنتهى بنهاية محرم ، أضف الى ذلك ما كان يضطر الى صرفه من النفقات الباهظة ، وأهم من ذلك كله ما كان يتعرض له الحجاج من مخاطر الطريق كسطو القبائل والأمراض كل ذلك جعلت اقامة الخط الحديدى الحجازى ضرورة ماسة ، والبدء به من دمشق حيث كان الحجاج المسلمون يتوافدون اليها ، ويجتمعون فيها انتظاراً لسفر موكب الحاج منها ، تحت امارة حاكم عثمانى يعرف بأمير الحج ، وكان هذا مسؤولاً عن تنظيم انتقال هذا الموكب الذى يتألف من نحو عشرة آلاف نسمة بين مشاة وفرسان وهجانة ، وكانت طاعة أمير الحج واجبة على الجميع ليسهل عليهم قطع المسافة والتى تقدر بأكثر من ١٥٠٠ كم ، والمملوءة بالأخطار والمصاعب الطبيعية والبشرية ، من جفاف ورمال وشمس محرقة وتعديات من البدو الذين يعيشون على

---

١ ـ توفيق على برو ، العرب والترك ، ص ٤٤ ـ ٤٥ .

٢ ـ جيمس موريس ، الملوك الهاشميون ، ص ٣٩ .

طول الطريق ، (١) لذلك اهتمت الدولة العثمانية باقامة ذلك الخط لازالة الصعوبات السابقة ، وعندما انتهى العمل من الخط تيسر سبل السفر أمام الحجيج ، وأزيلت المشقات التى يعانيها الحجاج ، فتحقق للدولة الغرض الذى كانت تهدف اليه والذى كانت تعلنه للمسلمين صراحة والذى من أجله تبرع المسلمون في أنحاء المعمورة ، وكانت الدولة لا تعتبر الحج فريضة دينية فحسب ، بل هو كذلك بمثابة مؤتمر اسلامى سنوى كبير يلتقى فيه المسلمون من كافة أنحاء المعمورة حيث يتعارفون ويتباحثون في الشؤون الاسلامية (٢) في عصر السلطان الذى

احتضن فكرة الجامعة الاسلامية تلك الفكرة التى كان رائدها السيد جمال الدين الأفغانى ١٨٣٩ ـ ١٨٩٧ م ، والذى كان يؤمن بقوة الوحدة الاسلامية ، ويسعى الى اقامة حكومة اسلامية قوية تنضوى تحت رايتها جميع الشعوب الاسلامية بهدف مقاومة الأطماع الأوربية في العالم الاسلامى ، والتخلص منها (٣) وانبثاقاً من ثقة

السلطان في تلك السياسة والذى عبر عنها بقوله .. « يجب تقوية روابطنا ببقية المسلمين في كل مكان ، يجب أن نقترب من بعضنا البعض أكثر وأكثر ، فلا أمل في المستقبل الا بهذه الوحدة ومع أن وقتها لم يجىء بعد ، لكن سيأتى اليوم

الذى يتحد فيه كل المسلمين وينهضون فيه نهضة واحدة ، ويقومون قومة رجل واحد ، وفيه يحطمون رقاب الكفار ، واتخذ السلطان عبد الحميد من سكة حديد الحجاز وسيلة لتنفيذ فكرة الجامعة الاسلامية يتضح ذلك من قوله : « المهم هو اتمام خط السكة الحديد بين دمشق ومكة في أسرع وقت .. ففى هذا تقوية للرابطة بين المسلمين كما فيه أيضاً اتخاذ هذه الرابطة ـ بعد تقويتها ـ صخرة صلبة تتحطم عليها الخيانات والخدع الانجليزية (٤) .. ولعله يشير في كلماته هذه الى مؤامرات الانجليز حول قناة السويس وكانت فكرة الجامعة الاسلامية معناها

---

١ ـ محمد كرد على ، خطط الشام ، جـ ٥ ، ص ١٦٨ ٠

٢ ـ محمد وجيه الخيمي ، الخط الحديدي الحجازى ماضيه وحاضره ، مقالة في مجلة الفيصل عدد ٣٢ ص ١٢٧ ٠

٣ ـ المصدر السابق ٠

٤ ـ محمد حرب عبد الحميد ، مذكرات السلطان عبد الحميد ، ص ٨ ٠

كسب عواطف المسلمين في العالم قاطبة ، وكان هذا يحتم ضمان استمرار السلطان حامياً وخادماً للحرمين الشريفين (١) مما يكون له أكبر الأثر في تثبيت الخلافة وهنا يعنى زعزعة مركز الانجليز وتهديدهم في مستعمراتهم في الهند التى توجد فيها قوة كبيرة من المسلمين ، لذلك كان موقف السياسة الانجليزية أمام حركة الجامعة الاسلامية والخلافة ماقد عبرت عنه صحيفة ستاندرد Standard الانجليزية اذ قالت مانصه ، « يجب أن تصبح الجزيرة العربية تحت الحماية الانجليزية ، ويجب على انجلترا أن تسيطر على مدن المسلمين المقدسة » ٠٠ ورأى عبد الحميد في ذلك أن انجلترا تعمل لهدفين ، اضعاف تأثير الاسلام ، وتقوية نفوذها بالتالى ٠ (٢) .. ومما لاشك فيه أن بريطانيا كانت تقف موقفاً عدائياً تجاه الخلافة ، والجامعة الاسلامية لأنها مهددة من قبل المسلمين الموجودين في مستعمراتها والذين يكونون أعداداً كبيرة ، لذلك رأى المفكرون ورجال السياسة البريطانية أن حماة البلاد المقدسة من الهاشميين قد يصبحون خلفاء نافمين ضد السيادة العثمانية المتزعمة للاسلام (٣) ، وبذلك يكون خط سكة حديد الحجاز قد لفت أنظار الدول الأوربية والتى لها مصالح في منطقة البحر الأحمر وعلى الأخص انجلترا ، والتى تدرك أن قناة السويس نظراً لقربها من حدود الدولة العثمانية ، لم تكن منيمة ، فترقبوا بحذر وقلق مد سكة حديد برلين ـ بغداد ، واعتبروه مشروعاً معادياً لهم ، ومنعوا وصوله الى الكويت ورأوا كذلك سكة حديد الحجاز وسيلة لتحصين جناح من أجنحة الدولة العثمانية ٠

أما من الناحية العسكرية فقد هيأت سكة حديد الحجاز للسلطان عبد الحميد وسيلة سهلة لنقل الجنود الى الجزيرة العربية في سهولة ويسر (٤) ، وذلك بنفقات بسيطة تتحملها الخزانة ، وكانت وسيلة النقل البرى هذه يحتاج اليها السلطان لوصول جنود جيشه الى شبه الجزيرة العربية وعودتهم منها ، وكان قبل ذلك يضطر الى نقلهم بالبحر عبر قناة السويس ، فيحتاج الى وقت أطول ونفقات أكثر ، بالاضافة الى وصول الجند منهوكين نتيجة لتوقفهم في القناة بحجة

١ ـ محمد جميل بيهم ، فلسفة التاريخ العثماني ، ص ١٨٠ ٠

٢ ـ محمد حرب عبد الحميد ، مذكرات السلطان عبد الحميد ، ص ٨ ٠

٣ ـ جيمس موريس ، الملوك الهاشميون ، ص ٢٩ ٠

٤ ـ محمد بديع شريف وآخرون ، النهضة العربية الحديثة ، ص ٣٧ ٠

الحجر الصحى ، كما أن تواجد انجلترا في مصر وفي عدن هو بمثابة تهديد مستمر للقناة كوسيلة لاتصال الدولة العثمانية بالحجاز عن طريق البحر ، وكان السلطان يتطلع الى اليوم الذى تمتد فيه هذه السكة جنوباً الى مكة ، بل ربما الى ما بعدها فيستطيع بذلك أن يحكم قبضته على بلاد اليمن (١) ، والجدير بالذكر أن سكة حديد الحجاز قد فاقت الطريق البحري عبر قناة السويس وذلك من ناحية السرعة والسهولة ، فقد كان الطريق البحرى يستغرق حوالى اثنى عشر يوماً من ساحل الشام الى الحجاز في حين كان الطريق البرى عن طريق سكة حديد الحجاز لا يستغرق سوى أربعة أو خمسة أيام على الأكثر ، علاوة على ذلك فان الدولة العثمانية لم تكن تملك وقتئذ الكثير من السفن الصالحة التى يمكن الاعتماد عليها لتنفيذ سياسة عبد الحميد العسكرية في شبه جزيرة العرب (٢) ، فسكة حديد الحجاز أمنت نقل الجنود بسرعة لتساعد في قمع الثورات ، وللدفاع عن أطراف الدولة الجنوبية (٣) ، والتى من شأنها توطيد دعائم سياسة عبد الحميد المركزية ، التى سار عليها في حكم الولايات العربية وغيرها ، والتى كانت قد كلفته الكثير من المتاعب الداخلية والخارجية ، وأثارت عليه نقمة قسم كبير من العرب ، ونقمة الأتراك أنفسهم ، وتجلت هذه النقمة في الثورات العديدة والتى ظهرت بين القبائل العربية ، وهى وان كانت ذات طابع محلى محدود الا أنها جاءت كرد فعل لتشديد قبضة السلطان على بلادهم ، مما انبثق عنه انفجار سخطهم على حكمه وعلى مظالم بعض الحكام والموظفين العثمانيين فثارت حوران وجبل الدروز سنة ١٨٩٦ ، وثارت اليمن سنة ١٩٠٤ وثارت عشائر الخوازم والميمون والفضل وبنى الحرب وهذيل في الحجاز ، كما ثارت في سوريا عشائر البدو بين غزة والحيرون ، (٤) والبحر الميت ، واسمها الطياحة والعزازمة والجهالين وغيرهم ورفضوا دفع الضرائب (٥) صحيح أن تلك الثورات ليست شيئاً جديداً على الدولة العثمانية

---

١ - جورج انطونيوس ، يقظة العرب ، ص ١٤٢ - ١٤٣ .

٢ - سيد رجب حراز ، الدولة العثمانية وشبه الجزيرة العربية ، ص ١٢٣ .

٣ - توفيق على برو ، العرب والترك ، ص ٣٦ .

٤ - الحيرون : هى مدينة الخليل .

٥ - توفيق على برو ، العرب والترك ، ص ٤٥ .

لكنها قبل كل شيء كانت دافعاً لعمل الشبكة الحديدية لتربط أجزاء الدولة ، ليسهل عليها قمع تلك الثورات في مكانها والدليل على ذلك الكلمة التى ألقاها أحد زعماء جمعية الاتحاد والترقي ، الذى تولى منصب وزارة الداخلية عندما ألقاها في المجلس النيابى فقال : « .. أصبح في مقدورنا أن نرسل الى اليمن القوة العسكرية اللازمة لاخماد الثورة ، واستعادة مهابة الدولة ، ونحن عازمون على ذلك بكل ثقة واطمئنان .. » (١) فكأن انشاء الخط كان بمثابة تأكيد لعزم الدولة على اعادة توطيد نفوذها كما نشرت صحيفة وستمنستر احدى الصحف الانجليزية ضمن حديث لعزت باشا ـ صاحب فكرة سكة حديد الحجاز ـ مع المستر لوسيان دولف من كبار كتاب الانجليز نشر في ١٥ يونيو سنة ١٩٠٩ م :

« اننى مقتنع تمام الاقتناع بأن انفصال العرب عن السلطنة على أى شكل كان ليس في مصلحتنا ، لأنهم لو تركوا وشأنهم فسوف تعم الفوضى ويقوم اثنا عشر خليفة صغيرا بدلاً من خليفة واحد » (٢) . غير أن خط الحجاز كانت له نتيجة ربما لم تخطر ببال عبد الحميد ، اذ أنه جعل التنقل في الولايات العربية الواقعة في غرب الجزيرة أسرع مما كانت ، مما نتج عنه نقل الأفكار وتبادلها وقد قدر لاختصار الزمن أن يكون ذا أثر واضح في مصير حركة الشريف حسين وخروجه على الدولة العثمانية (٣) ومجمل القول أن خط سكة الحجاز قد جعل الحجاز مركزاً تنطلق منه الوسائل التنفيذية لاخضاع المتمردين في جهات الجزيرة المختلفة (٤) .. ومن ذلك أنه في أوائل سنة ١٣٢٩ هـ (١٩١١ م) زحف الشريف حسين بعد وصول نجدات سريعة من الدولة عن طريق خط سكة حديد الحجاز الى عسير لمساعدة الدولة العثمانية ، ومحاربة الادريسى وذلك بعد أن استنفر قبائل العرب في الحجاز ، وسار الشريف حسين مع جنود الدولة العثمانية فدخل مدينة أبها ، ومعه نشأت باشا قائد الجنود العثمانية في عسير ، وأقام بها ورتب أمور الدولة وأكد نظامها (٥) وهكذا ساعد الخط على توطيد سلطة الخليفة على معظم

---

١ ـ ساطع الحصرى ، البلاد العربية والدولة العثمانية ، ص ٣٠ .
٢ ـ على يوسف ، بيان في خطة المؤيد تجاه الدولة العثمانية ، ص ١٤ .
٣ ـ جورج انطونيوس ، يقظة العرب ، ص ١٤٣ .
٤ ـ مصطفى سالم ، تكوين اليمن الحديث ، ص ٥٤ .
٥ ـ محمد لبيب البتنونى ، الرحلة الحجازية ، ص ٤٢ .

الولايات العربية ، وعلى التصدى لدسائس الانجليز ومؤامراتهم في البحر الأحمر وغربى الجزيرة العربية (١) ، كما ظهرت الدولة العثمانية دولة عصرية متطورة تمد الخطوط الحديدية في قلب الصحارى ، لانشاء المواصلات السريعة بعد أن كان خصومها الاستعماريون والصهيونيون يتهمونها بالجمود والتخلف أمام المسلمين ليقللوا من شأن الدولة والخلافة ، وأنها فرضت على الولايات العربية ستاراً من العزلة عن العالم وأنها أوقعتهم في الفقر ، (٢) وبافتتاح سكة حديد الحجاز أضيف طريق رابع من الطرق المؤدية الى المدينة المنورة ، وذلك بعد أن كانت ثلاثة ، وهى الطريق السلطانى ، والطريق الفرعى المسمى بطريق الغاير ، والطريق الشرقى ، فإنه اذا ماحدث أن تعرضت تلك الطرق المودية الى المدينة لهجوم القبائل

فالوسيلة للوصول الى المدينة تكون عن طريق الوجه بالخط الحديدى مثل ماحدث سنة ١٣٢٧ هـ (١٩٠٩ م) اذ رجع المحمل المصرى الى الوجه من جدة لتأدية واجب الزيارة بالطريق الحديدى من محطة العلا ، وسبب ذلك تعرض عربان الطريق الطويل وطريق ينبع لاعتداءات بغير حق (٣) ، كما أن المحمل الشامى تحول عن طريق القوافل ، وأخذ يستعمل الخط الحديدى ، وذلك لسهولته وقصر المدة الزمنية هنا اذا أضفنا عامل الأمن ، والذى كان يهم أمراء المحامل ، ففى سنة ١٣٢٨ هـ الموافق (١٩١٠ م) استقل المحمل الشامى الخط الحديدى الذى كان أميره ناصر بن على (٤) وكذلك المحمل المصرى بدل طريق وصوله الى الأراضى المقدسة

ففى ١٠ نوفمبر سنة ١٩١٠ م سافر المحمل الى الاسكندرية ، وأقيم له احتفال عظيم حضره الخديوى ومن الاسكندرية أبحر المحمل الى يافا ومنها ركب القطار الى المدينة المنورة ، على أنه لما كانت الوجه محطا لرحال الحجاج المصريين ، فان ادارتها وما يليها شمالاً من المويلح وضبا والعقبة كانت تابعة للخديوية المصرية ،

---

١ ـ توفيق على برو ، العرب والترك ، ص ٣٦ .

٢ ـ فائق بكر صواف ، العلاقات بين الدولة العثمانية واقليم الحجاز ، ص ١٣٣ .

٣ ـ محمد لبيب البتنونى ، الرحلة الحجازية ، ص ٢٢٣ ، ٣٠٣ .

٤ ـ عبد الله بن الحسين ، مذكراتى ، ص ٤٠ ـ ٤٣ .

ويعين عليها محافظ بواسطة حكومة مصر ، بالاضافة لقاض ينظر في الأحكام الشرعية ، وكان لها جنود يحرسون الطرق ، كان ذلك في فترة الحج ، واذا انتهى موسم الحج عادت ادارة البلاد مرة أخرى للدولة العثمانية (١) ، وكانت المدينة المنورة بعد خلع السلطان عبد الحميد قد فصلت عن الادارة الحجازية وارتبطت بمركز السلطنة بخطوط تلغرافية ، تضمن سرعة المخابرات ، واعتبرت المدينة المنورة محافظة مستقلة مرتبطة بوزارة الداخلية رأساً وليس بالولاية ، وظلت

تبعات الامارة الحجازية وحقوقها كما كانت عليه ممتدة من مكة المكرمة الى مدائن صالح (٢) ، ويعتبر ذلك أثراً من آثار السكة الحديدية على الحجاز ، اذ لو لا الخط لما فكر السلطان وحكومة الاتحاد والترقى تنفيذ ذلك ، والغرض من هذه الحركة يبدو واضحاً وهو الزيادة في التحكم والسيطرة على اقليم الحجاز اذ أصبحت الدولة تعلم بما يجرى في هذه المنطقة ، وأخذت تقف على مجريات الأحداث ومن آثار الخط الحجازى تيسير تنظيم البلاد وتعمير الجهات ، واقامة أسواق التجارة وتعميم وسائل الحضارة ونقل الحاصلات والخيرات المعدنية والزراعية والحيوانية الى حيث يمكن الانتفاع بها مما أدى الى تحسن الأحوال (٣) ٠

اضافة الى ذلك فإن كثيراً من البدو سكنوا بالقرب من مخافر الجنود العثمانية التى أقيمت لحماية الخط .. كما امتلك عدد كبير من مهاجرى الشركس الذين كانوا تائهين في شمالى الشام وبعض الأراضى هناك ، وأقاموا القرى والمزارع فيها (٤) ، ومن آثار الخط على اقليم الحجاز عامة والمدينة المنورة خاصة أن ازدهرت بالسكان وراجت الأسواق لاتصال الحجاز ببلاد الشام والآستانة وانفتح الحجاز كله عن طريق هذا الخط على بلاد الشام ، والتى كانت تعتبر من أغنى بلاد الدولة

---

١ ـ محمد لبيب البتنونى ، الرحلة الحجازية ، ص ١٤١ ، ٢٢٣ ٠
٢ ـ عبد الله بن الحسين ، مذكراتى ، ص ٤٨ ٠
٣ ـ حسين لبيب ، تاريخ الاتراك العثمانيين ، ص ٦٤ ٠
٤ ـ محمد كرد على ، خطط الشام ، جـ ٥ ، ص ١٧٤ ٠

العثمانية في الشرق العربى في ذلك الوقت ، وأصبحت المدينة المنورة زهرة بلاد الحجاز ، اذ أقيمت المبانى الضخمة والتى تطل على ميدان المحطة (١) ، كذلك وردت فواكه الشام وبقية المنتجات والتى أخذت طريقها بواسطة السكة

الحديدية (٢) حيث نقل في سنة ١٩٠٩ م من الشام الى المدينة المنورة ٩١,٦٢٦,٣١٦ طناً من المواد الغذائية والصناعية ، كذلك نقل في سنة ١٩١٠ م وعلى نفس الاتجاه الشام - المدينة ١١٢,٠٠٧,١١٢ من المواد الغذائية والصناعية أى بزيادة ٢٠,٣٨١ طناً عن السنة الماضية كما بلغت موارد الخط قبل الحرب العالمية الأولى بعد تصفية كافة النفقات مبلغ ٣٢,٧٦٨ ليرة عثمانية ذهبية (٣) من خلال تلك الأرقام ندرك الأهمية لهذا الخط بالنسبة للدولة وبالنسبة لبلاد الحجاز ، ومما لا شك فيه أنها عادت بالخير لسكان المنطقة ، وكسبت الدولة العثمانية مورداً يعود لخزانة الدولة بالخير ، اضافة الى توطين البدو الذين يشكلون مصدر قلق للدولة ، وعندما رأت الدولة ذلك الاستقرار افتتحت مكاتب البريد في المدن التى على طريق السكة الحديدية الحجازية بعد أن كان مكتب البريد الوحيد في مدينة جدة ، وأقفل سنة ١٨٨١ م وكانت مدينة جدة المركز الرئيسى وذات أهمية لتجارة الحجاز وكان الحجاج يرسلون رسائلهم من جدة ، اذ يحملون رسائلهم عادة لحين عودتهم الى ميناء جدة ، أو يكلفون بها المسافرين في القوافل التجارية الناهبة الى تلك الجهة ، (٤) ولكن عندما انتظمت المواصلات ، وكبرت الحركة التجارية بين مدن الحجاز وبلاد الشام ، وغيرها من أقاليم الدولة ، رأت الدولة أنه من الأهمية بمكان افتتاح تلك المراكز البريدية لتسهيل المعاملات التجارية وليتمكن الجنود العثمانيون من ارسال رسائلهم بسهولة لأهاليهم ليطمئنوا عليهم .

---

١ - فائق بكر صواف ، العلاقات بين الدولة العثمانية واقليم الحجاز ، ص ١٣٢ .

٢ - شرف البركاتى ، الرحلة اليمانية ، ص ١٤٦ .

٣ - وجيه الخيمي ، الخط الحديدي الحجازى ، ماضيه وحاضره ، مقالة في مجلة الفيصل عدد ٣٢ ، ص ١٣٣ .

٤ - ميشال اسطفان ، تاريخ الطوابع في المملكة العربية السعودية ، مقالة في مجلة « تاريخ العرب » عدد ٧٠ ص ٩٠ .

وبعد خلع السلطان عبد الحميد الثانى في ٢٧ أبريل ١٩٠٩ م رأت حكومة الاتحاد والترقى الفوائد العظيمة التى عادت على الدولة من سكة حديد الحجاز فقررت مده الى مكة المكرمة ، وكذلك عمل شبكة أخرى تربط مدينة مكة المكرمة بجدة ، والمدينة المنورة بينبع ، وأخذت الدولة تغرى الشريف حسين لمد الخط الى مكة المكرمة وعرضت عليه أن يأخذ ثلث دخل الخط يتصرف به كيف ما شاء وتصبح امارة الحجاز تابعة له مدى الحياة ، ومن بعده لأولاده ، كما توضع تحت تصرفه قوة كافية لتأمين ذلك ، على أن تضع الدولة العثمانية تحت تصرفه ربع مليون جنيه لينفقها على العربان (١) ورغم كل المغريات السابقة والضغوط الشديدة التى مارسها الاتحاديون لم يفلحوا ، ذلك أن الثقة بين العثمانيين وعرب غربى الجزيرة كانت مفقودة بسبب سياسة التتريك التى بدأها الاتحاديون (٢) بالاضافة الى احداث الدولة الداخلية ، وعدم استقرار الأمور ، علاوة على الأحداث الخارجية ، التى كانت عائقاً في وجه الدولة العثمانية ، وأهم من ذلك كله اتصال الشريف حسين بالانجليز ووعودهم له مقابل خروجه على الدولة العثمانية مما أدى الى نسيان عمل ذلك المشروع العظيم (٣) .

لكن كيف نفسر افتتاح خط سكة حديد الحجاز عام ١٩٠٨ ؟ .

هل يمكن أن نقول انه كان وسيلة اضافية لتثبيت سياسة الدولة العثمانية غرب الجزيرة العربية ضماناً لنفوذها الروحى في شبه الجزيرة كلها والعالم العربى والاسلامى ، ونحن نعنى بقولنا وسيلة اضافية ، أى مضافة لقناة السويس كطريق بحرى ؟

---

١ ـ عبد الله بن الحسين ، مذكراتى ، ص ٨٩ .

٢ ـ وجيه الخيمي ، الخط الحديدي الحجازى ماضيه وحاضره ، مقالة في مجلة الفيصل عدد ٣٢ ، ص ١٢٩ .

٣ ـ عبد الله بن الحسين ، مذكراتى ، ص ٨٩ .

أم أن التفسير الصحيح هو أن الخط كان بمثابة تعويض عن فقدان الدولة سيطرتها على قناة السويس بسبب التواجد البريطانى في مصر وبالتالى سيطرة انجلترا على ذلك الممر المائى الهام ؟

والرأى أن التفسير الثانى هو الأصح ويمكننا أن نتصور أهمية الخط بوضوح أكثر لو افترضنا أن الدولة العثمانية لم تنجز ذلك المشروع الهام الذى هو مد سكة حديد الحجاز في وقت كانت انجلترا فيه قد سيطرت سيطرة كاملة على مدخلى البحر الأحمر الشمالى والجنوبى معاً .



خاتمة

التحليل والنتائج



قدمنا لهذه الرسالة بالحديث عن أهمية الجزيرة العربية وعلى الأخص غربها أي أقليم الحجاز للدولة العثمانية ، وأشرنا إلى أن الدولة العثمانية كدولة إسلامية كبرى في العصور الحديثة قد قامت وتوسعت تحت شعار الإسلام ، فلم يكن هناك بد من استمرار الحجاز جزءاً من الدولة لاحتوائه على الأماكن المقدسة الإسلامية ، وارتبط بهذا تلقيب السلطان العثماني بخليفة المسلمين ، وأنه خادم الحرمين الشريفين ٠ وكانت الدولة العثمانية تحاول دائماً أن تحيط الحجاز بسياج واق ودرع قوي ٠

وفي النصف الأول من القرن التاسع عشر تعرض وضع الدولة العثمانية بالنسبة لهذا المجال الى الاهتزاز بسبب التطورات التاريخية التي أوضحناها في الفصل الأول.

وحين تم فتح قناة السويس ، رأت الدولة في ذلك فرصة للتغلب على نتائج تلك التطورات ، وانتعش الأمل لديها بأن تتخذ من القناة وسيلة لتثبيت وجودها في غربي الجزيرة وتعزيز أهدافها ، ومن ثم كان للدولة جهود بعد فتح قناة السويس وكان أهمها في عسير واليمن وحول عدن ٠

لكن جهود الدولة العثمانية في سبيل ذلك لم تفلح في تحقيق أهداف الدولة بسبب العوائق التي قامت في سبيل استكمال نفوذ الدولة في غربي الجزيرة العربية تلك العوائق التي تمثلت في احتلال انجلترا لمصر ، وبالتالى سيطرتها على قناة السويس ، ووجود انجلترا في عدن وازدياد ثورة اليمن ٠

لكن الدولة العثمانية لم تستسلم لهذه العوائق ، بل نجحت كما رأينا في ايجاد البديل لقناة السويس ، وهو سكة حديد الحجاز ٠ ويمكن القول ان هذا الخط كان عاملاً مهماً في استمرار نفوذ الدولة في الحجاز منذ افتتاحه حتى نشوب الحرب العالمية الأولى ٠

شجعت قناة السويس الدولة العثمانية على تطوير بحريتها ، فكانت تعليمات السلطان عبد العزيز لناظر البحرية بأن يهتم بشؤونها ويصلح أحوالها ، فما كان من ناظر البحرية إلا أن وسع نطاق مدرستها ، وأقام دوراً لصناعة السفن ، كما ابتعث كثيراً من الضباط الذين أنهوا دراستهم بالمدرسة الحربية من بريطانيا ،

وتزودوا بالعلوم والتمرينات الحديثة ، كما شيد عدداً من السفن الحربية وذلك في دور الصناعة التابعة للدولة ، وأضاف للمدرسة الحربية عدداً من التخصصات منها تعليم فن الميكانيكا وعمل المدرعات ، وشيد عدة معامل لصناعة المدرعات ، كما شكل ادارة تكون مسؤولة عن جميع الآلات والمعدات البحرية وعرفت هذه الادارة فيما بعد بمستشارية البحرية(١) ، واستقدمت الدولة العثمانية من بريطانيا عدداً من المعلمين والمهندسين والرسامين ، وعملوا في دار الصناعة اذ أوكلت إليهم تدريب كثير من شباب الدولة ، وكان اذا برع أحد استغنت به الدولة عن أحد الخبراء البحريين الأجانب(٢) ، ولم يكن الاهتمام بتطوير البحرية مقتصراً على عاصمة الدولة الاستانة فقط بل شمل أيضاً ولاياتها ، ففي بغداد أكثر مدحت باشا من شراء السفن مع مصانع بومباي البحرية ، لذلك حرص على أن تكون علاقاته مع حاكم عام الهند البريطاني حسنة ، ليضمن تزويده بتلك السفن(٣) ، وكان لتطوير البحرية العثمانية وافتتاح قناة السويس أثر كبير في تدعيم سياسة الدولة العثمانية في الجزيرة العربية خاصة القسم الغربي منها ، اذ سهلت القناة للدولة العثمانية مرور السفن ، وإرسال الحملات والامدادات من العاصمة رأساً الى غربي الجزيرة ، مروراً بمصر احدى ولايات الدولة العثمانية ، كما أوضحنا ذلك من قبل ، هذا بالاضافة الى سرعة وصول الأنباء والتقارير من غربي الجزيرة الى العاصمة مما ساعد الدولة على الوقوف عن كثب على مجريات الأحداث في ذلك الجزء من الجزيرة العربية ، فاستطاعت الدولة أن تقيم حكماً فعالاً ، وقد ارتبط غربي الجزيرة بالعاصمة الاستانة ارتباطاً مباشراً مما شجع الدولة على محاولة تطبيق نظمها في الولايات وعلى الأخص في غربي الجزيرة بما يتناسب مع هذا الجزء من الجزيرة ٠

ولم يبعث افتتاح القناة اهتمام الدولة على غربي الجزيرة فقط ، بل شمل الجزيرة العربية كلها ، ففي الوقت الذي افتتحت فيه قناة السويس عينت الحكومة في نفس الوقت مدحت باشا والياً على العراق (١٨٦٩ ـ ١٨٧٢ م) ٠٠ وكان مدحت باشا يرى ضرورة تثبيت السلطة الفعلية على جميع المناطق التي تخضع للدولة

١ ـ اسماعيل سرهينك ، حقائق الأخبار عن دول البحار ، ص ٧٠٧ ٠

٢ ـ اسماعيل سرهينك ، حقائق الأخبار عن دول البحار ، ص ٧٠٨ ٠

٣ ـ محمد عبد الرحمن برج ، دراسة في التاريخ العربى الحديث والمعاصر ، ص ٣٥٤ ٠

اسمياً (١) ، ومنها العراق اذ كانت القبائل تأبى الخضوع للتجنيد ودفع الضرائب ، فعمل مدحت على أن يجعل السلطة المدنية والعسكرية بيده ، فاستطاع أن يجبى الضرائب ، وينشر الأمن ، وعمل على توزيع الأراضي على القبائل ، وأنشأ مدينتي الناصرية والرمادي ، وأهتم بالتعليم فأسس المدارس في كل قضاء ، وأنشأ مطبعة لإصدار صحيفة « الزوراء » وهي الصحيفة الرسمية ، وأسس المدارس البلدية في أهم المدن ، وأقام المصانع العسكرية ، كما أنشأ مباني حكومية ومستشفيات ، كما أنشأ داراً للعجزة وملجأ للأيتام ، كما أسس مزرعة نموذجية وأرسل المهندسين للأراضي الزراعية لتنظيم الري وتحسين الزراعة ، وأخذ في ردم البرك والمستنقعات لتوسيع واصلاح الأراضي الزراعية(٢) ٠ وكانت أعمال مدحت باشا السابقة منبثقة من تطبيق السياسة المركزية التي سمت الدولة في تطبيقها على جميع الولايات ، ولعل الدولة ممثلة في مدحت باشا قد فعلت ذلك لتتخذ من العراق قاعدة لتثبيت نفوذها في شرق الجزيرة العربية بعد أن مكنتها قناة السويس من تثبيت نفوذها نسبياً في غربي الجزيرة العربية ٠ وبعد ذلك اتجهت انظار الدولة العثمانية المتمثلة في واليها مدحت باشا إلى الخليج العربي ورأت أن تعيد سيادتها الفعلية عليه ، فبعد معركة « جوده » التي انتصر فيها سعود على أخيه محمد ، اتجه الامام عبد الله الى الشمال ناحية حائل ، ومن هناك أوفد رسولاً الى العراق مزوداً بثلاث رسائل لكل من مدحت باشا والى بغداد ، وخليل بك والى البصرة ، والسيد محمد الرفاعي نقيب اشراف البصرة ، يشرح فيها الوضع ويشتكي من أخيه ، ويطلب مساعدة الحكومة العثمانية في حربه معه ، وانتهز مدحت باشا الفرصة ، وأعد حملة بعد اقرارها من الحكومة العثمانية وأبحرت تلك الحملة من البصرة في مايو سنة ١٨٧١ م قاصدة رأس تنورة ، واتجه مدحت باشا إلى الكويت على ظهر سفينة حربية عثمانية تدعى « زخاف » واستعان بجميع سفن الغوص الكويتية لمساعدة الحملة ، وكان عددها ٨٠ سفينة ، كما ساعد الكويتيون الحملة فأرسلوا قوتين بحريتين احداهما بقيادة الشيخ عبد الله بن صالح الثاني أمير الكويت والأخرى بقيادة

---

١ ـ صلاح العقاد ، التيارات السياسية في الخليج العربى ، ص ١٨٣ ٠

٢ ـ محمد بديع شريف ، النهضة العربية الحديثة ، ص ٤٠ ٠

الشيخ مبارك واحتلت هذه الحملة الكويتية القطيف دون مقاومة واستسلمت القلعة وأما الحملة العثمانية فقد نزلت في الهفوف ، وأنشأت حكماً عثمانياً لمصلحة العثمانيين وحدهم(١) .

واستنكرت نجد وصول العثمانيين الى مقاطعة الاحساء واستيلاءهم عليها ، وهم الذين كانوا يعملون للخلاص من العثمانيين ومن كل أجنبي ، لذلك بذل عبد الرحمن بن فيصل جهوداً عظيمة لإقناع العثمانيين بالجلاء عن إقليم الإحساء وتركه لأهله إلا أنه أخفق في محاولاته ، وعندما يئس من التفاهم معهم ، ومن اقناعهم بالجلاء ، أعد جيشاً من عشائر آل مرة والعجمان وغيرهما من القبائل ، وهاجم في أواخر سنة ١٢٩١ هـ / ١٨٧٤ م القوة العثمانية المرابطة على أبواب عاصمة الاحساء « الهفوف » فأبادها وحاصر الحامية الموجودة في قصر خزام وقضى عليها واحتل القصر ، وعندما وصلت الأخبار الى بغداد والبصرة انتدب الوالى ناصر ابن راشد بن ناصر بن سعدون لقمع الحركة ، واشتبك الفريقان في معركة شديدة انتهت بانتصار ناصر بن راشد ، فغادر عبد الرحمن بن فيصل المنطقة متجهاً الى الرياض(٢) ، وبعد أن تمت السيطرة على اقليم الإحساء اتجهت الدولة في توسيع نطاق نفوذها الى قطر ، وبعد أن بسطت الدولة العثمانية نفوذها على قطر أخذ مدحت باشا في الاتصال بحاكم الكويت الشيخ عبد الله آل صباح بالانضمام الى العراق ، وعينه قائمقاماً تابعاً للبصرة ، ورفع العلم العثماني على هذه الامارة الصغيرة ، ونتيجة للاصلاحات التي قام بها مدحت باشا ازدهرت النهضة الفكرية وأخذت السفن تنشط في حركتها في دجلة والفرات وكون مدحت باشا شركة عثمانية ، بعد أن كانت ادارة السفن بيد شركة انجليزية ، كما أصلحت السفن القديمة وقد استطاعت تلك السفن عبور قناة السويس لأول مرة .. ، قادمة من الخليج الى بحر العرب ثم الى البحر الأحمر ولتأكيد النفوذ العثماني على الخليج قام مدحت باشا باعادة بناء ميناء الزباره المواجه لجزر البحرين ، وذلك لتتخذ منه مركزاً لبسط سلطانها على البحرين(٣) فأثار هذا العمل مخاوف بريطانيا من

١ ـ أمين سعيد ، تاريخ الدولة السعودية ، جـ ١ ، ص ١٧٣ ـ ١٧٤ .

٢ ـ محمد بديع شريف وآخرون ، النهضة العربية الحديثة ، ص ٤٠

٣ـ محمد عبد الرحمن برج ، دراسة في التاريخ العربى الحديث والمعاصر ص ٣٥٤ .

امتداد النفوذ العثماني الى مواقعها الاستراتيجية ، ولكنها لم ترغب في باديء الأمر أن تواجه الدولة العثمانية بشأن ميناء الزباره ، فأوعزت للشيخ عيسى آل خليفة أن يحتج لدى الباب العالى وأن يظهر له حقه على هذه المنطقة(١) . وكتب مدحت باشا الى الحاكم العام البريطاني لورد ميو (Meo) في الهند يبرر موقفه باظهار الأدلة القانونية لتثبيت حق الدولة العثمانية في السيادة على جزر البحرين ، لكن لم يكن الاعتراض من جانب حكومة الهند فقط ، بل شاركت فيه وزارة الخارجية البريطانية فبعثت للحكومة العثمانية في ١٤ أبريل سنة ١٨٧٤ م مذكرة تهدد فيها الدولة العثمانية وتقول إن انجلترا لن تسمح بأي عمل يمس استقلال البحرين . وعندها أوقفت حكومة الباب العالى البناء والاصلاح في ميناء الزباره (٢) .

وهكذا لم يبعث افتتاح قناة السويس لدى الدولة العثمانية تثبيت نفوذها في غربي الجزيرة فحسب بل حمل الدولة على تقوية وجودها في الخليج العربي وجنوب الجزيرة بالاضافة الى غربها أي تطويق شبه الجزيرة كلها بنفوذها . وكان لاهتمام الدولة العثمانية بالخليج العربي وشبه الجزيرة العربية أثر بالغ على تلك المنطقة لما لها من أهمية استراتيجية بالنسبة للعالم لذلك حولت الدولة العثمانية في نهاية القرن التاسع عشر الميلادي ، البصرة من متصرفية إلى ولاية ، ويعتبر هذا في حد ذاته مظهراً من مظاهر اهتمام العثمانيين بالخليج وشبه جزيرة العرب(٣) .

ثم أن شق قناة السويس سنة ١٨٦٩ م يعتبر في حد ذاته نقطة البدء لتطورات خطيرة في مجرى تاريخ التجارة الدولية ، بل انها كقناة ملاحية كانت كافية لانقلاب خطير في خطط السياسة والعلاقات الدولية والاستراتيجية ، وقناة السويس غيرت كل الطرق والمسالك الأساسية للتجارة الدولية بصفة عامة ، وبين أوروبا وآسيا بصفة خاصة ، وترتب على ذلك تحول أعداد كبيرة من السفن الى ذلك الطريق ، حتى أصبح البحر الأحمر أكثر الطرق ازدحاماً بالحركة ، لذلك تغيرت

---

١ ـ قدرى قلعجى ، الخليج العربى ، ص ٤٦٧ .
٢ ـ محمد عبد الرحمن برج ، دراسة في التاريخ العربى الحديث والمعاصر ص ٣٥٧ .
٣ ـ صلاح العقاد ، التيارات السياسية في الخليج العربى ، ص ١٩٢ .

الأوضاع بعد أن زاد تسرب ونشاط التيارات الأوروبية الى البحر الأحمر ، فتمسكت الدول الأوروبية ببعض المراكز الاستراتيجية المهمة على مشارف البحر ومداخله وثبتت أقدامها بها ، وكانت كلها تتصارع فيما بينها لتحتل مراكز ممتازة تتكافأ مع قيمة الطرق الصاعدة في خدمة التجارة العالمية(١) ، وأذكر في ذلك الصدد بريطانيا ، التي أخذت تؤمن طريق الامبراطورية عن طريق تقوية نفوذها في جنوب غرب الجزيرة ا بتداء من عدن ، فغيرت سياستها مع القبائل اليمنية المحيطة بعدن ، بحيث تحولت من عقد معاهدات « صداقة وولاء » الى عقد « معاهدات الحماية » ، مستغلة فرصة تخوف سلاطين المنطقة من سيطرة العثمانيين كما أوضحنا من قبل ، وكانت السياسة البريطانية تهدف إلى المحافظة على انفراد بريطانيا بالنفوذ المطلق في عدن ، وفي المنطقة المحيطة بها ، وابعاد أي نفوذ أجنبي آخر يهدد مصالحها هناك ، وبذلك يمكنها أن تستفيد من عدن كقاعدة لتنفيذ سياستها في منطقة البحر الأحمر(٢) ٠

ومن عدن ـ القاعدة الحربية والبحرية لبريطانيا ـ اتخذت خطوة ايجابية على الساحل الشرقي لافريقيا ، ففي سنة ١٨٨٤ م أنهت بريطانيا الحكم المصري وأخرجت المصريين من مراكزهم التي يحتلونها في بربرة وفي هرر وفي زيلع ، وسيطرت على المينائيين الهامين في بلاد الصومال ، مكونة بذلك الصومال البريطاني ، وقررت بريطانيا ضرورة إخلاء سودان وادي النيل وقررت ارسال بعض قطع الأسطول الحربي لحماية الموانىء المصرية في البحـر الأحمـر وخليج عدن ، وذلك بفرض السيطرة على جميع الموانىء المصرية(٣) ، بعد ذلك بدأت انجلترا في توسيع دائرة نفوذها في الصومال مما أدى الى التصادم مع فرنسا أكثر من مرة وهنا خشى الماجور هنتر مساعد المقيم السامي في عدن من تدخل مندوب فرنسا في هرر ، الذي عين من قبل حكومته سنة ١٨٨٤ م ، وأوصى هنتر حكومته بضرورة الوصول الى اتفاق رسمي مع فرنسا من جهة ومع ايطاليا من جهة أخرى بخصوص شؤون إقليم الصومال مع عمل اشراف دولى على دخول الأسلحة

---

١ ـ صلاح الدين الشامى ، الموانىء السودانية ، ص ١٣٦ ٠

٢ ـ فاروق عثمان أباظه ، عدن والسياسة البريطانية في البحر الأحمر ، ص ٨ ٠

٣ ـ أجيه يونان ، جرجس ، البحر الأحمر ومضايقه ،ص ٤٠ ٠

النارية والذخائر إليه ، وكان هنتر يسعى بموجب تلك التوصية الى تقليل خطر تزويد الفرنسيين لأهالى الصومال بالأسلحة والذي يهدد الوجود البريطاني في بربرة وزيلع وهرر(٢) . وفي سنة ١٨٨٥ عقد اتفاق بين بريطانيا وفرنسا ، وجاء في هذا الاتفاق أن تمتد المحمية البريطانية من خط الطول ٤٩ شرقاً الى النقطة التي تقع عندها آبار لاهادوا والى نحو منتصف الطريق بين مصوع ورأس جيبوتي ، بينما يمتد الخط الذي يفصل بين المحميتين الانجليزية والفرنسية الى أباصرين وبيوه وكابوبو وجيلدسا وهرر ، أما جزر موسى وباب المندب فقد دخلت ضمن حدود المحمية الفرنسية بمقتضى الاتفاقية التي عقدت في سنة ١٨٨٨ م ونصت الاتفاقية على تعهد كل من الحكومتين بعدم التدخل عبر خط التقسيم الذي يصل بين المحميتين(٢) .

وكانت فرنسا قد اشترت في ١١ مارس سنة ١٨٦٢ م منطقة صغيرة تسمى أوبوك على خليج تاجورة وهي في منتصف المسافة لتاجورة ومواجهة لعدن ، وفي الفترة من ١٨٦١ ــ ١٨٨٠ م لم تحتل فرنسا المنطقة ، ولكنها أدركت أهميتها الاستراتيجية لأنها قريبة من منفذ البحر الأحمر ، ولأهميتها من الناحية الاقتصادية ، وذلك في استخدامها كمنفذ للتجارة الحبشية لذلك احتلت فرنسا أوبوك سنة ١٨٨١ م ، وفي نفس السنة تنازل سلطان تاجورة لفرنسا عن بقية ممتلكاته(٣) ، ومن هنا جاءت المنافسة بين بريطانيا وفرنسا الا أن بريطانيا تمكنت من بسط نفوذها على الساحل الصومالى المواجه لعدن ، وذلك حماية لوجودها في عدن نفسها ، وضماناً لسلامة وأمن طريقها البحري الى الهند عبر البحر الأحمر ، وقد قامت بريطانيا بذلك في الوقت الذي كانت فرنسا تقوم فيه ببسط نفوذها على بعض أجزاء هذا الساحل انطلاقاً من قاعدتها في أوبوك ، وقد بدأ التنافس واضحاً بين البريطانيين والفرنسيين في منطقة البحر الأحمر خاصة في الوقت الذي احتلت فيه بريطانيا

---

١ ـ فاروق عثمان أباظه ، عدن والسياسة البريطانية في البحر الأحمر ص ٥٢ .

٢ ـ أجيه يونان جرجس ، البحر الأحمر ومضايقه ، ص ٤٠ ـ ٤١ .

٣- المصدر السابق ص ٣٦ .

ميناءي بربرة وزيلع ، كما أجلت المصريين عن هرر ووضعت امكانات الساحل الصومالى في خدمة قاعدتها في عدن ، وكانت فرنسا تحاول أن تقطع الطريق على بريطانيا لتحقيق أهدافها هناك ، على أن هذا الموقف أجبر بريطانيا فيما بعد على تسوية المشاكل مع فرنسا في بلاد الصومال المطلة على المدخل الجنوبي للبحر الأحمر وخليج عدن ، وعلى اشراك الفرنسيين في تقسيم ممتلكات مصر هناك بعد أن أجبرتها بريطانيا على اخلائها حماية لمصالحها الاستعمارية في منطقة البحر الأحمر وفي ميناء عدن الهام ، وبعد أن نفذت بريطانيا دورها في المدخل الجنوبي للبحر الأحمر كان لبريطانيا دور آخر في المدخل الشمالى للبحر الا حمر الذي ازدادت أهميته حينما تقدمت الملاحة وبدأت المواصلات مع الهند والصين وبقية بلاد الشرق الأقصى ، فأصبح دور ذلك البحر لا يقتصر على نقل تجارة ومنتجات هذه المناطق .. بل أصبح الممر التجاري لتموين العالم الأوروبي ، وكان فتح قناة السويس سنة ١٨٦٩ للملاحة العالمية نقطة تحول هامة في تاريخ مصر بصفة خاصة وتاريخ البحر الأحمر بصفة عامة ، وكذلك كان افتتاح القناة حدثاً هاماً في تاريخ التجارة العالمية وتاريخ الاستعمار لذلك عملت انجلترا على زيادة نفوذها في القناة ، واتخذت عدة وسائل لتحقيق أهدافها الاستعمارية ، اذ قامت أولاً بشراء أسهم مصر في القناة ، ثم سعت الى السيطرة على شؤون مصر متذرعة في ذلك بذرائع مختلفة حتى تسيطر على قناة السويس مفتاح البحر الأحمر الشمالى(١) ، وبعد أن احتلت بريطانيا مصر أصبحت صاحبة المركز الفعلى في قناة السويس وضمنت بذلك مصالحها في البحر الأحمر اذ كانت التجارة البريطانية التي تعبر البحر الأحمر تشكل أربعة أخماس التجارة العالمية ، كما كان جزء كبير من هذه التجارة يمر بميناء عدن مما زاد من أهميتها ، وأدى ذلك بالتالى الى تشبث البريطانيين بالبقاء فيها ، وتدعيم نفوذهم في المنطقة المحيطة بها ، ولا شك أن قناة السويس الى جانب كونها ممراً عالمياً للمواصلات بين الشرق والغرب ، فإنها قد أصبحت أيضاً ممراً ضرورياً للمواصلات بين الأجزاء المختلفة من الامبراطورية البريطانية بوجه خاص(٢) .

ولذلك ظلت بريطانيا تحافظ على هذا المركز الممتاز مدة الاحتلال البريطاني

---

١ - أجيه يونان جرجس ، البحر الأحمر ومضايقه ، ص ٣٣ .

٢ - فاروق عثمان أباظه ، عدن والسياسة البريطانية في البحر الأحمر ، ص ٣٧٧ .

على أساس حماية حرية المرور الذي كان يهمها أكثر من أية دولة أوروبية أخرى ، وهكذا تحكمت بريطانيا في المدخل الشمالى للبحر الأحمر بسيطرتها على مصر وقناة السويس ، وعلى المدخل الجنوبي لهذا البحر بسيطرتها على عدن وبسط نفوذها في المنطقة المحيطة بها في جنوبي اليمن ، وفي المنطقة المواجهة لها على الساحل الافريقي للبحر الأحمر والتي تشرف على خليج عدن من ناحيتي الغرب والجنوب ، ومعنى هذا كله أنه في الوقت الذي سعت فيه الدولة العثمانية للاستفادة من افتتاح قناة السويس لتثبيت نفوذها ، غربي الجزيرة والبحر الأحمر ضماناً لوجودها كحامية للأماكن المقدسة الإسلامية كان الاستعمار البريطاني قد ثبت قدمه في جنوب غربي الجزيرة ، وأخذ يستشري في المنطقة العربية ثم كان الصراع الاستعماري البريطاني الفرنسي مما جعل محاولات الدولة العثمانية في هذا الصدد على جانب كبير من العقم .

وباحتلال بريطانيا لمصر وقناة السويس فقدت الدولة العثمانية مركزها الممتاز في ذلك الاقليم الحيوي الذي ربط غرب الجزيرة العربية بعاصمة الدولة الآستانة ، فصعب ارسال الحملات التأديبية والتي كانت ترسلها لأقاليمها في غربي الجزيرة ، كما فقدت مصر التي كانت تمد خزانة الدولة بالأموال الوفيرة ، اضافة الى ما كان يسند اليها في مد القوات المرسلة بالمؤن والذخائر ، وفي بعض الأحيان تتكفل مصر بارسال الحملات من جنودها ، على أن فقدان مصر قد تسببت فيه الدولة العثمانية نفسها ، اذ أخذت في ارخاء قبضتها على واليها سواء أكان قبل افتتاح القناة أو بعده

فبعد زيارة السلطان عبد العزيز لمصر في ابريل سنة ١٨٦٣ م أخذ اسماعيل باشا يسعى الى تعزيز ولايته في مصر فسعى لدى الباب العالى في تغيير الفرمان الصادر سنة ١٨٤٠ م بشأن وراثة عرش مصر والذي يقضي بأن يؤول عرش الولاية لأكبر فرد في أسرة محمد على بشرط موافقة الباب العالى ، لذلك طلب اسماعيل من الباب العالى أن يجعل الوراثة لأكبر أولاد الخديوي دون قيد أو شرط ، ووافق السلطان على ذلك[1] ، وترتب على هذا أخطاء ورطت الدولة ومصر في مشاكل

---

١ ـ عمر السكندرى ، وسليم حسن ، تاريخ مصر من الفتح العثمانى ، ص ٢١٩ .

كبيرة مثل ما حدث في عهد الخديوي توفيق ، وهنا بطبيعة الحال خطر على الدولة العثمانية نفسها ، إذ أصبحت الولاية مقتصرة على أسرة الخديوي حتى اذا رأت الدولة العثمانية رجلاً أفضل منه فلا تستطيع تعيينه ، وهنا خطأ من الدولة ، كما سعى اسماعيل باشا لدى الباب العالى الى منحه لقباً أرقى من باشا ، والفرض من ذلك تثبيت امتياز مصر عن بقية ولايات الدولة ، فمنحه السلطان لقب خديوي ومعناه الأمير العظيم في ربيع الأول سنة ١٢٨٤ هـ (يوليه سنة ١٨٦٧)(١) ، وكانت تلك الامتيازات التي توصل إليها اسماعيل بعد ما أدركت الأهمية التي سوف تكون عليها مصر بعد افتتاح القناة ، فالسلطان لا يرغب في اغتصاب الخديوي حتى لا ينفصل عن جسم الدولة ، ولكن الذي حدث بعد ذلك هو أن السلطان العثماني قد أحس بانفصال مصر عن جسم الدولة ، لذلك أصدر فرماناً في ٢٩ نوفمبر سنة ١٨٦٩ م أكد حقوق السيادة العثمانية على الخديوية المصرية وبالصورة التي رسمتها فرمانات ١٨٤٠ ـ ١٨٤١ م ، وأعاد السلطان فيه ذكر المسائل التي قبلها اسماعيل بشأن تقييد السفن الحربية والعلاقات الخارجية ، وأكد على ضرورة استخدام موارد البلاد لخدمة مصالحها الحقيقية ومعاملة الرعايا المصريين بالعدل والإنصاف وألا تجبى ضرائب جديدة من غير حاجة شرعية ماسة ، وألا يعقد قرض الا بعد موافقة السلطان(٢) ، كان هذا الفرمان يعتبر في حد ذاته لصالح الدولة اذ أكد سيادة الدولة العثمانية على مصر لابعاد التدخل الأجنبي ، إلا أن الأمور تطورت بعد ذلك ، اذ قامت الدولة بمنح الخديوي اسماعيل عدة امتيازات وذلك في ربيع الثاني سنة ١٢٩٠ هـ الموافق سنة ١٨٧٣ م وأكدت كل الحقوق التي منحت للخديوي في السابق اضافة الى اعتراف الباب العالى باستقلال الخديوي بشؤون مصر الداخلية استقلالا تاماً ، وصرح له بأن يعمل دون استشارة في الحصول على قرض ، وعقد المعاهدات التجارية وغيرها مع الدول الأجنبية مادامت تلك المعاهدات لا تناقض مصلحة الدولة ولا محالفاتها السياسية مع الدول ، وأن يزيد جيشه حسبما يراه صالحاً ، على شرط ألا يكون في اسطوله مدرعات ، وفي مقابل ذلك زادت الضرائب التي تدفع للخزينة(٣) ٠ وكانت الامتيازات تعني

---

١ ـ عمر السكندرى ، وسليم حسن ، تاريخ مصر من الفتح العثمانى ، ص ٢١٩ ـ ٢٢٠ ٠

٢ ـ سيد رجب حراز ، المدخل الى تاريخ مصر الحديث ، ص ٣٦٥ ٠

٣ ـ عمر ا لسكندرى ، وسليم حسن ، تاريخ مصر من الفتح العثمانى ، ص ٢٢٠ ٠

تفريط الدولة العثمانية في مصر والقناة ، مما سمح للدول الأوروبية التدخل في شؤون مصر ، وترتب على ذلك الاستعمار البريطاني لمصر والقناة والذي كان سنة ١٨٨٢ م ، الا أنه في هذا الوقت كان مركز انجلترا في مصر مزعزعاً ، وذلك بسبب عدم اعتراف الدول بمركز بريطانيا الشرعي ، ففرنسا غير موافقة على مركز الانجليز المتفوق في مصر ، وايطاليا غير راضية بعمل الانجليز المنفرد ، اذ كانت ترغب في اشراك كل الدول الكبرى في مسألة تأمين القناة ، أما المانيا والنمسا والمجر وروسيا فلم يقروا مهمة انجلترا لحماية القناة ، وكانت تلك الدول ترى ضرورة تدخل الباب العالى بجانب انجلترا · فالباب العالى هو صاحب السيادة على مصر من الناحية القانونية(١) ، وهي مسؤولة عن تلك الحماية ، إلا أنها لم تستغل مكانتها القانونية في مصر ، واكتفت بالاحتجاج اللفظي ، اذ لم تكن في موقف يسمح لها بمواجهة بريطانيا ، ولكن مركز بريطانيا أيضاً كان ضعيفاً ، اذ انقسمت الحكومة البريطانية بين مؤيد لاحتلال مصر ، ومعارض للاحتلال ، ومع ذلك لم يستغل الباب العالى هذا الموقف أيضاً ، كل ذلك أدى الى تفريط الدولة العثمانية في ولاية مصر التي تمر فيها القناة اضافة إلى توسيع النفوذ البريطاني في جنوب غرب الجزيرة والساحل الشرقي لافريقيا ، ومعنى ذلك أن البحر الأحمر لم يعد بحيرة عثمانية كما كان ، وكان على الدولة أن تبحث عن طريق آخر يؤمن نفوذها على غرب الجزيرة ، وكان ذلك هو مد خط سكة حديد الحجاز ، في وقت كانت فيه انجلترا قد سيطرت كما ذكرنا سيطرة كاملة على مدخل البحر الأحمر الشمالى والجنوبي معاً ·

ولنتحدث الآن عن الوضع في قلب الجزيرة « نجد » ، فقد كان العثمانيون قد حاولوا ارضاء آل الرشيد الذين اعترفوا بالخلافة العثمانية وأعطوا ولاءهم للسلطان العثماني ، وكان الأمير من آل رشيد يرسل الرسل محملين بالهدايا ، وينال النياشين الرفيعة ، ويقبل المندوبين المعتمدين من الحكومة العثمانية وأخذت الدولة تعتمد عليه وتعده من أكبر المخلصين لها ، واتخذ آل رشيد موقف المناوأة من الدعوة السلفية ، لذلك أغدقت الدولة العثمانية على ابن رشيد العطايا ،

١ ـ محمد مصطفى صفوت ، انجلترا وقناة السويس ، ص ٩١ ·

وخصوه دون غيره بالمساعدات والتعضيد ، وكان ذلك حتى وفاة محمد العبد الله الرشيد في سنة ١٣١٥ هـ (١٨٩٧ م) واستمرت تلك المساعدات في عهد خلفائه(١) ، ولم تكن سيطرة الدولة العثمانية على نجد بالأمر الهين لا سيما اذا عرفنا أن هناك عقبات تقوم في وجه الدولة للسيطرة على قلب الجزيرة والتي تتمثل في بعد المسافة وقلة وسائل النقل ، وضراوة العربي في الدفاع عن حريته (٢) ، وتطورت الأمور في الكويت ، فبعد أن منحت الدولة العثمانية شيخ الكويت عبد الله آل الصباح منصب قائمقام سنة ١٨٧١ م خلفه أخوه محمد سنة ١٨٩٢ م الذي وكل الامارة لرجل عراقي يدعى يوسف بن عبد الله آل ابراهيم ، وكان موالياً للدولة العثمانية ، وكان يأمل أن تؤيده الدولة في عزل آل الصباح ، وتعينه بدلاً منهم ، لكن الشيخ مبارك آل الصباح أدرك نوايا يوسف بن عبد الله ، فقتل أخاه محمد سنة ١٨٩٦ م واستولى على السلطة وهرب يوسف الى البصرة(٣) ، حيث وجد ترحيباً من واليها حمدي باشا ، وأيدت الدولة أول الأمر حقوق أبناء الحاكم المقتول محمد آل الصباح في أن يرثوا السلطة ورأى السلطان عبد الحميد أن ينتهز هذه الفرصة لتقوية نفوذه في الكويت ، وطالب بالتحقيق في حادثة القتل(٤) ، وبعد تردد من قبل الحكومة العثمانية ، أصدرت الدولة فرماناً سنة ١٨٩٣ م يقضي بتعيين الشيخ مبارك بمنصب قائمقام على الكويت ، وفي فبراير سنة ١٨٩٧ م أرسلت الدولة موظفاً عثمانياً للحجز الصحي على الكويت ، وفي نفس الشهر طلب الشيخ مبارك مقابلة المقيم السامي البريطاني أو مندوباً عنه ، فأرسلت بريطانيا المندوب المساعد فوق العادة في شهر سبتمبر فأبلغه الشيخ أنه وشعبه يودون أن يكونوا في حماية بريطانيا ، لكن بريطانيا كانت ترى أن الظروف غير ملائمة لاجابة طلبه(٥) ، بعد ذلك تحسنت العلاقات بين الشيخ مبارك وبين العثمانيين ، إلا أن الثقة بين الطرفين لم تتحقق ولم تساعد الظروف الخارجية على استمرار العلاقات ، اذ أن والي

---

١ ـ خير الدين الزركلي ، شبه الجزيرة في عهد الملك عبد العزيز ، جـ ١ ص ١١٨ ٠

٢ ـ جورج انطونيوس ، يقظة العرب ، ص ١٣٣ ٠

٣ ـ محمد عبد الرحمن برج ، دراسة في التاريخ العربي الحديث والمعاصر ص ٢٨١ ٠

٤ ـ صلاح العقاد ، التيارات السياسية في الخليج ، ص ١٩١ ٠

٥ ـ د ٠ سيد نوفل ، الخليج العربي ، ص ١٦٥ ٠

البصرة ظل يظهر عداءه ، كما أن المناوشات بين آل الصباح وآل الرشيد قد تكررت حيث تطلع آل رشيد الى احتلال منفذ على البحر يساعدهم على استيراد حاجتهم من الخارج ، وعلى الأخص السلاح ، ولما كان العثمانيون يحتلون العقير ، فلم يبق أمامهم سوى الكويت ، وفي حالة وقوع نزاع على نطاق واسع بين آل الرشيد وبين الكويت فمن الأرجح أن يساند العثمانيون حلفاءهم من آل الرشيد(١) ، لذلك كرر الشيخ مبارك في أوائل سنة ١٨٩٨ م فكرة طلب الحماية البريطانية ، إلا أن بريطانيا قابلت هذا الطلب بالرفض اذ أنها لا تريد الدخول مع الدولة العثمانية في منازعات اضافة الى أن حكومة الهند كانت تسلم بأن القسم الشمالى من الخليج يدخل ضمن اطار السيادة العثمانية ، وتكتفي بالقسم الجنوبي من الخليج(٢) إلا أن المقيم العام البريطاني في الخليج الكولونيل ميد كان يوصي بفرض الحماية ، اذ أبرز أهمية الكويت .

فالكويت تملك ميناء ممتازاً ، وإذا أصبح تحت حماية بريطانيا فسوف يكون من أهم مراكزها في الخليج العربي ، اضافة الى احتمال جعل الكويت في المستقبل نهاية الخط الحديدي من الاسكندرونه أو بورسعيد ، وفي قبول بريطانيا الاشراف على هذا الميناء تضمن حماية تلك المشروعات ، وتعددت المذكرات في تلك الفترة ، وجميعها تشير الى ضعف الروابط بين الكويت والدولة العثمانية(٣) ، بجانب ذلك تطورت العلاقات بين ألمانيا والدولة العثمانية ، فبعد مفاوضات قصيرة بين الطرفين قبلت الدولة فكرة ألمانيا في انشاء خط حديدي يصل الشبكة الحديدية العثمانية ببلاد الرافدين عن طريق آسيا الصغرى حتى تبلغ الخليج ، واستخدام الكويت كمحطة أخيرة(٤) ، وصدر لذلك امتياز في سنة ١٨٩٨ م لصالح شركة ألمانية(٥) ومع نهاية سنة ١٨٩٨ عين اللورد كيرزون حاكماً عاماً للهند ، الذي أيد سيطرة العثمانيين للقسم الشمالى من الخليج مع مراعاة عدم وجود أية قوى أوروبية تقف

---

١ ـ صلاح العقاد ، التيارات السياسية في الخليج العربى ، ص ١٩٢ .
٢ ـ المصدر السابق ص ١٩٣ .
٣ ـ المصدر السابق ص ١٩٣ .
٤ ـ قدرى قلعجى ، الخليج العربى ، ص ٤٦٨ .
٥ ـ صلاح العقاد ، التيارات السياسية في الخليج العربى ، ص ١٩٤ .

وراء الدولة العثمانية ، وبادر بالموافقة على وضع الكويت تحت الحماية البريطانية(١) ، وبناء عليه تم الاتفاق بين بريطانيا ويمثلها الكولونيل ميد ، والكويت ويمثلها الشيخ مبارك الصباح في ١٠ رمضان سنة ١٣١٦ هـ الموافق ١٣ يناير سنة ١٨٩٩ م على ألا تتنازل الكويت عن أي جزء من أراضيها أو تقبل تمثيلاً دبلوماسياً أجنبياً الا بموافقة الحكومة البريطانية . وفي المقابل تعهدت انجلترا أن تضمن استقلال الكويت وتدعمه عسكرياً الى جانب منحها مساعدة مالية(٢) ، وبناء عليه رفض الشيخ مبارك استقبال قنصل ألمانيا في استانبول الذي حضر للكويت للتفاوض مع شيخها لتحديد موقع نهاية خط حديد برلين - بغداد عند رأس كاظمة(٣) ، وتكررت بعد ذلك محاولات الدولة العثمانية لفرض سيطرتها على الكويت ، حتى تتمكن الشركة الألمانية من تنفيذ مشروعها ، فاضطرت بريطانيا عند ذلك بالتصريح عن وجود اتفاق مع شيخ الكويت اذ كان هذا الاتفاق سرياً ، وأثار ذلك غضب الحكومة العثمانية وأعلن وزير خارجية الدولة أن هذا الاتفاق مخالف لمعاهدة برلين سنة ١٨٧٨م ، وأجاب وزير خارجية بريطانيا سالزبري عليه بأنه ليس في نية بريطانيا اعلان الكويت محمية بريطانية ، ولكن قد ترغمها حكومة الباب العالى على ذلك ، وتوصل الطرفان بعد ذلك الى تسوية مؤقتة وذلك بعدم التدخل في شؤون الكويت الداخلية(٤) ، إلا أن الدولة العثمانية ساءها رضوخ الكويت للبريطانيين وأخذت تستمين بعبد العزيز الرشيد عدو الشيخ مبارك وأخبرته بأن الدولة العثمانية لا تمانع في استيلائه على الكويت وضمها الى أملاكه طالما أن آل الرشيد من أتباع الدولة المخلصين ، فسر ابن الرشيد بذلك ، وكان يطمع في الاستيلاء على الكويت ليكون له منفذ على الخليج العربي ، وأخذ عبد العزيز الرشيد يعد العدة لعملية الهجوم ، كما قدمت الدولة العثمانية المساعدات(٥) ، وكان شيخ الكويت قد استعد من جانبه للمعركة فأتى بالمرتزقة من

---

١ - صلاح العقاد ، التيارات السياسية في الخليج العربى ، ص ١٩٤ .

٢ - قدرى قلعجى ، الخليج العربى ، ص ٤٦٨ .

٣ - سيد نوفل ، الخليج العربى ، ص ١٦٦ .

٤ - صلاح العقاد ، التيارات السياسية في الخليج العربى ، ص ١٩٧ - ١٩٨ .

٥ - صلاح الدين المختار ، تاريخ المملكة العربية السعودية ، جـ ٢ ، ص ٢٥ .

قبائل مطير والمنتفق والعجمان . وفي فبراير سنة ١٩٠١ م التحم الجيشان في الصريف عند منتصف الطريق بين الكويت وحائل . غير أن جيش الشيخ مبارك لم يستطع الصمود أمام جيش الرشيد الذي دربه العثمانيون(١) وكانت الهزيمة من نصيب آل الصباح . واضطر الى الانسحاب الى الكويت . وهنا حاولت الدولة العثمانية التدخل فأرسلت في ديسمبر سنة ١٩٠١ م البارجة العثمانية « زحاف » وقدمت انذاراً الى الشيخ مبارك بأن يستقبل فصيلة عثمانية عسكرية في الكويت أو يغادر الكويت الى استانبول . وأجاب الشيخ مبارك قائد البارجة اجابة سياسية ولكنها سلبية ، وانسحبت زحاف(٢) . وعاد ابن الرشيد بعد ذلك الى مهاجمة الشيخ مبارك . بعد أن اتفق مع الدولة العثمانية على مده بمساعدات وأسلحة فسار على رأس قوة كبيرة الى منطقة حفر الباطن وواصل سيره حتى وصل أمام أسوار جهرا . وهي قرية في الطرف الداخلي للكويت . ولجأ الشيخ مبارك الى البريطانيين الذين اتخذوا الترتيبات العاجلة . وشرعوا في قصف معسكر الرشيد . فانسحب ابن الرشيد الى قاعدته في حفر الباطن(٣) . ولم تقف الدولة العثمانية عند ذلك الحد في التدخل في شؤون الكويت . ولم تيأس في اعادة سيطرتها عليها . ففي خريف سنة ١٩٠٢ أراد يوسف بن عبد الله الاستيلاء على الكويت بتأييد من العثمانيين . ونزلت مجموعة من عرب الاشراف من الجانب الفارسي في منطقة دورة الواقعة على شط العرب ، وذلك بقيادة ابن أخ الشيخ مبارك الذي استنجد بالبريطانيين . وتلقى قائد البارجة البريطانية لابوينج خبر تلك الحملة في ٣ سبتمبر في الفاو . وأسرع إلى الكويت لصدها . وبحث عن الحملة واكتشف اليوم الخامس من سبتمبر سفينتين وعلى ظهرهما ١٥٠ رجلاً مسلحاً وطاردت زوارق لابوينج السفينتين . وبعد معركة عنيفة تم الاستيلاء على السفينتين وأسر من فيهما(٤) . وفي العام التالى سنة ١٩٠٣ م أقام العثمانيون حامية في أم القصر وصفوان . وحاولوا الاستيلاء على جزيرة ببيان . وأثار ذلك قضية جديدة تتعلق بحدود امارة الكويت . فادعى الشيخ مبارك بأن

---

١ ـ صلاح العقاد . التيارات السياسية في الخليج العربى . ص ١٩٦ .

٢ ـ سيد نوفل . الخليج العربى . ص ١٦٧ .

٣ ـ عبد الله فيلبى . تاريخ نجد ص ٢٧٧ .

٤ ـ سيد نوفل . الخليج العربى . ص ١٦٧ .

حدود امارته تمتد الى الفاو شمالاً ، ونتيجة لذلك صرح وزير الخارجية البريطاني بلفور في مجلس العموم بأن شيخ الكويت تحت الحماية البريطانية ورفض ادعاءاته بامتداد حدوده الى الفاو(١) ، وفي نفس السنة زار اللورد كيرزون حاكم الهند البريطاني الكويت في اطار زيارته لدول منطقة الخليج العربي وعلى أثر هذه الزيارة عينت الحكومة البريطانية في السنة التالية سنة ١٩٠٤ م وكيلاً سياسياً للكويت فاحتج العثمانيون على هذا التعيين لأنه في الحقيقة يمس بسيادة الدولة على الكويت ، ولكن بريطانيا لم تعبأ بذلك الاحتجاج(٢) ، وأخذ النفوذ الانجليزي ينمو في الكويت ، وتوطدت العلاقات بين البلدين حتى انتهى الوجود العثماني ولم يبق له أثر ، وبذلك فقدت الدولة العثمانية ذلك الطريق الذي كانت تباشر منه توطيد نفوذها في شرقي الجزيرة العربية ، واحاطة شبه الجزيرة بدرع واق ٠

وننتقل بالحديث الى قلب الجزيرة العربية الى منطقة نجد ، إذ تم على يد الملك عبد العزيز بن عبد الرحمن بن فيصل آل سعود فتح مدينة الرياض وذلك في الرابع من شوال سنة ١٣١٩ هـ الموافق للرابع عشر من يناير سنة ١٩٠٢ م ، وبفتح مدينة الرياض استرد ابن سعود مِلك أجداده المسلوب(٣) ، ويعتبر فتح الرياض نقطة بداية لتكوين سلطة ومملكة متسعة الأطراف إذ أخذ الملك عبد العزيز يعمل لاستعادة سلطة السعوديين في نجد ، وبذلك تبدأ الفترة الثالثة لحكمهم والتي توطدت فيه دعائم حكمهم منذ ذلك الحين ، وكان الطريق أمام عبد العزيز مليئاً بالعقبات لأن الدولة العثمانية أخذت تقدم مساعداتها لآل الرشيد حينما لاحظت تصاعد قوة السعوديين المطرد(٤) وأخذ الملك عبد العزيز بعد فتح الرياض يؤمن لنفسه الحدود ، لذلك عمد الى الاستيلاء على القسم الجنوبي من نجد ، فاستولى في أوائل سنة ١٣٢٠ هـ الموافق سنة ١٩٠٢ م على منطقة الخرج والأفلاج (٥) ، وكان قد بدأ بالقسم الجنوبي لأن غالبية القبائل الموجودة في الشمال موالون لآل الرشيد ،

---

١ ـ صلاح العقاد ، التيارات السياسية في الخليج العربى ، ص ١٩٨ ٠

٢ ـ حافظ وهبة ، جزيرة العرب ، ص ٨٢ ٠

٣ ـ صلاح الدين المختار ، تاريخ المملكة العربية السعودية ، جـ ٢ ، ص ٤٢ ٠

٤ ـ صلاح العقاد ، التيارات السياسية في الخليج العربى ، ص ٢٠١ ٠

٥ ـ حافظ وهبة ، جزيرة العرب ، ص ٢٤٦ ٠

لذلك رأى الملك عبد العزيز حماية ظهره فيما بين الرياض والربع الخالى جنوباً ، بعد ذلك اتجه ناحية الشمال ، فغزا قبائل قحطان والتابعة لا بن الرشيد ، عندها أدرك ا بن الرشيد استفحال أمر ا بن سعود فانصرف الى عاصمته حائل ليجمع قواه ، ورجع ومعه جموع من قبائل شمر والقصيم وسدير وكانت وجهته الرياض ، وتقابل القائدان بقرب الدلم في منطقة السلمية ، ودارت بينهما معركة انهزم فيها ا بن الرشيد واضطر للعودة نحو الشمال ، واستقر في حفر الباطن ، وعاد السلطان عبد العزيز الى الرياض(١) .

وكانت الدولة العثمانية قد اتخذت موقفاً عدائياً في أول الأمر من ا بن سعود وذلك لأن السعوديين لا يعترفون بخلافة آل عثمان ولأن أهل نجد منذ قيام الشيخ محمد بن عبد الوهاب بدعوته الاصلاحية جاهروا بامامة القائمين بالأمر فيهم من آل سعود ، بالاضافة الى امتناع الديار النجدية عن الخضوع لنفوذ الدولة العثمانية ، وتمسكها في أيام الحكم السعودي باستقلالهم ودفاعهم عن ذلك بالسلاح ، ولما كان آل الرشيد موالين للدولة العثمانية ومعترفين بسلطانها فقد اتخذتهم الدولة سنداً لها في شبه الجزيرة ، وأداة فعالة لتدعيم سياسة الدولة في قلب الجزيرة(٢) .

وبعد هزيمة ا بن الرشيد في موقعة السلمية أدرك أن مركزه صار حرجاً وفي خطر ، وذلك لتخلى القرى والقبائل عن مناصرته ومؤازرته بعد أن كانت موالية له ومع ذلك كانت هناك بعض القبائل التي يمكنها أن تدعم موقفه ، غير أنه لم يكن واثقاً بقبائل القصمان أن تقف الى جانبه اذا ساءت الأمور ، لذلك كان أمله الوحيد في مواجهة زحف ا بن سعود لجوءه للدولة العثمانية التي ستبادر الى مساعدته لتثبت أقدامها في وسط الجزيرة العربية ، فأرسل ا بن الرشيد رسائل الى الوالي العثماني في بغداد ، وباشر في اتخاذ اجراءات مؤقتة للدفاع عن القصيم في انتظار وصول قوات السلطان ووضع حاميات في عنيزة وبريدة(٣) ، ولقي طلب ا بن الرشيد اهتماماً من الدولة العثمانية ، وأذن الباب العالى بارسال الامدادات من سلاح ورجال ومال لا بن الرشيد ، مادام يريد القضاء على آل سعود ، وزحف ا بن

---

١ ـ خير الدين الزركلي ، شبه الجزيرة في عهد الملك عبد العزيز جـ ١ ص ١٣٧ .

٢ ـ المصدر السابق ص ١٤٩ .

٣ ـ عبد الله فيلبى ، تاريخ نجد ، ص ٢٨٣ ـ ٢٨٤ .

الرشيد ومعه قبائل شمر وجنود الدولة العثمانية ، وتلاقى الفريقان في سهل البكيرية(١) ، وبعد انهزام ابن الرشيد في الثامن عشر من رجب الموافق للثامن والعشرين من سبتمبر سنة ١٩٠٤ م(٢) غيرت الدولة من سياستها فطلبت من الامام عبد الرحمن والمقيم بالرياض بواسطة شيخ الكويت للمفاوضة ، وأجاب الامام عبد الرحمن طلب الدولة العثمانية في حضور المفاوضات ، فسافر الى الكويت ومنها توجه وبرفقته شيخ الكويت الى الزبير ، واجتمعوا هناك ، وبعد المفاوضات تقرر أن تكون منطقة القصيم على الحياد لتقوم كحاجز بين ابن الرشيد وابن سعود ، وأن يكون للدولة مركز عسكري لحمايتها وحكمها ولكن الامام عبد الرحمن لم يوافق على هذا القرار واقترح أن يعرضه على أهل نجد ، وبطبيعة الحال لم يقبل أهل القصيم أن تكون منطقة القصيم على الحياد ، ولا أن تكون فيه حامية للدولة(٣) ٠

وكان ابن الرشيد بعد هزيمته قد اتجه الى الكهفة ، وهي قرية في أول حدود جبل شمر ، ومن هناك أرسل الى السلطات العثمانية في بغداد يطلب منها مساعدات أخرى(٤) ، فأرسلت الدولة أحمد فيضي باشا الذي اشتهر بشجاعته وحسن سياسته ، ووصل بثلاثة طوابير وخمسة مدافع ، ودعمته برجل آخر هو الفريق صدقي باشا ، وكان من المدينة المنورة ومعه طابوران ، فالتقوا وعسكروا قرب القصيم ٠

وفي واقع الأمر لم يكن للدولة رغبة في الدخول في حرب مع ابن سعود ، وعمدت للمفاوضات من أجل السلم ، وكان فيضي باشا وصدقي باشا قد اجتمعا بابن الرشيد وتفاوضا معه ، ولكنهم اختلفوا اذ كان ابن الرشيد يريد أن يضغط على أهل نجد ، وأن يقضي على أهل القصيم بالسيف ، فخالفه المشير أحمد فيضي ، وعاد ابن الرشيد وعسكره الى مقره الكهفة ، واتجه المشير وصدقي باشا على رأس جنودهم قاصدين القصيم ، وعندما وصلوا الى بريدة رفض أهلها أن يدخلوهم

---

١ ـ خير الدين الزركلي ، شبه الجزيرة في عهد الملك عبد العزيز ، ص ١٥٠ ٠

٢ ـ صلاح الدين المختار ، تاريخ المملكة العربية السعودية ، ص ٦٨ ٠

٣ ـ أمين الريحاني ، تاريخ نجد وملحقاته ، ص ١٤٩ ٠

٤ ـ عبد الله فيلبي ، تاريخ نجد ، ص ٢٨٩ ٠

المدينة ، وأرسل فيضي باشا رسولاً الى الرياض يذكر أن الدولة لا تريد محاربة أهل نجد وأنه جاء مسالماً وأرسل إلى ابن سعود في العماد يؤمنه قائلاً ، إنني لا أريد إلا السلم ، ولست محققاً مقاصد ابن الرشيد ، وقد سأله البقاء مكانه ، وارسال والده الامام عبد الرحمن الى عنيزة للمفاوضة ، فقبل عبد العزيز بذلك ، وأمر الناس بالهدوء ، وألا يقوموا بأعمال عدائية أثناء المفاوضات(١) ، واجتمع الامام عبد الرحمن بفيضي باشا في عنيزة وكانت المفاوضات تدور حول الصلح بين ابن سعود وابن رشيد ، واقترح فيضي باشا أن تكون القصيم منطقة محايدة ، وأن تتمركز القوات العثمانية في بريدة وعنيزة الى أن يتم الصلح(٢) وبينما المفاوضات تجري تلقى فيضي باشا برقية الاستانة تأمره بالسفر في الحال الى صنعاء التي اشتد الحصار عليها من قبل اليمنيين تحت لواء يحيى حميد الدين ، فترك فيضي باشا القصيم ، وعهد الى صدقي باشا باتمام المفاوضات وكان ذلك سنة ١٣٢٣ هـ (١٩٠٥ م)(٣) ٠

وكان الامام الزيدي يحيى بن حميد الدين قد بعث سنة ١٩٠٤ م برسائل عديدة الى زعماء القبائل الموالية للدولة العثمانية يحرضهم على الخروج على طاعة الدولة ، كما أخذ يروج الدعايات ضد العثمانيين ، وشهّر بما يقوم به الولاة العثمانيون من فظائع ، فعبر عن سخطه وغضبه على الحكم العثماني(٤) ، ويعتبر ذلك الانتقاد المستمر من قبل الامامة للولاة العثمانيين والتشهير بهم واتهامهم بالخروج عن الدين في سلوكهم ، من ضمن أسباب ضعف الدولة في هذا الجزء ، وبالتالى اضعافها في محاولة للقضاء على الوجود البريطاني في عدن ومن ثم اضعافها في غربي الجزيرة كله ٠

وتطورت الأمور في اليمن ، ففي سنة ١٩٠٥ م حاصر يحيى بن حميد الدين صنعاء ، واستولى على الحامية العثمانية ، ولم يخلص تلك المدينة الا أحمد فيضي باشا الذي وصل اليها في نفس السنة ، وبعد أن أدرك السلطان عبد الحميد من

---

١ ـ أمين الريحاني ، تاريخ نجد وملحقاته ، ص ١٤٨ ٠

٢ ـ عبد الله فيلبي ، تاريخ نجد ص ٢٩٠ ٠

٣ ـ خير الدين الزركلي ، شبه الجزيرة في عهد الملك عبد العزيز جـ ١ ص ١٦٨ ٠

٤ ـ هارولد ٠ ف ، عدن وجنوب اليمن في ملوك العرب ، ص ١٣٢ ٠

خلال المعارك الضارية التي خاضتها القوات العثمانية هناك سنة ١٩٠٤ ـ ١٩٠٥ م أن هذه الولاية لا يمكن الاحتفاظ بها بالقوة فأعلنت الدولة استمدادها لاطلاق يد الامام يحيى في حكم الأقسام الداخلية(١) ، وبالاضافة الى نمو قوة ابن سعود ، الذي تمكن من القضاء على ابن الرشيد ، وعقد معاهدة مع العثمانيين ، انسحبت بموجبها القوات العثمانية الى بغداد والمدينة المنورة ٠

ويتضح من هذا العرض كله أن الدولة العثمانية فقدت سيطرتها على شرقي الجزيرة ووسطها ، الى جانب فقدها مصر وقناة السويس ، لذلك رأت الدولة في خط سكة حديد الحجاز الشريان الوحيد الى الحجاز ومكة والمدينة المنورة ، لتحافظ على مكانتها الروحية في العالم الإسلامي والاكتفاء بتلك المكانة التي ظلت الدولة تحافظ عليها حتى بعد انسحابها من تلك المناطق ٠

ومع افتتاح الخط سنة ١٩٠٨ م تولى امارة مكة الشريف حسين الذي كان يقيم في استانبول منذ سنة ١٨٩٣ م ضيفاً على السلطان عبد الحميد(٢) واستطاع الشريف حسين أن يعيد لمنصب الشرافة مقامه الرفيع ، وبسط نفوذه على جميع القبائل المجاورة وذهب الى أبعد من ذلك في توسيع نطاق حدوده ، وعندما قويت شوكة

الاتحاديين أرادوا أن يسلبوا الحجاز ميزاته ، فأعلنوا أنه يجب خضوع الحجاز لنظام الحكومة المركزي ، وأرسلوا إليه والياً ذا نفوذ قوي ، فنفر الشريف من هذا التصرف وأضطر الاتحاديون أن يأمروا الوالي الجديد بمسايرة الشريف(٣) ، حتى لا يخرج

عن اطار نفوذ الدولة وكان الهدوء الشامل يسود الحجاز في هذه الفترة كما كان سلطان الخليفة مستقراً ، وذلك بسبب وجود الخط الحديدي الذي ربط الحجاز

---

١ ـ كارل بروكلمان ، تاريخ الشعوب الاسلامية ، ص ٧٤٣ ٠

٢ ـ كارل بروكلمان ، تاريخ الشعوب الاسلامية ، ص ٧٤١ ٠

٣ ـ محمد بديع شريف واخرون ، النهضة العربية الحديثة ، ص ١٠١ ٠

بالعاصمة ربطاً مباشراً ، إلى جانب أن هذا الشريان أي الخط كان يسير في أكثر جهات الجزيرة العربية أمناً وارتباطاً بالدولة العثمانية على ضوء ما قدمنا من تفاصيل سابقة ٠

وقبل قيام الحرب العالمية الأولى تطورت الأوضاع في الجزيرة العربية ، ففي عسير رفض الادريسي الخضوع للسيطرة العثمانية سنة ١٩٠٩ م ، وفي منطقة اليمن

استأنف الامام الزيدي مقاومته للسلطة العثمانية ، مما اضطر الدولة الى توقيع معاهدة صلح في اكتوبر سنة ١٩١١ م مع الامام ، وفي شرق الجزيرة استولى السلطان عبد العزيز على مقاطعة الاحساء في سنة ١٩١٣ م(١) ، مما زاد من قيمة خط سكة حديد الحجاز حينئذ من حيث إنه الشريان الذي كان ما يزال ينبض بوجود الدولة في الأماكن المقدسة الإسلامية ٠

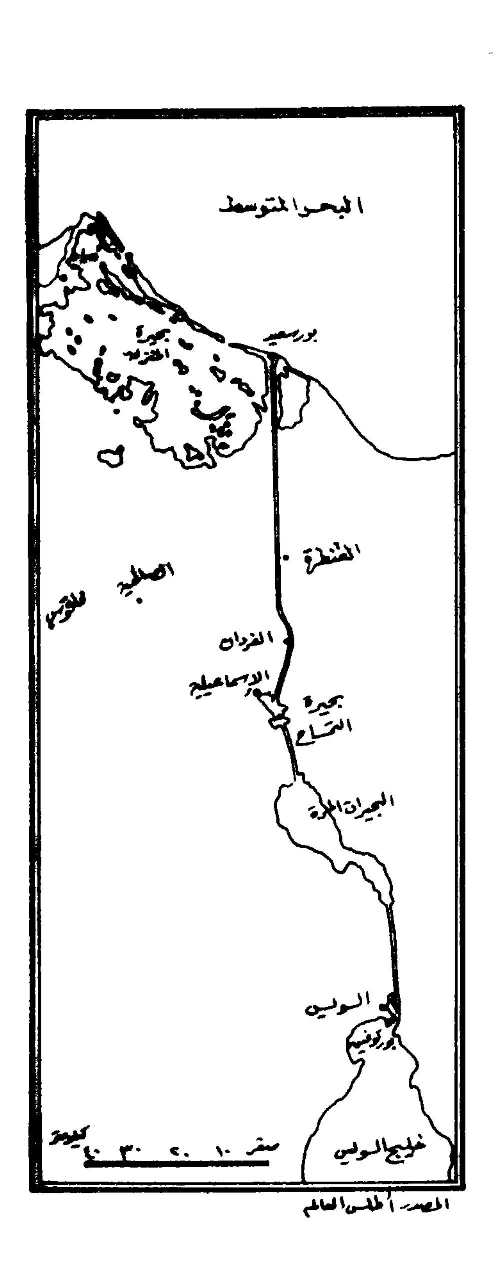
وليس من همنا في كتابنا هذا أن نتطرق الى التطورات التاريخية التي أعقبت ذلك وأدت الى ضعف هذا الشريان ، ثم ذهاب آثاره بالنسبة للدولة العثمانية ، لأن خطة بحثنا تجعل من افتتاح الخط نهاية مقبولة للبحث ٠

وليس أدل على أهمية خط حديدي في وصل شمال الجزيرة بغربها من انبعاث الفكرة من جديد في أيامنا هذه اذ شكل في الأيام الأخيرة ما سمي باسم لجنة سكة حديد الحجاز لإحياء ذلك الخط ، ومن مهام هذه اللجنة استعراض تاريخ انشاء خط سكة حديد الحجاز أيام الدولة العثمانية ٠٠

١ ـ كارل بروكلمان ، تاريخ الشعوب الاسلامية ، ص ٧٤٢ ـ ٧٤٣ ٠

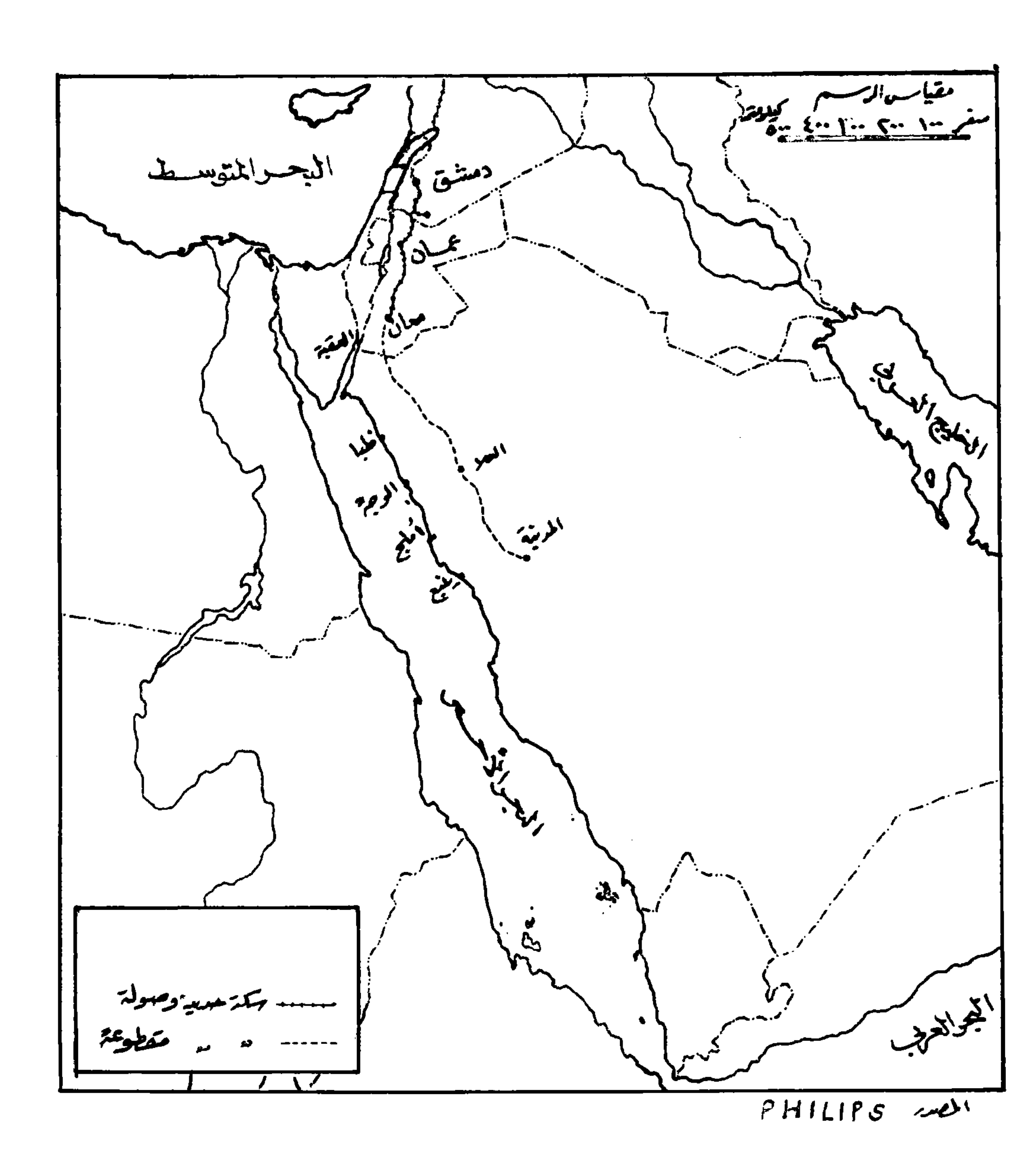
الملاحق





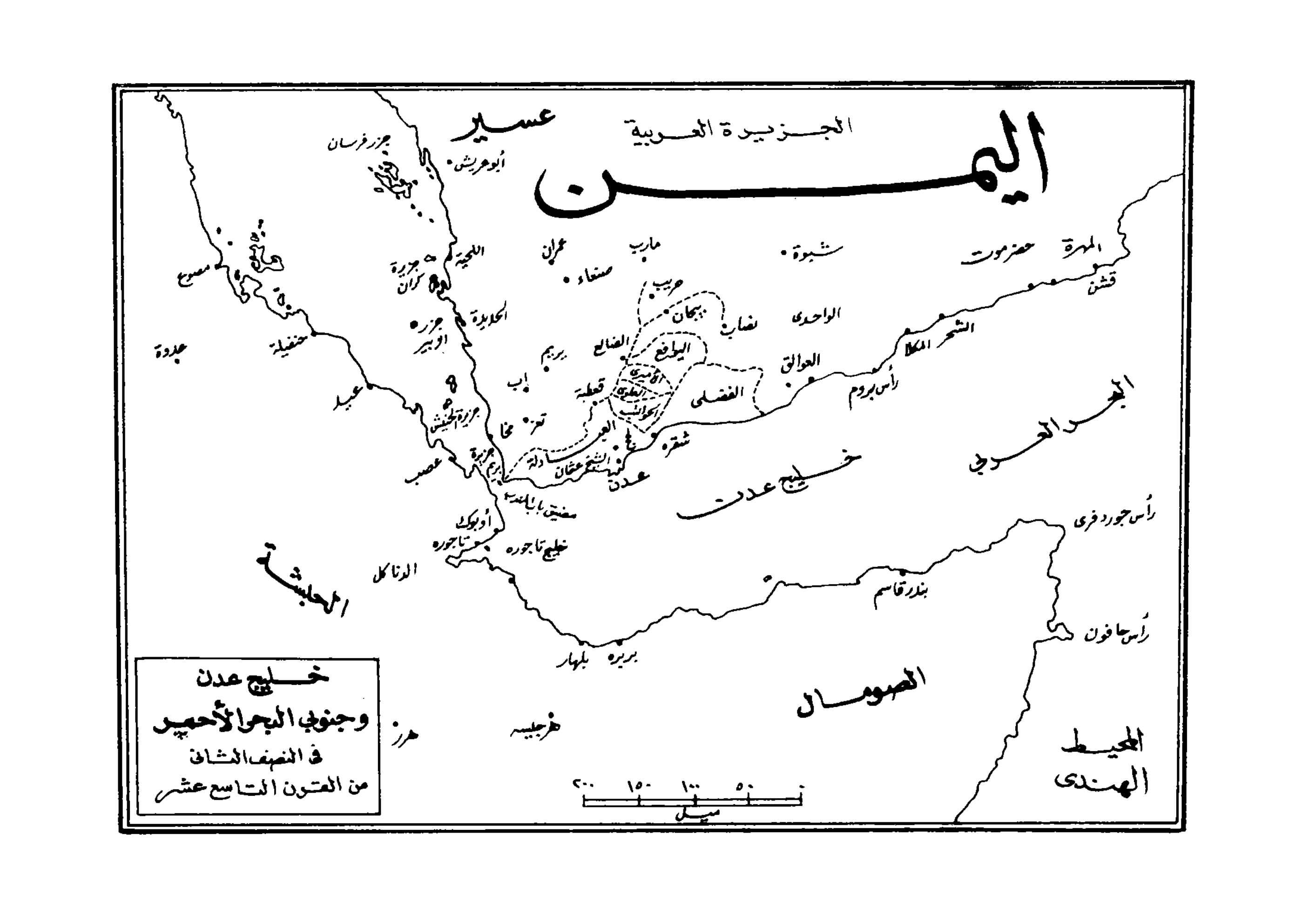
المصدر: أطلس العالم





المصدر PHILIPS





خليج عدن
وجنوبي البحر الأحمر
في النصف الثاني
من القرن التاسع عشر
اليمن
الجزيرة العربية
عسير
البحر العربي
خليج عدن
الصومال
الحبشة
المحيط الهندي
المهرة
حضرموت
قشن
الشحر
المكلا
رأس بروم
العوالق
الواحدي
شبوة
مارب
صنعاء
عمران
بيحان
نصاب
حريب
الضالع
اليوافع
الفضلي
قعطبة
يريم
إب
تعز
مخا
شقرة
عدن
الحديدة
اللحية
أبو عريش
جزر فرسان
جزيرة كمران
عصب
أوبوك
خليج تاجوره
الدناكل
عيد
حنفيلة
مصوع
جدة
بربرة
بلهار
بندر قاسم
رأس جورد فى
رأس حافون
هرر
ميل
٥٠
١٠٠
١٥٠
٢٠٠



Inclosure in No. 5.

MEMORANDUM.

Constantinople, January 24, 1873.

The circumstances connected with Lahej, upon which explanations were asked of the Porte the other day, appear, from wh: t can be ascertained from trustworthy sources, but not communicated ber y Her Majesty ty's Government, to the be as follows :

Lahej, which is within 15 miles of the garrison outposts of Aden, is the chief town of the low country, and commands the country from which Aden draws its supplies of grain, foage, fuel, water, & c.

(Its Chief, or Sultan, as he calls himself, is a stipendiary of the British Government, revceiing a monthly salary for the servifes of his people in feeding Aden and keeping the roads open, and has never been subject to the authority of the Paorte).

(Some months ago the Mushir established at Sana, not less than 150 miles off, took upon himself to summon this Chief, the stipendiary of the British Government, to attend his camp and submit himself formally to the Turkish Government, and to prepare camels, & c., for a sdescent into the low country of Lahej, commonly called El Hantasn.

The Chief replied that he was the servant and stipendiary of the British Government, but no notice was taken of this answer by the Pasha).

It is certain that for generations the Porte has not exercised or pretended to a shadow of authority over the district in question, and the unwarranted attempt of the Pasha to reduce it to subjection could not be seen with indifference by Her Majesty's Government.

ملحق رقم / ٥
مذكـــرة

استانبول ـ ٢٤ يناير ١٨٧٣ م

بخصوص الأحداث التي تتصل بلحج والتي من خلالها أمكن وضع التفسيرات التي يمكن أن تفسر تساؤل الباب العالى في اليوم التالى • ولقد بدا واضحاً بالتجربة ومن مصادر جديرة بالثقة والاعتماد ودون أدنى علاقة لحكومة جلالتها أن هذه الأحداث هي كالتالى :

- ان لحج التى تقع داخل خمسة عشر ميلاً من نطاق نقط الحدود العسكرية لعدن هي المدينة الرئيسية التي تسيطر على البلد كلها ومنها تأخذ عدن جميع امداداتها من الحبوب والعلف والوقود والماء وغير ذلك •

- إن رئيسها (أو سلطانها كما يسمي نفسه) يتقاضى راتباً شهرياً من الحكومة البريطانية نظير قيامه هو وشعبه بامداد عدن بالمؤن وجعل الطرق مفتوحة للسير فيها وهو لم يكن أبداً تحت سلطة الباب العالي •

ـ منذ عدة شهور مضت ترأس المشير حكم مدينة صنعاء التي تبعد ما لا يقل عن ١٥٠ ميلاً وأخذ على عاتقه دعوة سلطان لحج (الذي يتقاضى راتباً شهرياً من الحكومة البريطانية) ليحضر الى معسكره لكي يرسل رسمياً الى الحكومة التركية ثم بعد ذلك أعد الجمال ليهجم على بلد يقع أسفل لحج يسمى هنتاش •

ـ لقد قال سلطان لحج لحاكم صنعاء انه خادم للحكومة البريطانية التي يتقاضى منها راتباً ، لكن لم يكن هناك أي تعليق أو اجابة أو اهتمام من الباشا حاكم صنعاء • ولكي يكون واضحاً أمام الأجيال ، أن الباب العالي لم يكن له أي ظل للسلطة على أية مقاطعة كما لا يوجد أي مبرر لمحاولة الباشا تقليلها واخضاعها (المقصود هنا محاولة الباشا السيطرة على المقاطعات التي تحيط بعدن) وهذه المسألة يمكن أن تراها حكومة جلالتها بنظرة مختلفة •

Inclosure 2 in No. 27.

Brigadier — General Scheneider to Mr. Gonne.

(Extract.) Aden, August 21, 1873.

I have the hounour to forward translation of a letter addressed to thesultan of Lahej by Ahmed Ayoob Pasha' the recently appointed Governor-General of Yemen' the original of which Ipropose to send to the Secretary of State for India to show that the Pasha hase conveyed a covert threat to the Sultan notwithstanding the assurances that have been given by the Paorte to the Bri- tish Government,

I have thought it advisable to address the following sommuication to Ahmed Ayoob Pasha, so that he may know the Resident is acnuainted with the the orders and instructions he has received from the Ottoman Government

"We have to bring to your Excellency's notice that the detachmnte of Turkish regular and irregular troops sent by your predecessor, Ahmed Mookhtar Pasha' to Shuka' in the Howshebee country' have not yet been withdrawn.

"We received an intimation a short time since from the Graet Government that your Excellency had been sent from Constant inople with instructi ns from the Sublime Porte to remove the above-mentioned trops from the Howshebee country,

"We trust your Excellency will promtly act in conformity with the orders you have received in respect of the matter we now bring to your notice, and so cause affairs to revert to their nosmal condition by abstention from interference with chiefs and t'ibes arovund Aden with with whom the British Government has Treaties, or who are its stipendiaries."

"We learn with regret that the Ameer Ali-bin-Mookhil, a stipendiary of the British Government, is still a prisoner at large".

Copy of this letter will be forwarded to the Secretary of State for India.

ملحق ٢ لرقم ٢٧
اللواء شنايدر الى السيد جون

عدن ـ ٢١ أغسطس ١٨٧٣م

يشرفني أن أرسل لكم ترجمة الخطاب الذي أرسله أحمد أيوب باشا الحاكم الجديد لليمن الى سلطان لحج. أما بالنسبة لأصل الخطاب فسوف أرسله الى وزارة الخارجية في الهند لكي أظهر لهم أن الباشا قد بلغ تحذيراً سرياً للسلطان، لا يتفق مع التأكيدات التي أعطيت بواسطة الباب العالي الى الحكومة البريطانية.

لذلك فأنا أنصح بارسال الملاحظات التالية الى أحمد أيوب باشا لكي يعلم أن الحاكم (حاكم عدن) مطلع على الأوامر والتعليمات التي تسلمها من حكومة الباب العالي.

● اننا نضع أمام فخامتكم أن القوات العسكرية التركية النظامية وغير النظامية والتي سبق أن أرسلها سلفكم أحمد مختار باشا الى شوكا في اقليم الحوشبي لم تنسحب الى الآن.

● لقد أبلغنا منذ فترة الحكومة العلية قد زودت فخامتكم بتعليمات الباب العالى في استانبول لسحب القوات التي سبق ذكرها أعلاه من اقليم الحوشبي

نحن على ثقة بأن فخامتكم سوف تلتزمون بشكل دقيق بتنفيذ الأوامر التي استلمتموها بهذا الخصوص والخاصة بالمسألة التي نوجه انتباهكم نحوها حيث ان ذلك سيعيد الأمور الى وضعها الطبيعي بالاقتناع عن التدخل مع المشايخ والقبائل المحيطة بعدن والتي ترتبط بمعاهدات مع الحكومة البريطانية أو أولئك الذين هم تحت حمايتها..

ولقد علمنا مع الأسف بأن الأمير على بن مقبل والمحمي من الحكومة البريطانية لا يزال سجينا في لحج وأن نسخة من الرسالة سوف ترسل الى وزير شؤون الهند.

No. 55.

Sir Henry Elliot to Earl Granville- Received December 12 .

My Lord, Therapia, November 30, 1873.

The divergence upon your Lordship remarks in your telegram of the 29th instant between the terms of telegraphic instructions to the the Governor-General of the Yemen, and the previous promises of the Porte to abstain from aggression against all the Arab tribes near Aden which have treaties with Great Britain, had not escaped my attention.

My despatch of the 21st instant, which having been forwarded by post on the 22nd must be on the point of reaching your Lordship's hands, contains a report of the conversation I had had on the subjec with Raschid Pasha who assured me that the late instructions are to be understoo as applying to the country of all tribes in question.

(Signed) HENRY ELLIOT.

I have, & c.

رقم / ٥٥
من سير هنري اليوت الى ايرل جرانفيل
تسلمت بتاريخ ١٢ ديسمبر

ثورا بيا ـ ٣٠ نوفمبر ١٨٧٣ م

سيدي اللورد ،

الاختلاف (الانحراف) الذي أوضحته فخامتكم في برقيتكم المؤرخة بتاريخ ٢٩ الحالى بين التعليمات البرقية للحاكم العام في اليمن وبين الوعود السابقة من قبل الباب العالى بالامتناع عن القيام بأي عمل عدائي ضد كل المقاطعات العربية القريبة من عدن والتى تربطها معاهدات مع بريطانيا العظمى لم تغيب عن نظري ٠

رسالتي المؤرخة بتاريخ ٢١ الحالى والتي أرسلت لكم بالبريد في ٢٢ الحالى أرجو أن تكون بين أيديكم تحتوي على تقرير عن المحادثة التي أجريتها بخصوص هذا الموضوع مع رشيد باشا الذي أكد لي أن التعليمات الأخيرة تتضمن تطبيقها على كل أجزاء المقاطعات التي شملها التساؤل من جانبكم ٠

هنري اليوت

فهرس المصادر والمراجع

الوثائق Documents

سجلات البرلمان البريطانى ، Parliametary Papers :

Correspondence Respecting Turkish Proceedings in the Neighbourhood of Aden. Presented to both Housses of Parliament of Her Majesty;s 1872.

موجودة في Public recod في لندن ومسجلة تحت رقم
H. C. 1 : 3752 X/P 0983

تضم هذه المجموعة من الوثائق فحوى المراسلات المتبادلة بين الحكومتين فضلاً عن المراسلات المتبادلة بين الحكومة العثمانية ووالي اليمن العثماني من جهة ، والمراسلات المتبادلة بين الحكومة البريطانية وحكومة الهند وحكومة بومبي والمقيم السامي البريطاني في عدن من جهة أخرى . بل انها ضمت كذلك المراسلات المتبادلة بين الوالى العثماني وحكام امارات جنوب اليمن وبين هؤلاء والمقيم السياسى البريطانى في عدن ومن خلال هذه الوثائق يمكن تتبع بداية ظهور النزاع العثمانى البريطانى في جنوب اليمن والاتصالات التى جرت لتلافى وقوع صدام بين الجانبين ، وذلك عند عودة العثمانيين الى اليمن سنة ١٨٧٢ .

Suez Canal traffic. August 1872 (conterued).
موجودة في Public recod office . تحت رقم ،
F.O. 195/1000 B.

توضح القائمة بحركة السفن في قناة السويس خلال عام كامل من أغسطس ١٨٧١م وحتى السنة التالية من نفس الشهر ، كما تبين القائمة حمولة السفن وجهة الوصول وجهة القدوم بالاضافة الى جنسيتها .

المصادر والمراجع العربية

٣ ـ أبو جعفر محمد بن جرير الطبرى (ت ٣١٠ و / ٩٢٢ م) ٠
تاريخ الرسل والملوك ، ١٠ أجزاء ، القاهرة ، دار المعارف ، الطبعة الثانية ١٩٧١

٤ ـ أبو العباس أحمد بن على القلقشندى ٠ (ت ٨٢١ و / ١٤١٨ م) ٠
صبح الأعشى في صناعة الانشاء ، ١٤ جزء ، وزارة الثقافة والارشاد القومى ـ والمؤسسة المصرية العامة للتأليف والترجمة والطباعة والنشر ٠

٥ ـ أبو محمد الحسن بن أحمد يعقوب الهمدانى ٠
صفة جزيرة العرب ، تحقيق محمد بن عبد الله بن بليهب النجدى ، القاهرة مطبعة السعادة ، ١٩٥٣ ٠

٦ ـ د ٠ اجيه يونان جرجس ٠
البحر الأحمر ومضايقه بين الحق العربى والصراع العالمى ، القاهرة مكتبة غريب ٠ تتحدث المؤلفة عن أهمية البحر الأحمر خلال العصور التاريخية ، ثم التنافس الدولى للسيطرة على مداخل البحر الأحمر ٠

٧ ـ د ٠ أحمد ابراهيم الشريف ٠
دور الحجاز في الحياة السياسية العامة ، القاهرة ، دار الفكر العربى الطبعة الثانية ١٩٧٧ ٠
٤ أبواب ، في الباب الأول ، والفصل الأول ، يتحدث عن أهمية الحجاز في القرون الأولى ، ثم يعرف الحجاز جغرافياً ٠

٨ ـ أحمد حسين شرف الدين ٠
اليمن عبر التاريخ ، القاهرة ، مطبعة السنة المحمدية ، الطبعة الثانية ١٩٦٤ ٠
يتحدث الكتاب عن اليمن منذ القرن الرابع عشر قبل الميلاد ، الى القرن العشرين ، دراسة جغرافية ، تاريخية سياسية ٠

٩ ـ أحمد رشدى صالح ٠
قناة السويس ، القاهرة ، لجنة نشر الثقافة العامة ٠

ـ يتحدث في البداية عن الأطماع الفرنسية الانجليزية في مصر ، ثم عن أهمية قناة السويس العالمية ، وعلى الأخص أهميتها بالنسبة لانجلترا ٠

١٠ - أحمد زيني دحلان ·
خلاصة الكلام في بيان أمراء البلد الحرام، القاهرة ، المطبعة الخيرية ، الطبعة الأولى ، ١٣٠٥ هـ ·
اشتمل الكتاب على ذكر حروب الشريف غالب مع السعوديين ، وذكر بعض أحوال السلاطين مثل سليم الأول وحروبه مع السلطان الغوري ، والسلطان عبد العزيز - كما ذكر من تولى ولاية الحجاز ·

١١ - أحمد السباعي ·
تاريخ مكة، جزآن ، مكة المكرمة مطابع دار قريش ، الطبعة الثانية ، ١٣٨٢ هـ ·
الجزء الثاني ، تاريخ مكة في عهد العثمانيين ، وعلاقة مكة بالدولة العثمانية ، في عهدها الأول والثاني ·

١٢ - أحمد شفيق باشا ·
مذكراتي في نصف قرن ، جزآن ، القاهرة ، مطبعة مصر ، الطبعة الأولى ، ١٩٣٦ ·
يتحدث في الجزء الثاني عن عباس حلمي الثاني ، كما تحدث في القسم الثاني من نفس الجزء عن مسألة طابا ·

١٣ - د · أحمد فخري ·
اليمن ماضيها وحاضرها ، القاهرة ، مطبوعات معهد الدراسات العربية العالمية ١٩٥٧ ·
محاضرات القاها المؤلف على طلبة قسم الدراسات الجغرافية والتاريخية ، ففي القسم الرابع مختصر لدول اليمن ، ومطامع الاستعمار على اليمن ، وحالة اليمن في القرن التاسع عشر ، وعودة الحكم العثماني الى اليمن ·

١٤ - اسماعيل سرهنك ·
حقائق الأخبار عن دول البحار ، جزآن (والثالث غير كامل) ، القاهرة ، المطبعة الأميرية ببولاق ، الطبعة الأولى ، ١٣١٢ هـ · ابتدأ بذكر الملاحة في الأزمنة القديمة ، حتى وصل لتاريخ الدولة العثمانية ، وبدأ من تأسيسها ، وتحدث عن السلطان عبد العزيز ، ثم السلطان عبد الحميد ، وأخيراً كتب عن الادارة البحرية ·

١٥ - أمين الريحاني ·

تاريخ نجد وملحقاته ، بيروت ، دار الريحانى ، الطبعة الرابعة ، ١٩٧٠ ٠
النبذة الثالثة آل سعود منذ نشأتهم الى حين استيلاء محمد بن الرشيد على نجد ، ثم كتب سيرة الملك عبد العزيز ٠

١٦ ـ ملوك العرب ، جزآن ، بيروت ، طبع في مطابع صادر ريحانى ، ١٩٥١ ٠
يشتمل على مقدمة ، وثمانية أقسام ، القسم الأول عن الحجاز في عهد الشريف حسين والثانى عن اليمن ، والرابع عن لحج والنواحى التسع المحمية ، والخامس عن سلطنة نجد وملحقاتها ٠

١٧ ـ أمين سعيد ٠
تاريخ الدولة السعودية ، ٣ مجلدات بيروت ، ودار الكاتب العربى ، ١٩٦٤ م
يبدأ المجلد الأول بالكتابة عن الدولة السعودية من عهد محمد بن سعود ١١٥٨ هـ وحتى عهد عبد الرحمن الفيصل ١٣٠٧ هـ ٠

١٨ ـ اليمن تاريخه السياسي منذ استقلاله في القرن الثالث الهجرى ، القاهرة دار احياء الكتب العربية ، ١٩٥٩ ٠
تحدث في البداية عن الاحتلال الانجليزى لعدن ، ثم انتقل الى اتفاقية وعان بين الأمام يحيى والدولة العثمانية ٠

١٩ ـ باسيل دقاق ٠
تركيا بين جبارين ، القاهرة ، منشورات دار المكشوف ٠
يتحدث الكتاب عن موقف تركيا في الحربين العالميتين الأولى والثانية ٠

٢٠ ـ بطرس بطرس غالى ، ويوسف شلالة ٠
قناة السويس ومشكلاتها ١٨٥٤ ـ ١٩٥٧ ، جزآن ، الاسكندرية ، مطابع البصير
تحدثنا في الجزء الثانى عن الاتفاقية الخاصة بحرية استعمال قناة السويس والوثائق الدولية الخاصة بها ٠

٢١ ـ توفيق على برو ٠
العرب والترك في العهد الدستوري (١٩٠٨ ـ ١٩١٤) ، القاهرة ، رسالة من مطبوعات معهد الدراسات العربية العالمية ١٩٦٩ ٠
تحدث عن العلاقة بين العرب والترك قبيل الانقلاب الدستورى ، وحتى دخول الدولة العثمانية الحرب العالمية الأولى ٠

٢٢ ـ جاد طه ٠
سياسة بريطانيا في الجنوب العربى ، القاهرة ، دار الفكر العربى ١٩٧٠ ٠

بدأ بالمنافسة الدولية في جنوبي الجزيرة العربية (١٧٩٨ ـ ١٨٣٦) ومقدمات الاستيلاء البريطانى على عدن ، وفي الفصل السابع كان الحديث عن النزاع العثمانى البريطانى في الجنوب اليمني ، وأخيراً اسلوب الحكم البريطانى في الجنوب اليمني ٠

٢٣ ـ جرجى زيدان ٠
العرب قبل الاسلام ، مراجعة حسين مؤنس ، القاهرة ، دار الهلال ٠
يبحث المؤلف في أصل العرب وتاريخهم ودولهم وتمدنهم في أقدم أزمانهم الى ظهور الاسلام ٠

٢٤ ـ د ، جمال الدين الشيال ٠
قصة الاحتلال ، الاسكندرية ، مطبعة جامعة الاسكندرية ، ١٩٥٦ ٠
كتاب أصدر بمناسبة أحد الأعياد الوطنية في مصر ، ويتحدث عن قصة الاحتلال الانجليزى ٠

٢٥ ـ حافظ وهبة ٠
جزيرة العرب في القرن العشرين ، القاهرة ، مطبعة لجنة التأليف ، الطبعة الخامسة ، ١٩٦٧ ٠
يتحدث الكتاب عن طبيعة جزيرة العرب وحالتها الاجتماعية ، ودعوة الوهابيين وتاريخهم ، وآل سعود وتاريخهم ٠

٢' ـ د ٠ حسن أحمد محمود ، د ٠ محمد أنيس ، د ٠ رجب حراز ٠
مصر في العصور الوسطى والحديثة ، القاهرة ، دار النهضة العربية ٠
٤ فصول ، الفصل الثالث ، الاحتلال البريطانى لمصر ، الفصل الرابع ، الوضع في مصر بعد الاحتلال ٠

٢ ـ الحسن بن عبد الله الأصفهانى ٠
بلاد العرب ، تحقيق حمد الجاسر ، ود ٠ صالح العلي ، الرياض ، منشورات دار اليمامة للبحث والترجمة والنشر ، ١٩٦٨ ٠
في بداية الكتاب بحث منشور ، كان قد ألقى في مجمع اللغة العربية في القاهرة في دورة ٣٣ في ٢٤ شوال ١٣٨٦ هـ الموافق ٤ / ٢ / ١٩٦٧ م٠

' ـ حسين أحمد العرشي ٠
بلوغ المرام في شرح مسك الختام ، القاهرة ، مطبعة البرتيرى ، ١٩٣٩ ٠
ختم المؤلف حوادثه سنة ١٣١٨ هـ / ١٩٠٠ ، عنى بنشره الأب انستاس الكرملي

من أعضاء مجمع فؤاد الأول ، فأوصل حوادثه الى آخر ربيع الأول سنة ١٩٥٨ / مايو ١٩٣٩ ·

٢٩ ـ حسين فوزى النجار ·
بريطانيا والجنوب العربى ، القاهرة ، دار الكاتب العربى ·
المقدمة كانت عن أهمية الجنوب العربى بوجه عام ، ثم تحدث عن الاحتلال البريطانى لعدن ، وذكر معاهدات الحماية على مشايخ المناطق المجاورة لعدن ، وأطوار تلك المعاهدات ·

٣٠ ـ السياسة والاستراتيجية في الشرق الأوسط ، القاهرة ، مكتبة النهضة الطبعة الأولى ١٩٥٣ ·
الفصل السابع ، تحدث المؤلف عن الاحتلال البريطانى لمصر ، وفي الفصل الثامن تحدث عن قناة السويس والمسألة المصرية ·

٣١ ـ خليل مردم بك ·
أعيان القرن الثالث عشر في الفكر والسياسة والاجتماع ، تقديم عدنان مردم بك ، بيروت لجنة التراث العربى ·
ترجم المؤلف لبعض سلاطين الدولة العثمانية ، مثل السلطان عبد العزيز ، كما ترجم لبعض أشراف مكة ·

٣٢ ـ خير الدين الزركلي ·
شبه الجزيرة في عهد الملك عبد العزيز ، ٤ أجزاء ، بيروت ، دار القلم ، الطبعة الأولى ، ١٩٧٠ ·
تحدث في الجزء الأول عن فتح الرياض ، وحروب السلطان عبد العزيز مع ابن الرشيد ، وعلاقة الدولة العثمانية معه ·

٣٣ ـ لجنة الدراسات الثقافية ·
قناة السويس ماضيها وحاضرها ، القاهرة ، مطبعة التحرير ، ١٩٥٥ ·
تحدث الكتاب عن القناة في السياسة الدولية ، كما شرح أحكام اتفاقية القسطنطينية سنة ١٨٨٨ ·

٣٤ ـ ساطع الحصرى ·
البلاد العربية والدولة العثمانية ، بيروت ، دار العلم للملايين ، الطبعة الثالثة ١٩٦٥ ·
في البداية تحدث عن تأسيس الدولة العثمانية ، ونظام الادارة فيها ، ثم انتقل

بالحديث عن البلاد العربية تحت الحكم العثمانى ، وموقف البلاد العربية من الدولة العثمانية ٠

٣٥ ـ يوم ميسلون ، بيرست ، دار الاتحاد ٠
بدأ الحديث عن أهمية يوم ميسلون ، والكتاب في قسمين ، القسم الأول تحدث عن أطماع فرنسا في سورية ٠

٣٦ ـ د ٠ السيد رجب حراز ٠
الدولة العثمانية وشبه جزيرة العرب (١٨٤٠ ـ ١٩٠٩) القاهرة ، معهد البحوث والدراسات العربية سنة ١٩٧٠ ٠
تحدث في الفصل الثالث عن العثمانيين في اليمن ، ثم انتقل الى العثمانيين في الحجاز ، وتقوية نفوذ الدولة على اقليم الحجاز ٠

٣٧ ـ المدخل الى تاريخ مصر الحديث من الفتح العثمانى الى الاحتلال البريطانى (١٥١٧ ـ ١٨٨٢) ، القاهرة ، دار النهضة العربية ١٩٧٠ ٠
الباب السادس ، يتحدث عن مصر في الفترة من ١٨٦٣ ـ ١٨٨٢ ٠

٣٨ ـ د ٠ سيد نوفل ٠
الخليج العربى أو الحدود الشرقية للوطن العربى ، القاهرة ، دار الفكر العربى ، الطبعة الأولى ، ١٩٦٨ م ٠
يتحدث المؤلف عن أوضاع الخليج العربى في العصور الحديثة ٠

٣٩ ـ شرف بن عبد المحسن البركاتى ٠
الرحلة اليمنية ، بيروت ، المكتب الاسلامى ، الطبعة الثانية ، ١٣٨٤ هـ ٠
ترجم في بدايته للشريف حسين بن على ، وجعل الفصل الرابع عن كيفية ادارة منطقة عسير من قبل الدولة العثمانية ، وفي الفصل الخامس تحدث عن ولاية الحجاز والحالة التى كانت عليها ٠

٤٠ ـ د ٠ شوقى عطا الله الجمل ٠
الوثائق التاريخية لسياسة مصر في البحر الأحمر ، (١٨٦٣ ـ ١٨٧٩) ، القاهرة ، مطبعة لجنة البيان العربى ، ١٩٥٩ م ٠
الكتاب في خمسة أقسام ، والقسم الأخير ورد فيه ذكر الوثائق الخاصة بعلاقة مصر بالبلاد العربية المطلة على سواحل البحر الأحمر الشرقية ، مثل علاقة مصر بالحجاز ، وعسير ، واليمن ، كما ترجم المؤلف لشخصيات هامة ورد ذكرها في الوثائق ٠

٤١ ـ البحر الأحمر في سياسة مصر واستراتيجيتها في النصف الثاني من القرن ١٩ ٠
بحث ألقى في جامعة عين شمس ، كلية الآداب ، ١٩٧٩ ، تحدث عن اهتمام مصر بتيسير ربط البحر المتوسط والأحمر ، وبسط الادارة المصرية على موانيء البحر الأحمر بسواكن ، ومصوع ، وبربرة ، ثم الاصلاحات التى قامت بها الادارة المصرية في تلك الجهات ٠

٤٢ ـ صلاح الدين الشامي ٠
الموانيء السودانية ، تسعة فصول ، القاهرة ، مكتبة مصر ، ١٩٦١ ٠

٤٣ ـ صلاح الدين المختار ٠
تاريخ المملكة العربية السعودية ، بيروت ، دار مكتبة الحياة ، الطبعة الأولى ١٩٥٧ ٠
تحدث في الفصل السادس عن ظهور الامام عبد الرحمن الفيصل ، واحتلال ابن الرشيد للرياض ، حتى أوصل أحداثه الى العهد السعودى في عهد الملك عبد العزيز ٠

٤٤ ـ صلاح العقاد ٠
التيارات السياسية في الخليج العربى ، القاهرة ، مكتبة الانجلو المصرية ، ١٩٦٥ ٠
ابتدأ بالغزو البرتغالى لمناطق الخليج ، وتدرج بعد ذلك وذكر النزاع البريطانى العثمانى في قطر والبحرين ٠ ثم انتقل الى مسألة الكويت واحياء الدولة السعودية ومشروع الاتفاق العثمانى البريطانى سنة ١٩١٣ ٠

٤٥ ـ عبد الرؤوف أحمد عمرو ٠
قناة السويس في العلاقات الدولية ، القاهرة ، الهيئة المصرية العامة للكتاب ، ١٩٧٨ ٠
يتكون الكتاب من ١٠ فصول ، يتحدث في الفصل الأول عن قناة السويس في السياسة الدولية (١٨٦٥ ـ ١٨٨١) ، والفصل التاسع ، الخطة الاستراتيجية البريطانية لاحتلال القناة ، الفصل العاشر يتحدث عن قناة السويس عقب الاحتلال البريطانى ٠

٤٦ ـ عبد الرحمن الرافعى ٠
عصر اسماعيل جزآن ، القاهرة ، مطبعة النهضة ، ١٩٣٢ ٠
الجزء الأول كانت البداية لعباس ، ثم انتقل الى عهد الخديوى اسماعيل فذكر سياسته ٠

٤٧ ـ د · عبد العزيز زفاعى ·
قضية الجلاء عن مصر بين سنتى ١٨٨٢ ـ ١٩٠٧ ، القاهرة ، دار القلم ١٩٦١ ·
يشكل الكتاب صورة تاريخية مبسطة مستقلة من الوثائق والمصادر التاريخية الهامة عن الاحتلال وقضية الجلاء في الفترة من ١٨٨٢ ـ ١٩٠٧ وما قامت من أجلهما من محاولات في الداخل والخارج انتهت باستقرار الاحتلال ، وتحقيق المركز الممتاز لبريطانيا في مصر ·

٤٨ ـ عبد العزيز الشناوى وجلال يحيى ·
وثائق ونصوص التاريخ الحديث والمعاصر ، القاهرة ، دار المعارف ١٩٦٩ ·
صنف الكتاب الى ست مجموعات ، فالمجموعة الثالثة ، تضم وثائق مصر في القرن التاسع عشر والمجموعة الرابعة الوثائق الخاصة بتاريخ قناة السويس ·

٤٩ ـ عبد الله بن الحسين ·
مذكراتى ، القدس ، مطبعة بيت المقدس ، الطبعة الأولى ، ١٩٤٥ ·
تحدث في الفصل الأول عن نشأته في مكة ، ثم الاقامة في استانبول مع الشريف حسين بن على والعودة منها ، والفصل الثانى تحدث عن الادارة العثمانية ·

٥٠ ـ عثمان بن بشر سنة ١٢٨٨ ·
عنوان المجد في تاريخ نجد ، جزآن ، الرياض ، مطابع القصيم ، الطبعة الثالثة ، ١٣٨٥ هـ ·
يكتب المؤلف على طريقة الحوليات بدأ الجزء الأول للأحداث التى تعرضت لها المنطقة من سنة ٩٨٩ وحتى سنة ١٢٣٦ ، ووصل في الجزء الثانى الى سنة ١٢٦٧

٥١ ـ على حافظ ·
فصول من تاريخ المدينة المنورة ، جدة، شركة المدينة المنورة للطباعة والنشر ·
تحدث في الفصل الأول عن تاريخ المدينة المنورة من عهد الرسول صلى الله عليه وسلم حتى العهد السعودى وذكر مباني العهد العثمانى ·

٥٢ ـ على يوسف ·
بيان في خطة المؤيد تجاه الدولة العثمانية ، القاهرة ، حررت في ١٤ جمادى الثانية سنة ١٣٢٧ ، ٢ يوليو سنة ١٩٠٩ م ·
كتيب يوضح فيه خطة المؤيد ازاء الدولة العثمانية وموقف الصحيفة تجاه عزت باشا العابد ·

٥٣ ـ عمر السكندرى ، وسليم حسن ٠
تاريخ مصر من الفتح العثمانى ، مراجعة الكابتن ا ٠ ج ٠ سفدج ، القاهرة مطبعة المعارف ، ١٩١٦ ٠
الفصل الثانى بعنوان قناة السويس ، فتحدث عن الامتيازات الممنوحة للشركة الفرنسية والاصلاحات العثمانية في مصر ٠
٥٤ ـ د ٠ فاروق عثمان أباظة ٠
الحكم العثمانى في اليمن ١٨٧٢ ـ ١٩١٨م، القاهرة ، الهيئة المصرية العامة للكتاب ، ١٩٧٥ ٠
ستة فصول ، الفصل الأول ، علاقة العثمانيين ببلاد اليمن قبل سنة ١٨٧٢ ، والفصل الرابع ، السياسة العثمانية في مطلع العهد الدستورى ١٩٠٨ ـ ١٩١١ ٠
٥٥ ـ عدن والسياسة البريطانية في البحر الأحمر ١٨٣٩ ـ ١٩١٨ ، القاهرة الهيئة المصرية العامة للكتاب ، ١٩٧٦ ٠
يتناول الكتاب بالدراسة والتحليل أثر وجود البريطانيين في عدن على سياستهم في منطقة البحر الأحمر منذ احتلالهم في سنة ١٨٣٩ وحتى نهاية الحرب العالمية الأولى في سنة ١٩١٨ ، ويلقى الكتاب ضوءاً على التوسع الاستعمارى البريطانى في منطقة البحر الأحمر انطلاقاً من عدن ٠
٥٦ ـ د ٠ فائق بكر صواف ٠
العلاقات بين الدولة العثمانية واقليم الحجاز ، في الفترة ما بين ١٢٩٣ ـ ١٣٣٤ هـ / ١٨٧٦ ـ ١٩١٦ م ، القاهرة ، مطبعة سجل العرب ، ١٩٧٨ م ٠
الفصل الثالث ، امتيازات ولاية الحجاز ، تلا ذلك اعادة الدولة العثمانية سيادتها على الحجاز ، كما تحدث عن سكة حديد الحجاز ٠
٥٧ ـ قدرى قلعجى ٠
الخليج العربى ، ثمانية أجزاء في مجلد واحد ، بيروت ، دار الكاتب العربى ١٩٦٥ م ٠
الجزء السادس ، الخليج العربى في دوامة الاستعمار العالمى ٠
٥٨ ـ د ٠ محمد بديع شريف ، د ٠ أحمد عزت عبد الكريم ، د ٠ زكى المحاسنى ٠ دراسات تاريخية في النهضة العربية الحديثة ، مراجعة محمد شفيق غربال القاهرة ، نشرة جامعة الدول العربية ، الادارة الثقافية ٠
٥٩ ـ محمد جميل بيهم ٠

فلسفة التاريخ العثمانى ، بيروت ، فرج الله للمطبوعات ، ١٩٥٤ ٠
تحدث في الفصل الرابع عن القوى الحربية للدولة العثمانية ، وانتقل في الخامس للحديث عن الاصلاح العسكرى ، وفي الفصل السادس عن الدولة العثمانية في عهد السلطان عبد الحميد ٠

٦٠ ـ محمد حسن عوبلي ٠
اغتيال بريطانيا لعدن والجنوب العربي ، بيروت ، منشورات العصر الحديث ١٩٧١ ٠
البداية كانت مدخلا تاريخيا موجزا عن عدن ، ثم انتقل بالحديث الى استراتيجية عدن ، وسياسة بريطانيا في الجنوب العربي ٠

٦١ ـ محمد الشرقاوي ٠
الاستعمار البريطاني في جنوب اليمن ، القاهرة ، دار القاهرة للطباعة ١٩٥٨ ٠

٦٢ ـ محمد عبد الرحمن برج ٠
دراسة في التاريخ الحديث والمعاصر ٠
تسعة فصول ، بداية الفصل التاسع ، قيام الدولة السعودية الثالثة ٠

٦٣ ـ محمد عبد اللطيف البحراوي ٠
فتح العثمانيين عدن ، القاهرة ، دار التراث ، الطبعة الأولى ١٩٧٩ ٠ مقدمة وسبعة فصول وتحليل ونتائج ، الفصل الخامس ، الأسباب التي حملت العثمانيين على فتح عدن ٠

٦٤ ـ حركة الاصلاح العثماني في عصر السلطان محمود الثاني ١٨٠٨ - ١٨٣٩ م٠
القاهرة ، دار التراث ، الطبعة الأولى ، ١٩٧٨ م ٠
مقدمة وسبعة فصول ٠

٦٥ ـ محمد عبد المنعم السيد الراقد ٠
الغزو العثماني لمصر ، اشراف د٠ أحمد محمد لحته ، القاهرة ، مؤسسة شباب الجامعة ، ١٩٧٢ ٠
سبعة فصول ، الفصل الثاني ، أسباب الغزو العثماني لمصر ، الفصل الرابع ، نتائج الغزو العثماني على بقية الأقاليم العربية ، الفصل الخامس ، نظام الحكم ٠

٦٦ ـ محمد حرب عبد الحميد ٠
مذكرات السلطان عبد الحميد ، القاهرة ، دار الانتصار ، ١٩٧٨ ٠ تقديم

الكتاب عن السلطان عبد الحميد ، ثم يبدأ في عرض مذكرات السلطان ، والتي كتبها من ١ مارس سنة ١٣٣٣ وانتهت الى ٨ نيسان سنة ١٣٣٣ هـ .

٦٧ ـ محمد العقيلي .

تاريخ المخلاف السليماني أو الجنوب العربي في التاريخ ـ جزآن ،
الجزء الأول طبع بمطابع الرياض ١٩٥٨ (١٣٧٨ هـ) .
الجزء الثاني طبع بمطابع دار الكتاب العربي بالقاهرة ، ١٩٦١ (١٣٨٠ هـ) .
الجزء الأول ،

قسمان ، تحدث عن العهد الأول للعثمانيين في اليمن والمخلاف السليماني ، ثم العهد الثاني ، ثم أخيراً المخلاف السليماني والدولة العثمانية في عهدها الثالث .

٦٨ ـ محمد فريد بك المحامي .

تاريخ الدولة العثمانية ، بيروت ، دار الجيل ، ١٩٧٧ .
بدأ من السلطان الغازي عثمان خان الأول ، وانتهى بمعاهدة برلين ١٢٩٥ / ١٨٨٧ .

٦٩ ـ محمد فؤاد شكري .

مصر والسودان ، القاهرة ، دار المعارف ، الطبعة الثانية ، ١٩٥٨ .
الفصل الخامس ، خديوية مصر والسودان (١٨٦٣ ـ ١٨٧٩) ، اضافة الى ذكر المؤلف للفرمانات الممنوحة من قبل الدولة لولاية مصر .

٧٠ ـ محمد كرد علي .

خطط الشام . ستة أجزاء ، بيروت ، دار العلم للملايين ، الطبعة الثانية ١٩٧١
تحدث في الجزء الخامس عن ترعة السويس ، بالاضافة الى سكة حديد الحجاز .

٧١ ـ محمد كمال عبد الحميد .

الاستعمار البريطاني في جنوب الجزيرة العربية ، القاهرة ، مكتبة نهضة مصر ، الطبعة الرابعة .
المقدمة عن ظروف احتلال البريطانيين عدن ، ثم انتقل الى أهداف الاستعمار البريطاني لعدن ، وأخيراً ذكر المعاهدات التي عقدت مع مشايخ المناطق المجاورة لعدن .

٧٢ ـ محمد لبيب البتنوني .

الرحلة الحجازية ، القاهرة ، المطبعة الجمالية ، الطبعة الثانية ، ١٣٢٩ هـ .

تحدث في المقدمة عن أصل الأمة العربية ، ثم انتقل الى صفة جزيرة العرب ، والكتاب في مجمله تفاصيل سفر الخديوي عباس حلمي الثاني الى الحجاز لآداء فريضة الحج ، وتخلل الكتاب ذكر تاريخ مكة ، وآل سعود ، ومحمد على بالحجاز ، وآل سعود وآل الرشيد ، والطرق المؤدية للحرمين ٠

٧٣ ـ محمد مصطفى صفوت ٠

انجلترا وقناة السويس (١٨٥٤ ـ ١٩٥٦) ، القاهرة ، المكتبة التجارية ١٩٥٦ ٠

يوضح في البداية أهمية مصر للتجارة بين الشرق والغرب ، ثم ينتقل الى موقف انجلترا من قناة السويس ثم الاحتلال الانجليزي للقناة

٧٤ ـ محمد يحيى الحداد ٠

تاريخ اليمن السياسي ، ٣ أقسام ، دار الهنا للطباعة ، ١٩٧٦ م ٠

القسم الأول ، تاريخ اليمن قبل الإسلام ، والقسم الثاني ، تاريخ اليمن بعد الإسلام ، كذلك خصص فصل للحكم العثماني الأول ، تلاه عودة العثمانيين الى اليمن ، وذكر الائمة المعاصرين لتلك المدة ٠

٧٥ ـ محمود كامل ٠

اليمن شماله وجنوبه ، تاريخه وعلاقاته الدولية ، قسمان ، بيروت دار بيروت للطباعة والنشر ١٩٦٨ ٠

القسم الأول ، يشمل الحديث عن عصر قبل التاريخ في الجنوب العربي ، والقسم الثاني تحدث عن عهد الخلفاء الراشدين وتدرج حتى وصل الى الاحتلال البريطاني لليمن ١٨٣٩ ـ ١٩٦٧ والاحتلال العثماني لليمن الشمالى ١٨٤٩ – ١٩١٩ م ٠

٧٦ ـ مصطفى الحفناوي ٠

قناة السويس ومشكلاتها المعاصرة ، جزأن ، القاهرة ، جـ ١ نشرته مكتبة الأنجلو ، الطبعة الثانية ١٩٥٦ م ، جـ ٢ مطبعة دار أخبار اليوم ٠

خصص الجزء الأول ، لتاريخ القناة وأصول مشكلاتها ، وخصص الجزء الثاني للنزاع المصري البريطاني ٠

٧٧ ـ السيد مصطفى سالم ٠

تكوين اليمن الحديث ، ثلاثة أقسام ، القاهرة ، مكتبة سعيد رأفت ٠

القسم الأول ، الأتراك العثمانيون قبل الامام يحيى ، كما تحدث عن سياسة عبد الحميد الثاني الإسلامية ، وانتقل بعد ذلك الى الانتداب العثماني ١٩٠٨ م ٠

وأثره على اليمن ٠

٧٨ ـ مصطفى مراد الدباغ ٠

الجزيرة العربية موطن العرب ومهد الاسلام ، بيروت،منشورات دار الطليعة ، الطبعة الأولى ١٩٦٣ م ٠

معلومات تتعلق بجرافية وطبيعة أرض الجزيرة العربية ٠

٧٩ ـ هاشم سعيد النعيمي ٠

تاريخ عسير في الماضي والحاضر ، غير معروف مكان الطبع وسنتها ٠

على شكل ثلاثة فصول ، والفصل الثالث ، حالة عسير السياسية ، فتحدث ضمن ذلك عن الأمير عائض ، وابنه محمد بن عائض ، وعلاقاتهم بالدولة العثمانية والولاة العثمانيين ٠

٨٠ ـ الواسعي ٠

تاريخ اليمن ، المسمى فرجة الهموم والحزن في حوادث وتاريخ اليمن ، القاهرة ، المطبعة السلفية ١٣٤٦ ٠

القسم الأول ، السيرة النبوية وأئمة اليمن ، والقسم الثاني ، جغرافية اليمن ٠

٨١ ـ يوسف أحمد ٠

المحمل والحج ، القاهرة مطبعة حجازى ، ١٩٣٧ م ٠

استعرض في البداية العلاقات المصرية الحجازية ، ثم الاهتمام من قبل الحكومة الحجازية بالحجاج وأخيراً تكريم الكعبة في عهد الدول الاسلامية ٠



مراجع أجنبية مترجمة

٨٢ ـ بيير نوفان ·
تاريخ العلاقات الدولية ، ترجمة د· جلال يحيى ، القاهرة ، دار المعارف ، ط ١ / ١٩٧١ ·
قسمان ، في ستة أبواب ، ٣٨ فصلاً ·
الفصل السادس عشر ، قناة السويس والسياسة الفرنسية نحوها ، الفصل الثلاثون ، آسيا الصغرى · وسكة حديد بغداد ·

٨٣ ـ
تاريخ القرن العشرين ، ترجمة نور الدين حاطوم ، دمشق مطبعة جامعة دمشق / ١٩٦١ ·
محاضرات عن القرن العشرين مقسمة الى ثلاثة أقسام ،
القسم الأول ، الفصل الأول ، المصالح الأساسية للدول الأوروبية العظمى في بداية القرن العشرين ·

٨٤ ـ جان بيشون ·
بواعث الحرب العالمية الأولى ، ترجمة محمد عزت دروزة ، بيروت ، مطبعة الكشاف · الكتاب باللغة العربية عن ترجمة تركية عن فرنسية · للكاتب التركي حسين جاهد ياشين ، الفصل الرابع ، التشاد الفرنسى ـ الانكليزى في القرن التاسع عشر ، الفصل التاسع ، التفاهم على أمور الشرق قبيل الحرب العالمية الأولى ·

٨٥ ـ جالينا نيكتينا ·
قناة السويس ملكية وطنية للشعب المصري ، ترجمة ، ابراهيم عامر ، القاهرة مطبعة الدار المصرية ١٩٥٧ م ·
يبين أن قناة السويس ممر بحري ذو أهمية حيوية ·

٨٦ ـ جاتن جان بيربي ·
جزيرة العرب ، ترجمة نجدة هاجر ، وسعيد الفز ، بيروت ، المكتب التجاري للطباعة ·
خمسة أقسام ·

القسم الثالث ، الجنوب العربي ٠

٨٧ ـ جيمس موريس ٠

الملوك الهاشميون، بيروت، ترجمة ونشر المكتب العالمي للتأليف والترجمة ٠

المقدمة ، الأوضاع العامة في الدولة العثمانية ، خاصة منطقة الحجاز ثم ترجمة للشريف حسين ٠

٨٨ ـ جورج انطونيوس ٠

يقظة العرب ، ترجمة د٠ ناصر الدين الأسد ، د٠ احسان عباس ، بيروت ، دار العلم للملايين ط ٣ ٠

تحدث في الفصل الرابع عن عهد السلطان عبدالحميد ١٨٧٦ – ١٩٠٨م، البلاد العربية الخاضعة للسلطان ٠

٨٩ ـ حسين لبيب / ترجمته ٠

تاريخ الأتراك العثمانيين ، القاهرة ، مطبعة الواعظ ، ١٩١٧ ٠

مترجم عن الانجليزية ، الجزء الأول قسمان كل منهما مستقل بفصوله وأرقامه وصفحاته ، فتحدث في الفصل الخامس عن سكة حديد الحجاز ٠

٩٠ ـ شونفليد هبو٠ج ٠

قناة السويس ، ترجمة أحمد خاكي ، القاهرة ، مطبعة لجنة التأليف والترجمة ، ١٩٤٥ ٠

تحدث في الفصل الرابع عن ادارة قناة السويس وتجارة العالم ـ كيف نظمت شركة قناة السويس ٠ رسوم القناة وتكاليفها ـ الصيانة وتنظيم المرور ـ وأثرها في تجارة العالم ٠

٩١ ـ عبد الله فيبلى ٠

تاريخ نجد ودعوة الشيخ محمد بن عبد الوهاب ، ترجمة عمر الديراوي ، بيروت ، منشورات المكتبة الأهلية ٠

احد عشر فصلا ، بدأ من محمد بن مسعود ، وانتهى بعبد العزيز بن عبد الرحمن ٠

٩٢ ـ كارل بروكلمان ٠

تاريخ الشعوب الاسلامية ، ٥ أقسام ، ترجمة نبيه أمين فارس ، ومنير البعلبكي ، بيروت ، دار العلم للملايين ، الطبعة السادسة ، ١٩٧٤ م ٠

القسم الرابع ، الاسلام في القرن التاسع عشر ، وعلاقة الدولة العثمانية

باقاليمها ٠
القسم الخامس ، الدول الاسلامية بعد الحرب العالمية الأولى ، وعن الأحداث في شبه جزيرة العرب ٠
٩٣ ـ محمد عمر حبشي ٠
اليمن الجنوبي ، قسمان ، ترجمة د٠ الياس فرح ، د٠ خليل أحمد خليل ، بيروت ، دار الطليعة ، الطبعة الأولى ، ١٩٦٨ ٠
المقدمة لمحة تاريخية عن اليمن الجنوبي ، وذلك منذ الاكتشافات البحرية الكبرى ، كما تحدث عن الاستعمار البريطاني لعدن ٠
٩٤ ـ هارولد ف ، يعقوب ك ، سي ، اي ٠
عدن وجنوب اليمن في ملوك العرب ، جزآن ، ترجمة المضواحي ، دار النهضة ، الطبعة الأولى ، ١٩٦٧)٠
يتحدث في الجزء الأول عن الحكم العثماني في اليمن ، واستيلاء بريطانيا على المناطق المجاورة لعدن ٠

المراجع الأجنبية

٩٥ ـ H . L Hoskins : British Routs to India , London , Frank & Company L T D 1966 .

المجلات والدوريات العلمية

٩٦ ـ ميشال اسطفان ٠
مقال بعنوان (تاريخ الطوابع في المملكة العربية السعودية) ، مجلة تاريخ العرب ، العدد ٧٠ ٠
٩٧ ـ وجيه الخيمي ٠
مقال بعنوان « الخط الحديدي الحجازي ماضيه وحاضره » مجلة الفيصل العدد ٥٣٢ ، صفر ١٤٠٠ هـ / يناير ١٩٨٠ م السنة الثالثة ، دار الفيصل الثقافية الرياض ٠

فهرس

إصدارات إدارة النشر بتهامة

سلسلة : الكتاب العربي السعودي

صدر منها :

العنوان	المؤلف
• الجبل الذي صار سهلا (نفد)	الأستاذ أحمد قنديل
• من ذكريات مسافر	الأستاذ محمد عمر توفيق
• عهد الصبا في البادية (قصة مترجمة)	الأستاذ عزيز ضياء
• التنمية قضية (نفد)	الدكتور محمود محمد سفر
• قراءة جديدة لسياسة محمد علي باشا (نفد)	الدكتور سليمان بن محمد الغنام
• الظمأ (مجموعة قصصية)	الأستاذ عبد الله جفري
• الدوامة (قصة طويلة)	الدكتور عصام خوقير
• غداً أنسى (قصة طويلة) (نفد)	الدكتورة أمل محمد شطا
• موضوعات اقتصادية معاصرة	الدكتور علي بن طلال الجهني
• أزمة الطاقة إلى أين ؟	الدكتور عبد العزيز حسين الصويغ
• نحو تربية إسلامية	الأستاذ أحمد محمد جمال
• إلى ابنتي شيرين	الأستاذ حمزة شحاتة
• رفات عقل	الأستاذ حمزة شحاتة
• شرح قصيدة البردة	الدكتور محمود حسن زيني
• عواطف إنسانية (ديوان شعر) (نفد)	الدكتورة مريم البغدادي
• تاريخ عمارة المسجد الحرام (نفد)	الشيخ حسين باسلامة
• وقفة	الدكتور عبد الله حسين باسلامة
• خالتي كدرجان (مجموعة قصصية) (نفد)	الأستاذ أحمد السباعي
• أفكار بلا زمن	الأستاذ عبد الله الحصين
• كتاب في علم إدارة الأفراد	الأستاذ عبدالوهاب عبد الواسع
• الابحار في ليل الشجن (ديوان شعر)	الأستاذ محمد الفهد العيسى
• طه حسين والشيخان	الأستاذ محمد عمر توفيق
• التنمية وجها لوجه	الدكتور غازي عبد الرحمن القصيبي
• الحضارة تحد (نفد)	الدكتور محمود محمد سفر
• عبير الذكريات (ديوان شعر)	الأستاذ طاهر زمخشري
• لحظة ضعف (قصة طويلة)	الأستاذ فؤاد صادق مفتي
• الرجولة عماد الخلق الفاضل	الأستاذ حمزة شحاتة
• ثمرات قلم	الأستاذ محمد حسين زيدان
• بائع التبغ (مجموعة قصصية مترجمة)	الأستاذ حمزة بوقري
• أعلام الحجاز في القرن الرابع عشر للهجرة (تراجم)	الأستاذ محمد على مغربي
• النجم الفريد (مجموعة قصصية مترجمة)	الأستاذ عزيز ضياء

العنوان		المؤلف
• مكانك تحمدي		الأستاذ أحمد محمد جمال
• قال وقلت		الأستاذ أحمد السباعي
• نبض ...		الأستاذ عبد الله جفري
• نبت الأرض		الدكتورة فاتنة أمين شاكر
• السعد وعد	(مسرحية)	الدكتور عصام خوقير
• قصص من سومرست موم	(مجموعة قصص مترجمة)	الأستاذ عزيز ضياء
• عن هذا وذاك		الدكتور غازي عبد الرحمن القصيبي
• الأصداف	(ديوان شعر)	الأستاذ أحمد قنديل
• الأمثال الشعبية في مدن الحجاز		الأستاذ أحمد السباعى
• أفكار تربوية		الدكتور ابراهيم عباس نتو
• فلسفة المجانين		الأستاذ سعد البواردي
• خدعتني بحبها	(مجموعة قصصية)	الأستاذ عبد الله بوقس
• نقر العصافير	(ديوان شعر)	الأستاذ أحمد قنديل
• التاريخ العربي وبدايته	(الطبعة الثانية)	الأستاذ أمين مدني
• المجاز بين اليمامة والحجاز	(الطبعة الثانية)	الأستاذ عبد الله بن خميس
• تاريخ الكعبة المعظمة	(الطبعة الثانية)	الشيخ حسين عبد الله باسلامة
• خواطر جريئة		الأستاذ حسن بن عبد الله آل الشيخ
• السنيورة	(قصة طويلة)	الدكتور عصام خوقير
• رسائل إلى ابن بطوطة	(ديوان شعر)	الأستاذ عبد الله عبد الوهاب العباسي
• جسور إلى القمة	(تراجم)	الأستاذ عزيز ضياء
• تأملات في دروب الحق والباطل		الشيخ عبد الله عبد الغني خياط
• الحمى	(ديوان شعر)	الدكتور غازي عبد الرحمن القصيبي
• قضايا ومشكلات لغوية		الأستاذ أحمد عبد الغفور عطار
• ملامح الحياة الاجتماعية في الحجاز في القرن الرابع عشر للهجرة		الأستاذ محمد علي مغربي
• زيد الخير		الأستاذ عبد العزيز الرفاعي
• الشوق إليك	(مسرحية شعرية)	الأستاذ حسين عبد الله سراج
• كلمة ونصف		الأستاذ محمد حسين زيدان
• شيء من الحصاد		الأستاذ حامد حسن مطاوع
• أصداء قلم		الأستاذ محمود عارف
• قضايا سياسية معاصرة		الدكتور فؤاد عبدالسلام الفارسي
• نشأة وتطور الإذاعة في المجتمع السعودي		الأستاذ بدر أحمد كريم
• الإعلام موقف		الدكتور محمود محمد سفر
• الجنس الناعم في ظل الإسلام		الشيخ سعيد عبدالعزيز الجندول
• ألحان مغترب	(ديوان شعر)	الأستاذ طاهر زمخشري
• غرام ولادة	(مسرحية شعرية)	الأستاذ حسين عبد الله سراج
• سير وتراجم		الأستاذ عمر عبدالجبار
• الموزون والمخزون		الشيخ أبو تراب الظاهري

الكتاب		المؤلف
• لجام الأقلام		الشيخ أبوتراب الظاهري
• نقاد من الغرب		الأستاذ عبد الله عبد الوهاب العباسي
• حوار.. في الحزن الدافيء		الأستاذ عبدالله عبدالرحمن جفري
• صحة الأسرة		الدكتور زهير أحمد السباعي
• سباعيات	(الجزء الثاني)	الأستاذ احمد السباعي
• خلافة أبي بكر الصديق		الشيخ حسين عبد الله باسلامة
• البترول والمستقبل العربي		الأستاذ عبدالعزيز مؤمنة
• من حديث الكتب	(ثلاثة أجزاء)	الأستاذ محمد سعيد العامودي
• أيامي		الأستاذ أحمد السباعي
• التعليم في المملكة العربية السعودية		الأستاذ عبد الوهاب عبد الواسع

تحت الطبع :

الكتاب		المؤلف
• إليها	(ديوان شعر)	الأستاذ حسين عبد الله سراج
• حتى لا نفقد الذاكرة		الأستاذ سعد البواردي
• أحاديث وقضايا إنسانية		الدكتور عبد الرحمن بن حسن النفيسة
• تاريخ القضاء في المملكة العربية السعودية		الأستاذ حسن بن عبد الله آل الشيخ
• معجم اللهجة المحلية في منطقة جازان		الأستاذ محمد بن أحمد العقيلي
• الإسلام في نظر أعلام الغرب		الشيخ حسين عبد الله باسلامة
• قصص من طاغور	(ترجمة)	الأستاذ عزيز ضياء
• ماما زبيدة	(مجموعة قصصية)	الأستاذ عزيز ضياء
• مدارسنا والتربية		الأستاذ عبد الوهاب عبد الواسع
• عام ١٩٨٤ لجورج أورويل	(قصة مترجمة)	الأستاذ عزيز ضياء
• وجيز النقد عند العرب		الأستاذ عبد الله عبد الوهاب العباسي
• هكذا علمني ورد زورث		الأستاذ أبوعبد الرحمن بن عقيل الظاهري
• وحي الصحراء		الأستاذ عبد الله بلخير الأستاذ محمد سعيد عبدالمقصود خوجه
• الطاقة نظرة شاملة		الدكتور عبدالهادي طاهر
• طيور الأبابيل	(ديوان شعر)	الأستاذ إبراهيم هاشم فلالي
• عمر بن أبي ربيعة		الأستاذ إبراهيم هاشم فلالي
• رجالات الحجاز	(تراجم)	الأستاذ إبراهيم هاشم فلالي
• لا رق في القرآن		الأستاذ ابراهيم هاشم فلالي
• من مقالات عبد الله عبد الجبار		الأستاذ عبدالله عبدالجبار
• البعث		الأستاذ محمد علي مغربي
• شمعة ظمأى	(ديوان شعر)	الدكتور أسامة عبدالرحمن
• دعوة ودفاع		الشيخ سعيد عبد العزيز الجندول
• إليكم شباب الأمة		الشيخ سعيد عبدالعزيز الجندول
• لن تلحد		الشيخ أبوعبدالرحمن بن عقيل الظاهري

- **التنمية قضية** — الطبعة الثانية — **الدكتور محمود محمد سفر**
- **قراءة جديدة لسياسة محمد علي باشا** — الطبعة الثانية — **الدكتور سليمان بن محمد الغنام**
- **غداً أنسى (قصة طويلة)** — الطبعة الثانية — **الدكتورة أمل محمد شطا**
- **تاريخ عمارة المسجد الحرام** — الطبعة الثانية — **الشيخ حسين باسلامة**
- **خالتي كدرجان (مجموعة قصصية)** — الطبعة الثانية — **الأستاذ أحمد السباعي**
- **الحضارة تحد** — الطبعة الثانية — **الدكتور محمود محمد سفر**
- **الجبل الذي صار سهلا** — الطبعة الثانية — **الأستاذ أحمد قنديل**

سلسلة :

الكتاب الجامعي

صدر منها :

- الإدارة : دراسة تحليلية للوظائف والقرارات الإدارية — الدكتور مدني عبد القادر علاقي
- الجراحة المتقدمة في سرطان الرأس والعنق (باللغة الإنجليزية) — الدكتور فؤاد زهران، الدكتور عدنان جمجوم، الدكتور محمد عيد
- النمو من الطفولة إلى المراهقة — الدكتور محمد جميل منصور، الدكتور فاروق سيد عبد السلام
- الحضارة الإسلامية في صقلية وجنوب إيطاليا — الدكتور عبد المنعم رسلان
- النفط العربي وصناعة تكريره — الدكتور أحمد رمضان شقليه
- الملامح الجغرافية لدروب الحجيج — الأستاذ سيد عبد المجيد بكر
- علاقة الآباء بالأبناء (دراسة فقهية) — الدكتورة سعاد إبراهيم صالح
- مباديء القانون لرجال الأعمال — الدكتور محمد إبراهيم أبو العينين
- الاتجاهات العددية والنوعية للدوريات السعودية — الأستاذ هاشم عبده هاشم
- قراءات في مشكلات الطفولة — الدكتور محمد جميل منصور
- شعراء التروبادور (ترجمة) — الدكتورة مريم البغدادي
- الفكر التربوي في رعاية الموهوبين — الدكتور لطفي بركات أحمد
- النظرية النسبية — الدكتور عبد الرحمن فكري، الدكتور محمد عبد الهادي كامل
- أمراض الأذن والأنف والحنجرة (باللغة الإنجليزية) — الدكتور أمين عبد الله سراج، الدكتور سراج مصطفى زقزوق
- المدخل في دراسة الأدب — الدكتورة مريم البغدادي
- الرعاية التربوية للمكفوفين — الدكتور لطفي بركات أحمد
- أضواء على نظام الأسرة في الإسلام — الدكتورة سعاد إبراهيم صالح
- الوحدات النقديه المملوكية — الدكتور سامح عبدالرحمن فهمي

تحت الطبع :

- **الأدب المقارن** (دراسة في العلاقة بين الأدب العربي والآداب الأوروبية) — الدكتور عبد الوهاب علي الحكمي
- هندسة النظام الكوني في القرآن — الدكتور عبد العليم عبد الرحمن خضر
- تاريخ طب الأطفال عند العرب — الدكتور محمود الحاج قاسم
- المنظمات الاقتصادية الدولية — الدكتور حسين عمر ابراهيم



صدر منها:

- حارس الفندق القديم (مجموعة قصصية) — الأستاذ صالح إبراهيم
- دراسة نقدية لفكر زكي مبارك (باللغة الإنجليزية) — الدكتور محمود الشهابي
- التخلف الاملائي — الأستاذة نوال عبد المنعم قاضي
- ملخص خطة التنمية الثالثة للمملكة العربية السعودية — إعداد إدارة النشر
- ملخص خطة التنمية الثالثة للمملكة العربية السعودية (باللغة الإنجليزية)
- تسالي (من الشعر الشعبي) (الطبعة الثانية) — الدكتور حسن يوسف نصيف
- كتاب مجلة الأحكام الشرعية على مذهب الإمام أحمد بن حنبل الشيباني — الشيخ أحمد بن عبد الله القاري (دراسة وتحقيق) الدكتور عبد الوهاب إبراهيم أبو سليمان، الدكتور محمد إبراهيم أحمد علي
- النفس الإنسانية في القرآن الكريم — الأستاذ إبراهيم سرسيق
- واقع التعليم في المملكة العربية السعودية (باللغة الإنجليزية) (الطبعة الثانية) — الدكتور عبد الله محمد الزيد
- صحة العائلة في بلد عربي متطور (باللغة الإنجليزية) — الدكتور زهير أحمد السباعي
- مساء يوم في آذار (مجموعة قصصية) — الأستاذ محمد منصور الشقحاء
- النبش في جرح قديم (مجموعة قصصية) — الأستاذ السيد عبد الرؤوف
- الرياضة عند العرب في الجاهلية وصدر الإسلام — الدكتور محمد أمين ساعاتي
- الاستراتيجية النفطية ودول الأوبك — الأستاذ أحمد محمد طاشكندي
- الدليل الأبجدي فى شرح نظام العمل السعودي — الدكتور عاطف فخري
- رعب على ضفاف بحيرة جنيف — الأستاذ شكيب الأموي
- العقل لا يكفي (مجموعة قصصية) — الأستاذ محمد على الشيخ
- أيام مبعثرة (مجموعة قصصية) — الأستاذ فؤاد عنقاوي
- مواسم الشمس المقبلة (مجموعة قصصية) — الأستاذ محمد علي قدس
- ماذا تعرف عن الأمراض ؟ — الدكتور إسماعيل الهلباوي
- جهاز الكلية الصناعية — الدكتور عبد الوهاب عبد الرحمن مظهر
- القرآن .. وبناء الإنسان — الأستاذ صلاح البكري
- اعترافات أدبائنا في سيرهم الذاتية — الأستاذ علي عبده بركات
- الطب النفسي معناه وأبعاده — الدكتور محمد محمد خليل
- الزمن الذي مضى (مجموعة قصصية) — الاستاذ صالح إبراهيم
- مجموعة الخضراء (دواوين شعر) — الأستاذ طاهر زمخشري
- خطوط وكلمات (رسوم كاريكاتورية) (الطبعة الثانية) — الأستاذ علي الخرجي
- ديوان السلطانين — **الأستاذ محمد بن أحمد العقيلي**
- الإمكانات النووية للعرب وإسرائيل — الدكتور صدقة يحيى مستعجل

- رحلة الربيع — الأستاذ فؤاد شاكر
- وللخوف عيون (مجموعة قصصية) — الأستاذ أحمد شريف الرفاعي
- البحث عن بداية (مجموعة قصصية) — الأستاذ جواد صيداوي

تحت الطبع :

- قراءات في التربية وعلم النفس — الأستاذ فخري حسين عزّي، الدكتور لطفي بركات أحمد
- الموت والابتسامة (مجموعة قصصية) — الأستاذ عبد الله أحمد باقازي
- الوحدة الموضوعية في سورة يوسف — الدكتور حسن محمد باجودة
- الأسر القرشية .. أعيان مكة المحمية — الأستاذ أبو هشام عبد الله عباس بن صديق
- الحجاز واليمن في العصر الأيوبي — الدكتور جميل حرب محمود حسين
- ملامح وأفكار — الاستاذ أحمد شريف الرفاعي
- المذاهب الأدبية في شعر الجنوب — الدكتور علي علي مصطفى صبح
- النظرية الخلقية عند ابن تيمية — الدكتور محمد عبدالله عفيفي
- الكشاف الجامع لمجلة المنهل — الأستاذ عبدالله سالم القحطاني
- ديوان حمام — الأستاذ محمد مصطفى حمام
- رحلة الأندلس — الدكتور حسين مؤنس
- فجر الأندلس — الدكتور حسين مؤنس
- الماء ومسيرة التنمية — الأستاذ مصطفى نوري عثمان

رسائل جامعية

صدر منها :

- صناعة النقل البحري والتنمية في المملكة العربية السعودية (باللغة الإنجليزية) — الدكتور بهاء حسين عزي
- الخراسانيون ودورهم السياسي — الأستاذة ثريا حافظ عرفة
- الملك عبد العزيز ومؤتمر الكويت — الأستاذة موضي بنت منصور ابن عبدالعزيز آل سعود
- العثمانيون والإمام القاسم بن على في اليمن — الأستاذة أميرة على المداح
- القصة في أدب الجاحظ — الأستاذ عبد الله باقازي
- تاريخ عمارة الحرم المكي الشريف — الأستاذة فوزية حسين مطر
- النظرية التربوية الإسلامية — الأستاذة آمال حمزة المرزوقي
- نظام الحسبة في العراق .. حتى عصر المأمون — الأستاذ رشاد عباس معتوق
- المقصد العلي في زوائد أبي يعلي الموصلي (تحقيق ودراسة) — دكتور نايف بن هاشم الدعيس
- الجانب التطبيقي في التربية الإسلامية — الأستاذة ليلى عبد الرشيد عطار
- الدولة العثمانية وغربي الجزيرة العربية — الأستاذ نبيل عبد الحي رضوان

تحت الطبع :

- دور المياه الجوفية في مشروعات الري والصرف بمنطقة الإحساء بالمملكة العربية السعودية (باللغة الإنجليزية) — الدكتور فايز عبد الحميد طيب

- العقوبات التفويضية وحكمة تشريعها في ضوء الكتاب والسنة — الدكتور مطيع الله دخيل الله اللهيبي
- العقوبات المقدرة وحكمة تشريعها في ضوء الكتاب والسنة — الدكتور مطيع الله دخيل الله اللهيبي
- دراسة اثنوغرافية لمنطقة الإحساء (باللغة الإنجليزية) — الدكتور فايز عبد الحميد طيب
- اساليب التربية المعاصرة في ضوء الإسلام — الأستاذة فتحية عمر رفاعي الحلواني
- افتراءات فيليب حتى .. وبروكلمان على التاريخ الإسلامي — الأستاذ عبد الكريم علي باز
- الطلب على الإسكان من حيث الاستهلاك والاستثمار — الدكتور فاروق صالح الخطيب
- الحياة الاجتماعية والاقتصادية في المدينة المنورة في صدر الإسلام — الأستاذة نورة عبدالملك آل الشيخ
- تقييم النمو الجسماني والنشوء — الدكتورة ظلال محمود رضا

كتاب الناشئين

صدر منها :

سلسلة : وطني الحبيب

- جدة القديمة — الأستاذ يعقوب محمد اسحاق
- جدة الحديثة — الأستاذ يعقوب محمد اسحاق
- الديك المغرور والفلاح وحماره — الأستاذة فريدة محمد علي فارسي
- الطاقية العجيبة — الأستاذة فريدة محمد علي فارسي
- الزهرة والفراشة — الأستاذة فريدة محمد علي فارسي
- سلمان وسليمان — الأستاذة فريدة محمد علي فارسي
- زهور البابونج — الأستاذة فريدة محمد علي فارسي
- اليد السفلى — الدكتور محمد عبده يماني، إعداد الأستاذ يعقوب محمد اسحاق

سلسلة حكايات ألف ليلة وليلة

- السندباد والبحر — اعداد الأستاذ يعقوب محمد اسحاق

تحت الطبع :

- سنبلة القمح وشجرة الزيتون — الأستاذة فريدة محمد علي فارسي
- نظيمة وغنيمة — الأستاذة فريدة محمد علي فارسي
- جزيرة السعادة — الأستاذة فريدة محمد على فارسى



صدر منها :

- الصرصور والنملة — الأستاذ عمار بلغيث
- السمكات الثلاث — الأستاذ عمار بلغيث
- النخلة الطيبة — الأستاذ اسماعيل دياب
- الكتكوت المتشرد — الأستاذ عمار بلغيث
- المظهر الخادع — الأستاذ عمار بلغيث
- بطوط وكتكت — الأستاذ اسماعيل دياب

سلسلة لكل حيوان قصة

للأستاذ يعقوب محمد اسحاق

- القرد • الكلب • السلحفاء • الأسد • الحمار الأهلي • الفرس • الغزال • الوعل • الضفدع
- الضب • الغراب • الجمل • البغل • الفراشة • الدجاج • الحمار الوحشي • الجاموس • الدب
- الثعلب • الأرنب • الذئب • الفأر • الخروف • البط • الببغاء • الحمامة • الخرتيت

تحت الطبع

- الكنغـر • الهدهـد • البـوم • البجـع
- التمسـاح • فرس النهر • الخفـاش • النعـام

سلسلة حكايات كليلة ودمنه

إعداد : الأستاذ يعقوب محمد اسحاق

- عندما أصبح القرد نجارا
- الغراب يهزم الثعبان
- أسد غررت به أرنب
- المكاءالتي خدعت السمكات

تحت الطبع

- لقد صدق الجمل • سمكة ضيعها الكسل
- الكلمة التي قتلت صاحبها • قاض يحرق شجرة كاذبة

سلسلة التربية الإسلامية

للأستاذ يعقوب محمد اسحاق

- الله أكبر • الصلاة • صلاة العيدين • صلاة المسبوق • الشهادتـان • التيـمم
- قد قامت الصلاة • صلاة الاستخارة • صلاة الجمعة • أركان الاسلام • الـوضـوء
- صلاة الاستسقاء
- صلاة الجنازة
- صلاة الكسوف والخسوف

سلسلة حكايات للأطفال

نقلها إلى العربية الأستاذ عزيز ضياء

- سعاد لا تعرف الساعة
- الحصان الذى فقد ذيله
- تورتة الفراولة

كتب صدرت باللغة الانجليزية

Books Published in English by Tihama

- Surgery of Advanced Cancer of Head and Neck.

  By: F. M. Zahran
  A.M.R. Jamjoom
  M.D. EED

- Zaki Mubarak: A Critical Study.

  By Dr. Mahmud Al Shihabi

- Summary of Saudi Arabian
  Third Five year Development Plan

- Education in Saudi Arabia, A Model with Difference **Second Edition'**
  By Dr. Abdulla Mohamed Al-Zaid.

- The Health of the Family in A Changing Arabia
  By Dr. Zohair A. Sebai

- Diseases of Ear, Nose and Throat

  By: Dr. Amin A. Siraj
  Dr. Siraj A. Zakzouk

- Shipping and Development in Saudi Arabia
  By Dr. Baha Bin Hussein Azzee

- Tihama Economic Directory.
- Riyadh Citiguide.
- Banking and Investment in Saudi Arabia.
- A Guide to Hotels in Saudi Arabia.
- Who's Who in Saudi Arabia.